أصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

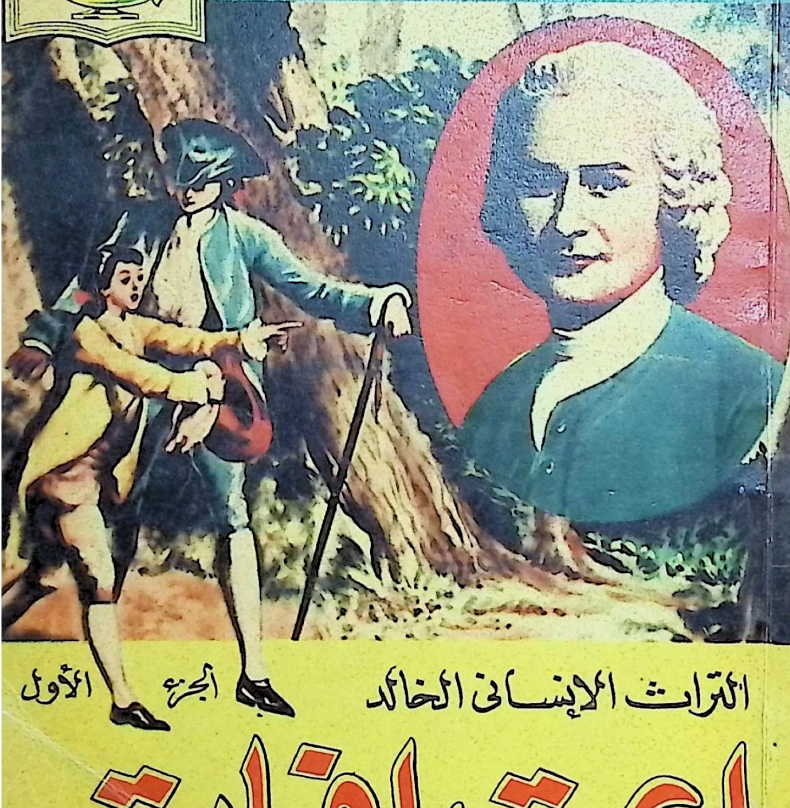

التراث الإنساني الخالد

الجزء الأول

اعترافات

جان جاك روسو

اعترافات

چان چاك رُوسّو

LES CONFESSIONS

DE

J.J. ROUSSEAU

٢٣٠ صفحة

١٢ قرشا

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمي مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الثامن والعشرون

اعترافات جان جاك روسو

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن خمسة وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، اما الاعداد الستةالأولى والعدد العشرون فقد نفدت، والادارة مستعدة لشرائها .

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى .

• ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امراة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، اوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظما للحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثار للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة اجزاء) ، بوشكين وثمن كل من الأول والرابع والسابعوالتاسع عشروالثانى والعشرين ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون والسادس والعشرون والسابع والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

حلم .. طالمـــا تمنيت تحقيقه !

عزيزى القارىء ..

• **بصدور** هذه الترجمة الكاملة « لاعترافات » جـان جاك روسو ، يتحقق حلم من أضخم الاحلام الإدبية التى راودتنى منذ عشقت الادب ، وأدركتنى حرفته ! .. ويتجسم هـدف من أعز الاهدافالتى أغرتنى باصدار سلسلة (مطبوعات كتابى) منذ قرابة عامين . ولئن كانت هذه المطبوعات قد تمكنت من ان تبلغ هذا الهدف فى مثل هذا الزمن القصير ، **بعد أن ظلت « اعترافات » روسو منيعة « مستعصية » على النشر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملين ، ترجمت خلالهما الى جميع اللغـات الحية ، ما عدا لغتنا العربية !** .. فان هذه السلسلة ما كانت لتحقق هـذا الهدف من أهدافهـا لو لم تتلقها أنت وتتعهدها منذ ولدت برعايتك واعزازك اللذين مكناها من تذليل جميـع الصعاب التى تعترض طريقها ، والسير قدما نحو غايتها .

واذا اردت ان تعرف قيمة هذا الـكنز الادبى الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فاليك ماكتبه عنه المفكر المطلع الاستاذ سلامه موسى فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (اخبـار اليوم) .. اذ قال : « **.. واعترافات جـان جاك روسو من الكتب التى كان يجب ان تترجم الى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنـة .. فلقد تغيرت اوربا بتأثير افـكار هذا الاديب . ونستطيع ان نعزو اهم التطورات التىحدثت فىهذه القارة الى آرائه ، التى يتلخص مغزاها فى كلمات معدودة ،هى: ان الطبيعة حسنة ، والانسانطيب ،ولكنهما يفسدان بالمجتمع السيىء .. فما احوجنا فى البلاد العربية الى هذه الخمائر !** »

ب الاديب والشاعر الـكبير الأستاذ عبد الرحمن

صدقى فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير عام ١٩٣٩ ! يقول : ((**انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة ((روسو)) ، وانصرف الادباء وجمهرة القراء عن مطالعة ((العقد الاجتماعى)) و ((اميل)) و ((هيلويز الجديدة)) ، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة ((اعترافاته)) ، ذلك ان الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والاخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، اما نجوى النفس البشرية فهى لاتتغير ولا تتبدل ، فنحن نتعرف فيها نحسه فى أعماقنا على غرائز رجل الكهوف .. فكم بالحرى اذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب ((الاعترافات)) ، اقرب الى عصرنا بثقافته ، وان كان اشبه بأهل الفطرة فى صراحته ، وجرأته ؟ !))**

والواقع ان هذه ((الاعترافات)) التى تقدم ((مطبوعات كتابى)) اليك اليوم أول ترجمة أمينة كاملة لها باللغة العربية ، والتى تعتبر من أعظم الشوامخ الخالدة فى الأدب ((الكلاسيكى))، هى ادق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى ((جان جاك روسو)) ، فى الثلاثة والخمسين عاما الاولى من حياته على الأقل .. ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه ((الاعترافات)) ، انها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فيظهرها على حقيقتها الكاملة دون أى زيف أو تستر .. فقد سجل ((روسو)) فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته ــ خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ــ دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة ، وكأنه مؤمن صادق التوبة ، يصارح الهه بأخطائه برهانا على صدق توبته ، والتماسا لصفحه

ولكن .. هل كان هذا هو الهدف الذى ابتغاه ((جان جاك روسو)) من وراء تسجيل اعترافاته ؟

انه يقول فى بداية الكتاب الاول من ((الاعترافات)) : ((فاذا ما انطلقت آخر صيحات بوق البعث ، عندما يقدر له ان يدوى، **فلسوف أمثل أمام الحاكم العادل ، وهذا الكتاب بين يدى ،**

ولسوف أقول فى رباطة جأش : هذا ما فعلت ، وما فكرت ، وما كنت .. لقد رويت فى كتابى الطيب والخبيث على السواء .. لقد صورت نفسى على حقيقتها ، فى ضعتها وزرايتها .. وفى صلاحها وحصافتها وسموها ، تبعا للحال التى كنت فيها ! .. لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسى ، كما كنت أنت تراها ، ايها الخالد السرمدى ! .. فاجمع حولى الحشد الذى لا حصر له من ابناء جنسى ، ودعهم يصغون الى اعترافاتى ، فيرثون لخستى ، ويخجلون لمثالبى .. ثم ادع كلا منهم الى ان يكشف بدوره ــ وبعين الصراحة ــ اسرار فؤاده ، عند قوائم عرشك ، وليقل ان جرؤ : لقد كنت خيرا من ذاك الرجل ! »

ونحن قد نجد فى هذه العبارات اثرا للتوبة ، ولكنه ــ فى الواقع ــ اثر طفيف ، خفيف ، يطغى عليه عامل أقوى وأشد .. عامل الزهو بالقدرة على كشف عيوب النفس ومثالبها .. وقد يكون هذا ــ فى عرف بعض فلاسفة التصوف ــ من أهم مظاهر التوبة ، ولكنى لا أحسبه كذلك فى « اعترافات روسو » !

واذن ، فماذا كان يبغى « روسو » من اعترافاته ؟

قد نجد الجواب عن هذا السؤال فى مؤلفاته التى سبقت « الاعترافات » ، وفى كتاب « اميل » بالذات .. فلقد أورد « روسو » فى هذا الكتاب ، وفى بعض مؤلفاته السابقة ، صورا من حياته ، ومن الشخصيات التى صادفته وأثرت فيه .. ولكنه كان يسدل عليها سترا من الزيف و « الرتوش » ، شأن كل كاتب وأديب ، حين توحى اليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تنساب على طرف قلمه أثناء الكتابة ، فيحاول ان يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التى تباعد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية فى نظر القارىء !

ولكن « روسو » كان يهدف من ايراد هذه الذكريات الى اكثر من مجرد رسم شخصيات ، أو افتعال أحداث . كان يسعى الى ان يقدم تجاربه للناس ، سيما فى ميدان التربية

ورعاية النشء . فلما واتته الجرأة ، نزع ستر الزيف والتضليل ، وساق الحديث صريحا واضحا ، واعترف بالسرقة والانحراف – مثلا – لينبه الآباء الى العوامل التى قد تدفع بالأبنـــاء بعيدا عن جادة الصواب .. ولينبه المجتمع الى الأشياء التى تنـــكبه بالمنحرفين من الأعضاء ..

وهذا ما نلمســه واضحا فى بعض مواضع من «الاعترافات» : فهو يقول تعليقا على معاملة ابيه لاخيه الاكبر : « كان من جراء الحنان الضافى الذى أسبغه أبى على ، أن أهمل هـــذا الأخ .. وتأثرت تربية أخى بهذا الاهمال ، فسلك مسالك السوء قبل ان يبلغ سنا تتناسب مع ادمان الفجور ! » .. الخ

.. وهو يقدم للحديث عن آثار العقاب فى نفسه ، عندما كان تلميذا للآنسة « لامبرسييه » بقوله : « فما أشد ما تتغير اليه معاملة المرء للصغار ، اذا قدر له أن يرى بجلاء مدى آثار اسلوب المعاملة المألوف ، الذى ينتهجه دون ما تبصر ولا حكمة ! » .. فان عقاب الشابة الحسناء «اثر على ميولى ، ورغباتى ، ونزواتى ، وعلى نفسى ذاتها ، طوال بقية حياتى » .. ثم يبين – فى موضع آخر – كيف قضى العقاب القائم على ظلم وعدم تحر للحقيقة ، على براءة النفس الطفلة الساذجة ، فجنحت الى الكذب والرياء

.. ويبين – فى سياق حديثه عن المدة التى قضاها فى تعلم حرفة الحفر على المعادن – كيف ان مخالطة الصغار لزملاء يكبرونهم سنا ، ويختلفون عنهم بيئة ونشأة ، يدفعهم الى الخضوع لما يوحى به اليهم هؤلاء الكبار .. اذ تعود «جان» الصغير السرقة بايعاز من زميل له !

كل هـــذه الصور توحى بأن « الاعترافات » لم تـــكن – فى غايتها – سوى دروس اجتماعية وتربوية

الاضطهادات تلاحقه فى كل مكان !

• **ولقد** تناولت « الاعترافات » حياة «روسو» حتى سنة

١٧٦٥ .. ومن الطريف انه بدأ فى وضعها عندما هاجر الى انجلترا . فان بعض كتبه السابقة ـ « أميل » و « العقد الاجتماعى » و « هيلويز الجديدة » ـ **تضمنت من الآراء والمهاجمات ما أثار غضب حكومة فرنسا ، ورجال الكنيسة ، وانصار المدارس الفلسفية فى فرنسا وهولندا وجنيف ، حتى لقد أحرقت كتبه علنا فى بعض البلدان ، واضطر الى ان يهرب من فرنسا الى جمهورية (بيرن) ، ولكن مجلس شيوخها أمره بمبارحتها ، فرحل الى (مورتيير) بمقاطعة نيوشاتل ـ وكانت تحت حكم فردريك الثانى البروسى ..**

على ان « روسو » ما لبث أن أصدر كتاب « خطابات الجبل » ، فاذا الضجة التى احدثها هذا الكتاب ، تضطره الى الرحيل الى جزيرة (سان بيير) فى بحيرة (بيين) .. ولكن مجلس شيوخ جمهورية (بيرن) عاد فأمره بمبارحة هذه الجزيرة التى كانت تابعة للجمهورية !

وكان « روسو » قد تلقى دعوة من صديق انجليزى ، فسافر الى انجلترا .. ووصل الى هناك فى يناير سنة ١٧٦٦ ، فمكث شهرين فى لندن ، ثم انتقل الى الريف فى (ووتون) بستراد فوردشاير ، حيث وضع الكراسات الست الاولى من « الاعترافات » . وتصادف أن نشرت الصحف فى تلك الاثناء خطابا بتوقيع ملك بروسيا ، يطعن فى اخلاق « روسو » ، فظن هذا بمضيفيه واصدقائه فى انجلترا الظنون ، ونزح فى مايو سنة ١٧٦٧ الى (اميين) ، حيث نزل بقلعة (ترأى) التى كانت ملكا للأمير دى كونتى ، فأقام بها ردحا تحت اسم « رينو » ! .. **وهناك استأنف كتابة «الاعترافات» . ثم رحل الى (جرينوبل) ، فما لبث ان ملها وسئم أهلها ، ومن ثم رحل الى (بورجوان) . بيد ان جوها لم يلائم صحته ، فانتقل فى سنة ١٧٦٩ الى (مونكان) ، حيث اتم الكراسة العاشرة من اعترافاته ..**

وما لبث « روسو » ان عاد الى باريس ، حيث سمح له

بالاقامة ، على شريطة ان لايكتب شيئا ضد الحكومة أو الدين. فانصرف الى نقل «النوتات» الموسيقية ، والى الاختلاط بعلية القوم . حتى اذا كان شهر مايو سنة ١٧٧٨ ، نقل الكاتب الفيلسوف ـ الذى كان قد بلغ السادسة والستين من عمره ـ الى كوخ فى (ارمنونفيل) يمتلكه الكونت جيراردان .. **وهناك، توفى فجأة فى ٣ يوليو من ذلك العام . وقد ذهب فريق من الناس ـ ومنهم مدام دى ستايل ـ الى انه انتحر** .. كما ذهب فريق آخر الى انه مات فى نوبة صرع

الطبعة التى ترجمنا عنها الاعترافات

• **ولقد** كان من عادة « روسو » أن يشرف بنفسه على اصدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه . على انه كان يتدخل فى الطبعات التى تصدر بعد ذلك ، فيضيف اليها بعض الملاحظات، دون ان يحذف أو يغير شيئا من موادها

ولقد تولى ثلاثة من أقرب خلصائه ـ هم « دوبيرو » و « مولتون » الجنيفى ، ومركيز « جيراردان » ـ فحص مخطوطاته بعد موته ، ومطابقتها على ماسبق أن أفضى به اليهم .. وقد انتهت تحقيقاتهم بصدد « الاعترافات » الى اصدار طبعة منها فى (جنيف) فى سنة ١٧٨٢ .. على ان « دوبيرو » لم يرض عن التعديلات التى ادخلت على الكراسات الست ، فأصدر بنفسه طبعة أخرى ، استند فيها الى ماكان بين يديه من وثائق ، لاسيما رسائل « روسو »

وفى سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من « الاعترافات » ، أخذت عن أصول قدمتها مدام « روسو » ، ولا تزال محفوظة فى البرلمان الفرنسى .. وكان الفارق بين كل من هذه الطبعات الثلاث وبين الاخريين ، لا يعدو مجرد تعديلات بسيطة فى بعض العبارات ، وليس فى الوقائع

والترجمة التى تقدمها لك «مطبوعات كتابى» اليوم ، أخذت عن طبعة أصدرتها دار « اوفيفر » فى سنة ١٨٥٩ ، بعد دراسة الطبعات الثلاث وتحقيقها ، ومن ثم فهى تعتبر أدق طبعة صدرت من« اعترافات جان جاك روسو » .. وقد بذل الزميل القدير الاستاذ محمد بدر الدين خليل فى نقلها الى العربيــة كل جهد ممكن ، للمحافظة على النص والروح بأمانة تامة ، لم يشبها أى اختصار ، أو حذف ، أو تحوير .. بل لقــد بذل عناية فائقة لجعل التعبير والأسلوب أقرب مايكونان الى النص الذى كتبه الأديب العبقرى ، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية ..

واخيرا ، فأملى ان تكون « مطبوعات كتابى » ، بنقلها هــذا التراث الانسانى الخالد الى لغتنا ، قد ساهمت فى تزويد المكتبة العربية بأثر شامخ من شوامخ الاعمال الادبية الباقية على الزمن . وقد حرصت على تزيين هذه الطبعة بكل ما استطعت الحصول عليه من صور للوحات زيتية ورسوم تاريخية قديمة عن حياة روسو ، والاماكن التى قضى فيهــا فترات هامة من حيــاته ، والشخصيات التى تحدث عنها فى اعترافاته .. ولمــا كان هذا الجزء الاول من الكتاب انما يتناول مرحلة الشباب البــاكر من حياة روسو ، التى كانت بمثابة المقــدمة للمراحل الاخرى من حياته الحافلة بالأحــداث ، فلم تسنح فيه المناسبات الــكافية لنشر عدد اكبر من هذه الصور والرسوم التاريخية . وسوف تجد المزيد منها فى الاجزاء التالية باذن الله .

ولهذه المناسبة ، أحسبك تقرنى على انه لم يكن من المــكن نشر كتاب يبلغ الألف صفحة تقريبا ، فى جزء واحد من(مطبوعات كتابى) ، ومن ثم لم يكن بد من نشر هــذه « الاعترافات » فى اجزاء متتابعة ، اغلب الظن انها سوف تصل الى ثلاثة أو اربعة اجزاء كبيرة ، يتألف كل منها من نحو ٢٣٠ صفحة ، من هذا الورق المصقول الذى لا يشغل حيزا كبيرا ، ويسمح فى الوقت نفسه بظهور الصور واللوحات واضحة فى الطباعة

بقى ايضاح اخير : وهو أننى ، حرصا على عدم ادخال أى تغيير على اصل الكتاب وسياقه ، لم أشأ اضافة اى عنوان فرعى يتخلل فصول الكتاب ، مادام المؤلف لم يضع هذه العناوين .. على انى رايت من الجهة الاخرى أن أضع فى السطر الاعلى الذى يحمل رقم كل صفحة يمنى ، عنوانا يعطى فكرة عن أهم موضوع يتحدث عنه روسو فى الصفحة ، كى يسهل على القارىء الرجوع الى الموضوع الذى يحب الرجوع اليه ، أو اعادة قراءته ، وقتما يشاء ..

والى اللقاء على صفحات الجزء الثانى من هذه الاعترافات ، فى منتصف سبتمبر باذن الله

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

اعترافات
جان جاك روسّو

الكتاب الخالد
في الأدب الإنساني
"الجزء الأول"

LES CONFESSIONS
DE J.J. ROUSSEAU

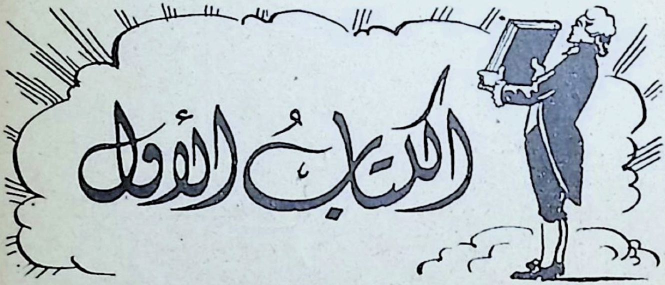

الكراسة الاولى

١ ـ من سنة ١٧١٢ الى سنة ١٧١٩

• **انني** مقدم على مشروع لم يسبقه مثيل ، ولن يكون له نظير . اذ انني أبغى ان أعرض على أقراني انسانا فى أصدق صور طبيعته .. وهذا الانسان هو : **أنا !** .. أنا وحدى !.. فانى أعرف مشاعر قلبى ، كذلك أعرف البشر ! **ولست أرانى قد خلقت على شاكلة غيرى ممن رأيت ، بل اننى لأجرؤ على ان اعتقد بأننى لم اخلق على غرار أحد ممن فى الوجود !.. واذا لم أكن أفضل منهم ، فاننى ـ على الأقل ـ اختلف عنهم !..** ولن يتسنى البت فيما اذا كانت الطبيعة قد أصابت او اخطأت اذ أتلفت القالب الذى صاغتنى فيه ، الا بعد قراءة هذه الاعترافات !

فاذا ما انطلقت آخر صيحات بوق البعث ، عندما يقدر له ان يدوى ، فلسوف أمثل أمام الحاكم العادل وهذا الكتاب بين يدى . ولسوف أقول فى رباطة جأش : « هذا ما فعلت ، وما

فكرت ، وما كنت .. لقد رويت فى كتابى الطيب والخبيث على السواء ، بصراحة ، فلم أمح اى ردىء ، ولا انتحلت زورا أى طيب .. واذا كنت قد استخدمت بعض التزويق الفارغ ـ بين وقت وآخر ـ فما ذلك الا لأملأ فراغا نشأ عن نقص فى الذاكرة. ولربما قطعت بصدق امر أعرف انه « قد » يكون صحيحا ، ولكننى قط لم أزعم صدق ما عرفته زيفا .. **لقد صورت نفسى على حقيقتها : فى ضعتها وزرايتها .. وفى صلاحها وحصافة عقلها ، وسموها .. تبعا للحال التى كنت فيها !.. لقد كشفت عن اعمق اغوار نفسى ، كما كنت انت تراها ، أيها الخالد السرمدى ..** فاجمع حولى الحشد الذى لا حصر له من أبناء جنسى ، ودعهم يصغون الى اعترافاتى ، فيرثون لخستى ، ويخجلون لمثالبى . ثم ادع كلا منهم الى ان يكشف بدوره ـ وبعين الصراحة ـ اسرار فؤاده ، عند قوائم عرشك ، وليقل ان جرؤ : « لقد كنت خيرا من ذاك الرجل » !

* * *

• **ولدت** فى (جنيف) ، فى عام ١٧٢١ ، للمواطنين « ايزاك روسو » و « سوزان برنار » ، وكان تقسيم ميراث أسرة أبى ـ على قلته ـ بين خمسة عشر ابنا وابنة ، قد هبط بنصيب أبى الى نذر لا يكاد يذكر ، فلم تكن له وسيلة عيش سوى مهنته كـ « ساعاتى » ـ وكان فى الحق جد بارع فيها ـ أما أمى فكانت أحسن منه حالا . كانت ابنة القس البروتستانتى «برنار» ، وكانت ماهرة ، جميلة ، وقد وجد والدى عناء فى الظفر بيدها ، اذ بدأ حبهما منذ طفولتهما الباكرة ، وما ان بلغا الثامنة حتى اعتادا ان يتمشيا كل مساء فى طريق (تريى) ، ابدع طرق جنيف .. فلما صارا فى العاشرة ، لم يعودا يفترقان. وعزز التعاطف والائتلاف الروحى ذلك الاحساس الذى خلقته الألفة بينهما .. ولم يكن كل منهما ـ وقد خلق مرهف الحس

رقيق الشعور ـ ليرجو سوى تلك اللحظة التى يتاح له فيها ان يكتشف عند الآخر نفس ما كان يخالجه من احساس .. أو ـ على الأصح ـ كانت تلك اللحظة ترتقبهما ، فأسلم كل منهما قلبه للآخر فى اول فرصة .. **وكأنى بالقدر ـ حين لاح انه يعارضهما ـ قد زادهما وجدا .. واذا بالعاشق الشاب الذى عجز عن الظفر بحبيبته ـ اذ أبى أهلها أن يزوجوه اياها ـ يذوب أسى وحزنا ، فنصحته فتاته بالترحال ، وبأن يسعى لنسيانها .** فسافر ، ولكن .. دون جدوى، اذ عاد مدلها اكثر من ذى قبل ! ووجد تلك التى أحبها لاتزال وفية ، صادقة الحب . فلم يبق لهما ـ بعد تلك التجربة التى اختبرا بها عاطفتهما ـ الا ان يظلا متحابين طيلة عمريهما .. فاقسما ان يفعلا ذلك ، وباركت السماء تعاهدهما !

وحدث أن وقع « جابرييل برنار » ـ شقيق أمى ـ فى حب احدى شقيقات أبى ، فلم توافق على خطبته الا على شريطة ان يتزوج أخوها من أخته . **وهكذا دبر الحب كل شىء ، وعقدت الزيجتان فى يوم واحد ، فأصبح خالى زوج عمتى ، وقدر لأولادهما ان يكونوا أولاد عمومةوخؤولة لى ..** وفى نهاية العام الأول للزواج ، رزق كل من الفريقين بطفل ، ثم تشتت شملهما . . فقد كان خالى مهندسا ، فعين فى خدمة الامبراطورية ـ فى المجر ـ تحت امرةالأمير «يوجين»» واستطاع أن يبلى بلاء حسنا فى معركة (بلجراد) . أما أبى ، فقد رحل ـ بعد مولد أخى الأوحد ـ الى القسطنطينية ، حيثاستدعى ليتولى منصب « ساعاتى السلطان » ! واستطاعت امى ـ فى غيابه ـ ان تكسب ولاء عدد كبير من المعجبين ، بفضل جمالها وذكائها ومواهبها (١) . وكان من اشد هؤلاء المعجبين تهافتا ،

---

(١) كانت مواهبها تفوق مكانتها الاجتماعية بكثير .. فان اباها القس كان يحبها الى درجة العبادة ، وقد بذل فى تعليمها وتربيتها عناية فائقة . ومن ثم فانها كانت تجيد الرسم ، والغناء ، والعزف على آلة تشبه العود . كما

مسيو « ديلا كلوزير » ، المندوب الفرنسى المقيم . ولا بد ان شغفه بها كان عارما ، فقد رأيته شديد التأثر وهو يحدثني عنها ، بعد ذلك بثلاثين عاما ! على ان أمى كانت تتذرع لمقاومة كل المحاولات بما هو اكثر من الفضيلة .. **كانت تحب زوجها حبا مبرحا . وقد راحت تلحف عليه فى العودة ، فترك كل شىء ورجع . وكنت الثمرة التعسةلهذه العودة، اذ ولدت بعد عشرة أشهر ، ضعيفا سقيما . وقد كبدت أمى حياتها ، وكان مولدى اول ما حاق بى من نحس وتعاسة !**

ولم يقص على أحد قط كيف احتمل أبى هذا المصاب، ولكنى أعرف أنه لم يتعز أبدا ، وكان يخال انه يرى زوجته فى شخصى، دون ان يقوى على ان ينسى اننى الذى حرمته اياها !.. أبدا لم يحتضنى دون ان ألاحظ ــ من تنهداته والاختلاجات التى كانت تعتريه وهو يضمنى الى صدره ــ ان حسرة مريرة كانت تخالط قبلاته ، فلا تزيدها الا حنانا . **وكان اذا قال لى : « لنتحدث عن امك يا جان جاك » ، أجبت : « حسنا، لسوف نبكى اذن يا أبت ! »** .. وكانت هذه العبارة وحدها كفيلة بأن تبعث الدمع الى عينيه، فكان يهتف متأوها : « آه !.. الا ردها الى !.. كن عزائى عن فقدها ، واملأ الفراغ الذى خلفته فى نفسى ! .. أفترانى كنت أحبك هذا الحب كله ، لو انك كنت مجرد ابن لى ؟ » .. وبعد اربعين عاما من مصابه فيها ، مات بين ذراعى زوجة ثانية .. ولكن اسم الأولى كان على شفتيه ، وصورتها فى قرارة فؤاده !

هكذا كان الاثنان اللذان أوجدانى ، ولم يورثانى ــ من كل النعم التى اسبغتها عليهما السماء ــ سوى قلب رقيق مرهف

كانت كثيرة الاطلاع ، وكانت تنظم أشعارا لا باس بها . وقد حدث ــ اثناء غياب زوجها واخيها ــ ان خرجت للنزهة مع زوجة اخيها ، فصادفتا شخصا ذكرهما بالغائبين ، واذا هى تقول على الفور شعرا هذا معناه :

هذان السيدان الغائبان .. عزيزان علينا من كل جانب ، فهما صديقانا وحبيبانا ، وهما زوجانا وشقيقانا .. وهما والدا طفلينا !

الحس .. ولقد كان قلباهما منبعى سعادتهما ، اما قلبى فقد كان منبع كل شقوة فى حياتى !

* * *

• **ولقد** هبطت الى الدنيا فى حال تقرب من الموت، فلم يكن ثمة أمل يذكر فى انقاذ حياتى . وكنت أحمل فى كيانى بذور علة أخذت تقوى على مر الزمن، ولا تبارحنى فى بعض الأوقات، الا لتقسو فى تعذيبى بشكل آخر . وقد أولتنى احدى عماتى ــ وكانت شابة لطيفة فاضلة ــ من الرعاية ما أنقذ حياتى . وهى لاتزال حتى كتابة هذه السطور على قيد الحياة ، وقد بلغت الثمانين من عمرها، وتوفرت على تمريض زوج يصغرها سنا ، ولكن الافراط فى الشراب انهك قواه .. اننى لأغفر لك، ياعمتى العزيزة ، ان أبقيت على حياتى . وما أعمق أسفى اذ أرانى عاجزا عن ان ارد اليك ــ فى اواخر ايامك ــ تلك الرعاية السابغة التى اوليتنيها فى اوائل ايامى ! (١) .. **كذلك لا تزال مرضعتى العزيزة العجوز «جاكلين» على قيد الحياة ، موفورة الصحة والقوة. وكأنى باليدين اللتين فتحتا عينى عند مولدى، ستغمضانهما عند وفاتى !**

ولقد تنبه احساسى قبل ان يتنبه فكرى .. وهو شىء يحدث لجميع البشر ، ولكننى كنت أكثر من سواى خبرة به وتجربة له .. ولست ادرى ماذا كنت أفعل قبل ان ابلغ الخامسة أو السادسة . ولا أعرف كيف تعلمت القراءة .. وكل ما اذكره، اول مرة قرأت فيها ، وما كان لها من تأثير ، فقد اتخذتها تأريخا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات .. **وكانت أمى قد خلفت بعض قصص غرامية ، شرعت فى قراءتها مع**

(١) كانت هذه العمة تدعى مدام جونسيرو . وقد رتب لها روسو ــ منذ مارس سنة ١٧٦٧ ــ معاشا قدره مائة جنيه ، كان يدفعه اليها دائما ، وفى مواظبة دقيقة ، حتى فى اشد اوقات ضيقه !

أبى ، عقب العشاء ، فى كل ليلة . وكان القصد من ذلك - فى البداية - مجرد تدريبى على القراءة ، بالاستعانة بالكتب المشوقة . ولكن الشغف لم يلبث ان دب فينا ، فكنا نتناوب القراءة دون توقف ، وننفق ليالى بأكملها فى هذا العمل . وكنا نعجز عن التحول عن الكتاب حتى نفرغ منه . وكان أبى يقول احيانا فى استحياء ، وهو يسمع العصافير تشرع فى الشقشقة مع مطلع النهار : « هيا بنا الى الفراش .. كأنى أنا الطفل ولست أنت ! »

وبفضل هذا الأسلوب الخطر ، استطعت فى أمد قصير ان أكتسب حذقا بالغا للقراءة والفهم .. ليس هذا فحسب ، بل اننى احرزت ايضا دراية بالعواطف المشبوبة ، كانت نادرة بالنسبة لطفل فى سنى . فباتت جميع مشاعر الحياة العادية مألوفة لدى ، وان لم أكن أدرك كنهها.. كنت أحس بكل شىء، دون ان أفقه كنه احاسيسى . فمن المؤكد ان هذه المشاعر المهوشة المبهمة - التى كنت أشعر بها واحدا بعد آخر - لم تؤلف نسيج قوى الادراك لدى ، لأننى لم أكن أحظى اذ ذاك بهذه القوى ، ولكنها ساعدت على تشكيلها فىاعماقى على نسق خاص ، وأوحت الى بأفكار خيالية غريبة عنالحياة الانسانية ، لم تقو التجربة وقوة التفكير على ان تبرئنى تماما منها طيلة حياتى !

٢ - من سنة ١٧١٩ الى سنة ١٧٢٣

• وفرغنا من الروايات فى صيف سنة ١٧١٩، فاذا الشتاء التالىيوافينا بمادة تختلف عنها . اذ اننا لم نكد نستنفد مكتبة أمى ، حتى تحولنا الى نصيبها - الذى آل الينا - من مكتبة أبيها . وكان بها بعض كتب دسمة ، لحسن الحظ . وما كان من المنتظر ان تكون غير ذلك ، اذ كانت جزءا من مكتبة جمعها

قس ، كان ـ فى الوقت ذاته ـ عالما ، على غرار ما كان مألوفا فى أيامه . كما كان رجلا ذا ذوق وذكاء ! وكان من هذه الكتب التى آلت الينا : « تاريخ الامبراطورية والكنيسة » للوسيور ، و « رسالة فى تاريخ العالم » لبوسويه ، و « حياة مشاهير الرجال » لبلوتارك ، و «تاريخ البندقية» لنافى ، و «التطورات» و «الأصول» لأوفيد، و «العوالم» و« حوار الموتى » لفونتنيل، وبعض مؤلفات موليير .. فنقلت كل هذه الى غرفة أبى ، وأخذت اقرأها عليه وهو عاكف على عمله . وكنت استوعبها فى استساغة نادرة ، بل لعلها كانت فذة بالنسبة لعمرى . وأصبح « بلوتارك » ـ بوجه خاص ـ هو أحب المؤلفين الى نفسى ، فأبرأنى الاستمتاع بقراءة كتابه مرارا وتكرارا من بعض الشغف الذى كان قد تملكنى نحو الروايات ،وسرعان ماشغلت بأبطاله : وبدأت أفضل « اجيسلاوس » و « بروتس » و « ارستيدس » على « اورونداتيس » و « ارتامينس » و « جوبا » . وقد أدى هذا الاطلاع المشوق ، والمحادثات التى كان يثيرها بينى وبين أبى ، الى تولد روح الحرية فى نفسى .. تلك الروح الأبية ،المنيعة ، التى لاتطيق العبودية أو الاسترقاق، والتى عذبتنى طوال حياتى ، فى مواقف كانت بعيدة عن ان تتيح لها مجالا .. وهكذا أصبحت أفكارى فى شغل لا ينقطع بروما وأثينا ، وقد دبت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما . وقد اذكى حماسى اننى ولدت مواطنا فى جمهورية ، وابنا لأب كانت وطنيته هى أشد عواطفه اتقادا ، فكنت أخال نفسى اغريقيا أو رومانيا ـ حسب شخصية العظيم الذى أقرأ سيرته ـ وكنت أذيب شخصيتى فى شخصيته ، كما كان الاسهاب فى ذكر صفات الجلد والبسالة ـ التى كانت تستهوينى ـ يجعل عينى تومضان ، وصوتى يقوى . وقد حدث ذات يوم ، ان انطلقت اروى سيرة « سكيفولا » للأفراد الذين ضمتهم مائدتنا ، فاذا بالجزع يتولاهم اذ رأونى فى غمرة

التحمس اتقدم فأضم قبضتي على المشواة ـ « الشواية » ـ الساخنة ، لأصور عملا من اعمال البطل !

وكان لى شقيق يكبرنى بسبع سنوات ، يتلقى عن أبى حرفته . **وقد كان من جراء الحنان الضافى الذى اسبغه ابى على ، أن أهمل هذا الأخ ، وهى معاملة لا أقرها ولا أحبذها !.. وتأثرت تربية أخى بهذا الاهمال ، فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع ادمان الفجور . وقد عهد به أبى الى معلم آخر ، فكان لا ينفك يهرب منه ، ومن البيت ، حتى اننى نادرا ما رأيته ، وأكاد أقول اننى لم أكن أعرفه !** على اننى لم أكف عن أن أحبه فى شغف . أما هو فقد أحبنى كما يحب الشريد أى شىء ! .. وأذكر أن أبى عاقبه ـ فى احدى المناسبات ـ بغلظة وغضب ، فاندفعت ملقيا بنفسى بينهما ، واحتضنته ،

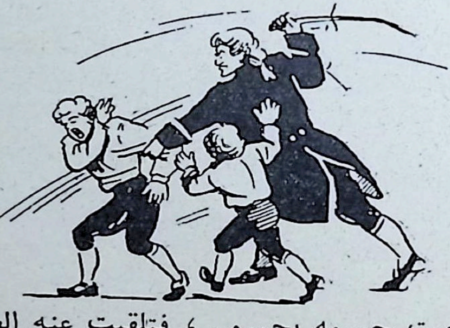

وبذلك حجبت جسمه بجسمى ، فتلقيت عنه الضربات التى كانت موجهة اليه ! وظللت متشبثا بهذا الوضع فى عناد ، حتى اضطر أبى فى النهاية الى ان يتخلى عن العقاب ، اما لأن صرخاتى ودموعى الانت قلبه ، أو لأنه خشى أن يؤذينى اكثر مما كان يؤذى أخى .. على ان حال هذا الأخ مالبثت أن ازدادت سوءا ، ففر واختفى كل اثر له . وسمعنا بعد ذلك بزمن انه كان فى

المانيا . بيد انه لم يكتب الينا قط ، ولا تلقينا عنه نبأ على الاطلاق ، ومن ثم صرت الابن الأوحد لأبى !

واذا كان هذا البائس قد نشأ محوطا بالاهمال ، الا ان هذه لم تكن حال أخيه .. انا ! فما كان ابناء الملوك ليحظوا بأكثر من الرعاية التى حظيت بها فى سنى حياتى الأولى .. كنت معبود كل المحيطين بى .. على ان هذه العبادة لم تجعل منى طفلا مدللا مفسودا ، كما هو المألوف فى الأطفال الذين يحظون بحب أهلهم . ولم يتح لى قط – الى أن غادرت دار أبى – أن أجرى فى الطرقات مع سواى من الاطفال ، ولا احتاج أحد الى ان يشجع او يكبح فى نفسى تلك النزوات الخيالية التى تعترض حياة الاطفال ، والتى تعزى – خطأ – الى الطبيعة ، وهى فى الواقع من ثمار التربية .. ولقد كنت ارتكب المآخذ المألوفة لدى أقرانى فى السن : فكنت ثرثارا ، نهما ، كذوبا فى بعض الأحيان .. وربما كنت أسرق بعض الفاكهة ، أو الحلوى ، أو المأكولات .. ولكنى لم أنشد قط متعة فى ايذاء الغير ، أو الاضرار بهم ، او اتهامهم ، او فى تعذيب الحيوانات البكماء المسكينة . وان كنت اذكر اننى تبولت مرة فى قدر أو وعاء لجارة لنا – تدعى مدام «كلو» – بينما كانت فى الكنيسة . وانى لأجهر ، حتى بعد أن بلغت هذه السن ، بأن ذكرى هذا الحادث تثير ضحكى .. فقد كانت مدام كلو أكثر الذين عرفتهم امعانا فى الشكوى ولجاجة فى التذمر ، رغم انها كانت طيبة فيما عدا ذلك .. وهذه – بايجاز وصدق – كبرى اساءاتى فى الطفولة !

* * *

• **وكيف** كان من الممكن أن أغدو شريرا ، وقد كانت عيناى لا تقعان الا على امثلة للطف والدماثة ، ولم يكن يحيط بى سوى خير ناس فى الدنيا ؟ .. **والحق ان ابى وعمتى ومربيتى**

واقاربى وأصدقائى وجيرانى ، لم يكونوا يخضعون لرغباتى ، ولكنهم كانوا يحبوننى ، وكنت انا الآخر أحبهم. وقليلا ماكانت رغباتى تثير ــ أو تستحق ــ معارضة ، حتى ليخطر لى أننى لم تكن لى أية رغبات على الاطلاق ! .. وبوسعى أن أقسم على اننى ما عرفت كنه النزوات أو الشطط فى الهوى ، الى ان قدر لى أن اعمل فى خدمة معلم . وفيما عدا الأوقات التى كنت أقضيها فى القراءة أو الكتابة ــ بصحبة أبى ــ او التى كانت مربيتى تصطحبنى فيها للنزهة .. فيما عدا هذه الاوقات ، كنت دائما مع عمتى ، أجلس أو أقف الى جوارها ، أرقبها وهى تطرز ، أو أصغى اليها وهى تغنى .. وكنت اغتبط بهذا . ولقد طبعت بشاشتها ولطفها ووجهها السمح اثرا عميقا ، بهيجا ، فى ذهنى ، حتى اننى لا أزال أتمثلها بخلقها ومظهرها وتصرفاتها ، ولا أزال أذكر لهجتها الحنون.. وبوسعى أن اصف ما كانت ترتديه من ثياب ، وكيف كانت تصفف شعرها ، دون أن أنسى الخصلتين اللتين كانتا تتدليان على صدغيها ، من شعرها الأسود ، على غرار ما كان شائعا فى ذلك العهد

وانى لأعتقد بأننى مدين لها بميلى ــ بل ولعى ــ بالموسيقى ، وهو الولع الذى لم يستكمل نموه فى نفسى الا بعد ذلك بزمن طويل . وكانت تعرف عددا من الألحان والأغانى الممتازة ، التى اعتادت أن ترددها بصوت جد رفيع رخيم ! .. وقد كان الطرب الذى فطرت عليه نفس هذه المرأة الرائعة ، يطرد عنها وعن كل المحيطين بها الوساوس والاكتئاب . وكان السحر الذى يفرضه غناؤها على نفسى عظيما ، حتى ان بعض أغانيها بقيت على الدوام فى ذاكرتى .. بل ان كثيرا من أغانيها التى كنت قد نسيتها تماما منذ أيام طفولتى ، ترتد اليوم الى ذهنى ــ بعد ان فقدت هذه العمة ، وبعد أن تقدم بى العمر ــ مصحوبة بسحر لا قبل لى بوصفه ! **أفيصدق أحد اننى وقد**

غدوت شيخا مخرفا ، تنتهبه الهموم والمتاعب ، أجد نفسى - فى بعض الأوقات - منخرطا فى البكاء كالطفل ، عنـد ما أترنم باحدى هذه الأغانى بصوت متحشرج مهدم ؟ .. بل ان احدى هذه الاغانى عاودتنى بكل جزئيـة من لحنها ، وان استعصت على بعض كلماتها ، رغم كل جهد أبذله لاستعادتها .. وها هو ذا مطلعها ، وكل ما أستطيع أن أذكره من بقيتها :

« لست اجرؤ يا «تيرسيس» على سماع مزمارك تحت شجرة الدردار

« فقد بدأ القوم يتحدثون عنا فى قريتنا !

«...راع، ...من خطر ، فالشوك دائما تحت الورد » (١)

وانى لأتساءل : أين السحر المؤثر الذى يجده فؤادى فى هذه الأغنية ؟.. انها نزوة واهمة لا أستطيع أن أفهمها . ومع ذلك فمن المستحيل تماما أن أردد هذه الأغنية دون أن تقطع على دموعى الاسترسال فيها ! ولقد اعتزمت مرارا لا حصر لها ان أكتب الى باريس متحريا عن بقية الكلمات ، اذا كان ثمة من يعرفها . على اننى أكاد اكون موقنا من أن قسطا من الطرب الذى أشعر به اذ أتذكر اللحن ، لن يلبث أن يتلاشى ،اذا تبينت أن هناك من ترنم بهذه الأغنية غير عمتى «سوسن» المسكينة!

* * *

. **هكذا** كانت مشاعرى الأولى فى بداية عهدى بالحياة .. وهكذا بدأ يتكون ويتكشف فى صدرى ذلك القلب الأبى الشفوق وتلك الشخصية التى لا تلين ولا تنثنى رغم رقتها القريبة من الانوثة ، والتى استطـاعت خـلال حيـاتى - بتذبذبهـا بين

---

(١) لا تزال هذه الأغنية معروفة فى باريس ، وشائعة بين طبقات العمال فيها . وهذه هى تتمة الكلام الناقص :

« القلب اذا ما اشتبك بحب راع ، لا ينجو من خطر

« فالشوك دائما تحت الورد »

الخجل والجرأة ، وبين الضعف والسـيطرة على النفس ـ ان تجعلنى متقلبا ، والتى تسببت فى ان اصبحت التقوى والمتعة ، واللهو والتعقل ، تفلت من قبضتى على السواء !

ثم قطـع على المضى فى الحظوة بهذه التربيـة حادث ، كان لتبعاته تأثير على كل ما تبع ذلك فى حياتى : فقد اشتجر أبى مع « يوزباشى » فى الجيش الفرنسى يدعى « جوتييه » ، كان على علاقة ببعض اعضاء المجلس الشعبى . ولقـد نزف أنف ذلك « الجوتييه » ـ الذى كان جبانا ، وقحا ـ إثناء الشجار ، فأراد ان يثأر لنفسه ، واتهم أبى بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة . وقد تشبث أبى ـ الذى أرادوا ان يلقوا به فى السجن ـ بأن لابد لصاحب الاتهام ان يرسل هو الآخر الى السجن ، وفقا للقانون . **فلما عجز عن أن يحقق هذا ، آثر ان يهجر (جنيف)، وان ينفى نفسه من وطنه بقية حياته ، على ان يتخلى عن أمر يتعلق بالشرف والحرية ، كما تراءى له !**

وبقيت أنا فى كنف خالى «برنار» ، الذى كان فى تلك الحقبة يعمل فى انشاء استحكامات (جنيف) . وكانت ابنته الكبرى قد ماتت ، وبقى له ابن فى مثل سنى . فأوفدنا معا الى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى «لامبرسييه» ، كى نتلقى ـ الى جانب اللغة اللاتينيـة ـ كل تلك السفاسـف الداعيـة للأسف ، والتى يزج بها تحت اسم التربية والتعليم . وقد ألانت السنتان اللتان قضيتهما فى القرية من خشونتى الرومانية بعض الشىء ، وردتانى طفلا من جديد . ففى جنيف كنت أهوى المطالعة والاطلاع ، اذ لم تكن ثمة مهام مفروضة على . . اما فى (بوسى) فان واجباتى جعلتنى أحب الألعاب التى كانت تتيح لى الفرار من تلك الواجبات . وكان الأقليم جديدا بالنسبة الى ، فلم يهن استمتاعى به ، وقد تملكتنى عاطفة قوية نحوه ، لم تخب منذ ذلك الحين . فكانت ذكرى الأيام الهنيئة التى قضيتها هناك تملأ نفسى حنينا محسورا الى بهجتها ، فى كل فترات حياتى ، حتى اليوم

الذى قدر لى فيه ان اعود الى ذلك الاقليم !

ولقد كان مسيو «لامبرسييه» لبيبا ، ذكيا،لم يسرف قط فيما كان يفرضه علينا من واجبات،ولم يهمل فى تعليمنا . ويكفى دليلا على ان اسلوبه فى التعليم كان جيدا ، اننى رغم كراهيتى للقيود ، لم اذكر مرة سويعات دراستى بامتعاض.. واننى ، حتى اذا كنت لم أتعلم كثيرا على يديه ، استوعبت فى غير عناء ماتلقيته عنه ، فلم أنسه أبدا . **وكانت بساطة الحياة الريفية لا تقدر بقيمة فى اعتبارى، فقد فتحت قلبى للصداقة . اذ أننى لم أكن قد عرفت حتى ذاك الحين سوى بعض المشاعر ، التى كانت ــ على سموها ــ خيالية متعلقة بأوهام !** . على ان تعود العيش فى وئام مع ابن خالى ــ وابن عمتى فى الوقت ذاته ــ شد كلا منا الى الآخر بروابط من التعاطف ، وسرعان ما اصبحت عواطفى نحوه اكثر مودة من تلك التى كنت أوثر بها أخى ،ولم يقدر لها قط ان تهن أو تضعف. وكان ابن خالى طويلا،نحيفا، ضعيفا .. رقيقا فى مسلكه بقدر ما كان رقيقا فى بنيانه ، لم يحاول مطلقا ان يسىء استغلال الايثار الذى كان يلقاه فى البيت بوصفه ابن الرجل الذى كان يكفلنى ! .. **وكانت واجباتنا ، وميولنا ، واذواقنا واحدة . وكنا وحيدين ، وفى سن واحدة ، وكل منا بحاجة الى زميل .. فكان الفراق ــ فى نظرنا ــ نوعا من الهلاك ! .. ومع انه لم تتح لنا سوى فرص قليلة لابداء هذا التعلق المتبادل ، الا انه كان تعلقا قويا شديدا ، فلم يكن من العسير علينا ــ فحسب ــ ان نعيش لحظة متباعدين ، بل اننا لم نكن نتصور ان من المحتمل ان نفترق !**

.. ولما كان كل منا على استعداد لأن يجنح الى اللطف والدعة مع الآخر ــ فى الاحوال التى لم يكن فيها أى قسر ــ فاننا كنا دواما على اتفاق فى كل شىء. واذا كان ابن خالى قد اعتاد أن يحظى بشىء من الامتياز دونى ،عندما كنا نجتمع بالذين كانا يرعياننا ــ نظرا لمكانته فى اعتبارهما ــ فاننى كنت احظى،اذا

ما خلا كل منا الى الآخر ، بامتياز عليه ،مما كان يحقق التعادل بيننا .. فكنت ـ ونحن نستذكر دروسنا ـ اؤنبه اذا ماابطأ ، كما كنت اساعده اذا ما فرغت من واجباتى الدراسية .. اما فى تسليتنا وألعابنا ، فقد كان عقلى اكثر نشاطا من عقله دائما، مما كان يكفل لى الزعامة . **وقصارى القول ان شخصيتينا انسجمتا تمام الانسجام ، كما ان الصداقة التى توثقت بيننا كانت من الاخلاص الصادق بحيث اننا لم نكن نفترق تقريبا، طوال السنوات الخمس التى قضيناها معا ، سواء فى (بوسى) أو فى (جنيف)** .. ومع اننا كنا نشتجر احيانا ، الا ان الشجار لم يكن ليفرق بيننا ، ولا كانت منازعاتنا تدوم لاكثر من ربع ساعة ، ولا كان اى منا يشكو الآخر او يتجنى عليه !.. وقد تكون هذه الملاحظات صبيانية ـ ان شئت ان تراها كذلك ـ ولكنها تضرب مثلا قد يكون فريدا فى نوعه ، مذ وجد أطفال على الأرض !

* * *

• **ولقد** راقت لى الحياة التى مارستها فى (بوسى) ، حتى انها لو دامت اطول مما قدر لها ، لكانت خليقة بأن تشكل شخصيتى .. فقد كان اساسها الحنان ، والعطف ، والرقة .. وكنت أومن بأن أحدا من أبناء نوعنا لم يكن يبزنى فيما فطرت عليه من تحرر من الغرور . وكنت أسمو بنفسى فأحلق عاليا ، ثم لا البث سراعا ان أهوى الى ضعفى الطبيعى واستخذائى .. كانت اكثر رغباتى الحاحا ، هى ان اكون محبوبا لدى كل من يتصل بى عن كثب . وقد كنت ذا فطرة رقيقة ، وكذلك كان ابن خالى ، والشخصان اللذان وكلت اليهما رعايتنا . ومن ثم فاننى لم أشهد، ولا خبرت ـ خلال عامين كاملين ـ اى شعور أهوج عنيف ، بل كان كل شىء يغذى فى قلبى تلك الميول التى اودعته الطبيعة اياها . ولم أكن أعرف سعادة تسمو على ان

ارى كل الدنيا راضية عنى ، وعن كل شىء! **ولن انسى ماحييت ان شيئا لم يكن يقض راحة بالى ، قدر مشاهدتى أمارات القلق والاستياء على محيا الآنسة ((لامبرسييه)) – اخت القس – عندما كان يقدر لى أن أتردد أو أتلعثم ، وانا اتلو الدرس الدينى من الذاكرة فى الكنيسة .** كان هذا – فى حد ذاته – اكثر ازعاجا لى من ان أكشف عن عجز فى أمام الملأ ، على ما كان فى هذا من ايلام لنفسى . ذلك لانه وان لم يستخفنى الاطراء ، الا اننى كنت شديد التأثر بما يخجل . وانى لأذهب هنا الى القول بأن التفكير فى تأنيبات الآنسة « لامبرسييه » كان أقل ازعاجا لى من الخوف من أن أجرح شعورها !

على ان الشدة لم تكن تعوز الآنسة وشقيقها ، اذا دعا اليها الأمر .. ولكن هذه الشدة كانت عادلة فى الغالب ، ولم تكن قط صادرة عن انفعال أو موجدة ، ومن ثم فانها كانت تؤلمنى دون ان تثير تمردى .. كان الاخفاق فى الارضاء أقسى وقعا على نفسى من العقاب ، وكانت امارات الاستياء اكثر ايذاء لى من العقاب البدنى .. وقد يكون من المحرج ان أمضى فى الحديث عن نفسى بأكثر من هذا ، ولكننى لا أجد بدا .. **فما اشد ما تتغير اليه معاملة المرء للصغار ، اذا قدر له ان يرى بجلاء مدى آثار أسلوب المعاملة المألوف ، الذى ينتهج دائما دون ما تبصر ولا حكمة !** .. وان الدرس الهام الذى قد يستمد من مثال واحد – شائع بقدر ما هو خطير العواقب – ليحملنى على ان أروى هذا المثال :

كانت الآنسة « لامبرسييه » تكن لنا حنان الأمومة ، ولكنها كانت كذلك تفرض علينا سلطان الأم ، وكانت أحيانا تذهب فى ذلك الى حد معاقبتنا – كما يعاقب الأطفال – عندما نستحق ذلك . ولقد اكتفت – بعض الوقت – بالتهديدات ، فكان الانذار بالعقاب يبدو لى رهيبا ، اذ كان جديدا على . على اننى تبينت – بعد تنفيذه – ان الواقع كان اقل رهبة من الترقب ..

والأغرب من ذلك ، ان العقـــاب جعلنى اكثر تعلقـــا بتلك التى انفذته فى ! ووجدتنى بحاجة الى أن أتذرع بقوة هذا التعلق ، وبكل ما اوتيت من وداعة فطرية،لأكبح نفسى عن اتيان ما قد يجعلنى أهلا لتكرار العقاب ، اذ اننى كنت اشعر فى الألم ــ على ما فيه من خزى ــ بلذة تجعلنى أقل خوفا ، واكثر رغبة فى أن أحظى به مرة أخرى ، من نفس اليد ! .. **ولا ريب فى أن غريزة**

جنسية ما ، ذات نضوج مبكر سبق أوانها ، كانت تخالط هذا الشعور ، لأن عين النوع من العقاب لم يكن يبدو مستحبا اذا ما اوقعه بى شقيق الآنسة !.. على انه لم يكن ثمة خوف من أن يحل القس محل أخته فى معاقبتى ، نظرا لرقة مشاعره . واذا كنت قد نأيت بنفسى عن ان استحق العقاب ، فما كان ذلك الا عن خوف من ان اتسبب فى استياء الآنسة لامبرسييه. ذلك لأن كرم الخلق كان اقوى تأثيرا على نفسى من كل لذة حسية ، ومن ثم فقد كان دائما يسيطر على هذه الأخيرة فى اعماقى !

ولقد نجم تكرر العقاب ــ الذى تقاديته دون ان أخشاه ــ عن غير ذنب منى .. ولى أن أقول اننى افدت منه ، دون أى تبكيت من ضميرى .. **ولكن هذه المرة الثانية كانت هى الأخيرة**

كذلك ، لان الآنسة لامبرسييه – التى لاحظت ولاشك شيئا أقنعها بأن العقاب لم يؤت الاثر المنشود – اعلنت أن هذا العقاب يضنيها ، وانها لذلك اعتزمت ان تتحول عنه ! وكنا حتى ذلك الحين ننام فى غرفتها ، بل وفى سريرها أحيانا ، اثناء الشتاء . ولكنا – بعد يومين – نقلنا للنوم فى غرفة اخرى . ومنذ ذلك الوقت ، حظيت بشرف المعاملة كفتى كبير ، وهو شرف كنت على استعداد لأن اتخلى عنه مغتبطا !

* * *

• **ومنذا** الذى كان يصدق ان هذا العقاب الصبيانى الذى كانت تنزله بى – وانا لم أتجاوز الثامنة من عمرى – شابة فى الثلاثين ، قد اثر على ميولى ، ورغباتى ، ونزواتى ، وعلى نفسى ذاتها ، طوال بقية حياتى ، وبشكل يناقض تماما النتيجة الطبيعية التي كان ينبغى ان يؤدى اليها ؟ .. فما ان اتقدت مشاعرى مرة ، حتى انطلقت شهواتى ، وان لم تحفل بأن تتطلع الى اكثر من الارضاء المحدود الذى شعرت به بالفعل فى ذلك العقاب !.. **على اننى رغم دمى الحار – الذى كان يتقد بالشهوة منذ مولدى تقريبا – صنت نفسى عن كل شائبة ، حتى السن التى تستيقظ فيها ابرد الطباع واكثرها فتورا وبطءا !.. فقضيت زمنا طويلا ألتهم كل الحسان اللائى كنت أقابلهن بنظرات متقدة ، وأنا اتعذب دون أن أدرى لذلك سببا !.. وكان خيالى لا يفتأ يذكرنى بهن ، لا لشىء الا لأستغل اطيافهن على طريقتى الخاصة ، فأجعل منهن نسخا عديدة من الآنسة لامبرسييه !..** بل ان هذا الذوق الغريب – الذى ظل كامنا فى نفسى على الدوام ، والذى ذهب سلطانه على الى حد أن فرض على الحرمان واستبد بى الى درجة تثير الغيظ – ان اخلاقى ، حتى بعد أن بلغت سنى النضوج ، رغم انه كان خليقا – بطبيعته – بأن يقوض من هذه الأخلاق !

واذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة ، فهذه هى تربيتى يقينا. فان عماتى الثلاث لم يكن أمثلة للتقوى فحسب ، بل انهن كن متحفظات الى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ أمد طويل. وكان أبى محبا للهو ، ولكنه كان فى لهوه من اتباع المدرسة القديمة فى الكياسة ، فما نطق يوما بكلمة يمكن ان تبعث حمرة الخجل الى وجنات العذارى ، ولو فى حضرة نساء يؤثرهن بما لم يكن يؤثر به سواهن من حب .. ولم يكن الوقار - الخليق بأن يلتزم فى حضور الصغار - موضوع مراعاة فى اسرة ما ، قدر ما كان مرعيا فى اسرتى ، وفى حضورى ..

وقد وجدت من السيد لامبرسييه نفس الحرص فى هذه الناحية ، حتى لقد فصل من خدمته خادما جد بارعة ، لمجرد انها استعملت فى حضورنا تعبيرا كان يعتبر مستهجنا غير لائق !.. **وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال ، دون ما فكرة واضحة عن الجماع بين الجنسين .. ليس هذا فحسب ، بل ان الصورة المبهمة ، غير الواضحة المعالم عن الجماع ، لم تكن لتخطر ببالى الا فى أقبح الاشكال وأزراها** . وكنت اشعر نحو البغايا بازدراء عارم لم تخف حدته يوما ، وظل اى مشهد للفجور يملأ نفسى بالسخط ، بل وبالاشمئزاز دائما .. وهكذا ولد استبشاعى للفسق منذ اليوم الذى سرت فيه الى تلال (بيتى ساكونيكس) - على غير قصد واضح منى - فشهدت على الجانبين حفرا فى الأرض ، قيل لى ان تلك المخلوقات - البغايا - كن يمارسن فيها بغاءهن . وقد ظل مجرد التفكير فى اى بغى ، يبعث فى ذهنى صورة جماع الكلاب ، فكانت الذكرى وحدها كافية لأن تثير اشمئزازى !

هذا الاتجاه الذى اتجهت اليه تربيتى ، والذى أدى - فى حد ذاته - الى تأخير الاندلاعات الأولى لطباع قابلة للالتهاب .. اقول ان هذا الاتجاه وجد - كما ذكرت - ما يعززه فى الاتجاه الذى اتخذته اولى بوادر الحس الشهوانى فى حالتى .

فان اقتصارى فى شغل خيالى على ما احسست به بالفعل ـ برغم ما كان فوران دمى يسببه لى من متاعب ـ علمنى كيف أحول شهواتى نحو هذا النوع من اللهو الذى كنت آلفه ، دون أن أتمادى الى ذلك النوع الذى وجدت نفسى تبغضه ، والذى كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخر !.. فكنت فى تصوراتى الطائشة ، وفى فوراتى الجنسية المكبوتة ، وفى التصرفات الهوجاء التى كانت تدفعنى هذه وتلك اليها احيانا .. كنت فى كل هذه ، الجأ فى « خيالى » الى الاستعانة بالجنس الآخر ، دون ان يخطر قط ببالى ان هذا الجنس يصلح لخدمة أى غرض سوى ذاك الغرض الذى كنت أتحرق شوقا الى أن أستخدمه فيه . وعلى هذا النحو استطعت ـ برغم ما جبلت عليه من طبيعة شهوانية هوجاء تسبق أوانها فى النضوج ـ أن اجتاز فترة البلوغ دون شهوات ، بل دون ما ادراك لأية ملذات شهوانية اللهم الا تلك التى نبهت الآنسة لامبرسييه حسى اليها فى براءة تامة ، ودون ان تفطن !

فلما بلغت ـ مع الزمن ـ مبلغ الرجال ، اذا بالأحاسيس التى كانت خليقة بأن تقضى على ، هى ذاتها التى صانتنى من الدمار .. وبدلا من ان يختفى شعورى الصبيانى القديم ، اذا به يقترن بالشعور الآخر ـ المتسامى ـ بدرجة تعذر على معها أن أقصيه عن الرغبات التى أخذت شهواتى تذكيها فى نفسى .. **وكان هذا الجنون ، الى جانب ما جبلت عليه من خجل فطرى ، يجعلنى دائما أبعد ما أكون عن أن أروق فى نظر النساء ، اذ كانت تعوزنى الجرأة على ان أقول كل ما ينبغى ان يقال ، كما كانت تعوزنى القدرة على أن أفعل كل ما ينبغى ان يفعل ..** ذلك لأن النوع الذى كان يروق لى من المتعة ـ والذى كانت اللذة الأخرى هى الحلقة النهائية المكملة له ـ لم يكن مما يلجأ اليه المشوق الى اللذة ، ولا مما يخطر ببال المرأة التى تجد من نفسها استعدادا لأن تمنح اللذة !

☆☆☆

• **وهكذا** قضيت عمرى فى شوق متقاعس ، دون ان انبس ببنت شفة فى حضرة اولئك النساء اللواتى احببتهن كل الحب .. على اننى أرضيت ذوقى أخيرا — وانا اشد ما اكون استحياء من المجاهرة به — فى مواقف كانت تتمشى معه ، وان احتفظت فى نفسى بالفكرة !.. فكان مجرد الاستلقاء عند قدمى سيدة جليلة ، واطاعة اوامرها ، واستغفارى اياها ، أحلى متعة فى رأيى !.. وكلما أذكى خيالى النشيط وقدة دمائى ، ازداد ظهورى بمظهر العاشق الخجول . ومن السهل ان يتصور أى مرىء أن هذا النهج فى الهوى لا يقود الى نتائج عاجلة ، ولا هو جد خطير على فضيلة اولئك الذين يخضعون لسلطانه **.. ومن اجل هذا ، ندر ان ضاجعت امرأة ، ولكننى — مع ذلك — متعت نفسى بطريقتى الخاصة .. اعنى ، فى خيالى فقط !..**
وهكذا تسنى لأحاسيسى المنسجمة مع طبعى الخجول وروحى الخيالية الشاعرية ، أن تصون مشاعرى نقية ، وأخلاقى خالصة مما يعاب ، وذلك بفضل نفس النزوات التى كانت خليقة — اذا ما اقترنت بقليل من النزق — بأن تزج بى الى أبشع مسلك شهوى حيوانى !

بهذا أكون قد اجتزت أصعب الخطوات فى أظلم وأقذر الدروب فى اعترافاتى . وانه لأيسر على المرء أن يعترف بالذنب ، منه بأن يقر بالنزق الذى يدعو الى الخزى . ومن ثم فانى واثق من اننى — بعد أن جرؤت على أن أقول ما قلت — لن أجفل من شىء . وفى وسع أى انسان أن يقدر مدى ما كبدتنى هذه الاعترافات ، اذا علم اننى خلال حياتى كلها لم اجسر قط على أن أفضى بشىء من ضلالاتى لأولئك الذين احببتهم بعاطفة هوجاء حرمتنى البصر والسمع ، وسلبتنى مداركى ، وجعلتنى أرتجف فى اختلاجات عنيفة .. **فما استطعت يوما أن أحمل**

نفسى على أن أسأل امرأة ان تمنحنى النعمة المشتهاة دون كل النعم ، مهما كنت وثيق الصلة بها ! .. اجل لم يحدث لى هذا سوى مرة واحدة، وكان ذلك فى حداثتى، ومع فتاة من سنى.. وحتى فى تلك المرة ، كانت الأنثى هى السباقة الى العرض !

واذ أرجع بالذاكرة الى المعالم الأولى فى حياتى الداخلية ، اعثر على عوامل قد تبدو — فى بعض الاحيان — غير ذات بال، ولكنها مع ذلك اتحدت لتنتج فى قوة أثرا بسيطا مهذبا .. كما أعثر على عوامل أخرى ، قد تبدو — فى ظاهرها — كسابقتها ، ولكنها كونت اتحادات مختلفة عن تلك ، بفضل تعاون ظروف معينة ، دون ان يتصور المرء مطلقا انها كانت مترابطة !.. **فمثلا ، منذا الذى يعتقد ان نزعة من اقوى نزعات نفسى قد هذبت وذللت فى اعماقى النبع الذى فاض منه فى دمى سيل من الشهوة ومن التخنث ؟ ..** ولسوف أرسم على ضوء هذا الموضوع — ودون ان اخرج عن نطاقه — صورة أخرى مختلفة: فقد حدث ذات يوم ان كنت استذكر درسى فى عزلة فى الحجرة المجاورة للمطبخ ، وكانت الخادم قد وضعت امشاط الآنسة لامبرسييه أمام المدفأة لتجف. فلما جاءت لتستعيدها، وجدت مشطا قد تحطمت جميع أسنانه .. فعلى من كان يقع اللوم ؟ لم يكن ثمة من دخل الحجرة سواى ! فلما سئلت ، أنكرت اننى مسست الأمشاط ، فشرع السيد والآنسة لامبرسييه فى أخذى بالرفق ، ثم بالضغط ، ثم بالوعيد ، ولكننى اصررت على انكارى فى عناد . على ان القرائن كانت جد قوية ، بحيث فاقت كل احتجاجاتى — رغم انها كانت المرة الأولى التى ظن فيها اننى اكذب بمثل هذه الجرأة ! — فاعتبرت المسألة خطيرة ، وكانت فى الواقع جديرة بذلك . وبدا الذنب، والكذب، والعناد، خليقة كلها بأن تتطلب العقاب، ولكن العقوبة لم تنفذ بيد الآنسة لامبرسييه فى هذه المرة، وانما ارسل خطاب الى خالى برنار، فحضر واتهم ابن خالى المسكين بذنب آخر خطير ، لا يقل عن ذنبى ،

فحق عليه نفس العقاب ، وما كان أفظعه !.. **فلو انهم شاءوا ان يستخلصوا العلاج من الداء ، وان يقتلوا الى الأبد أحاسيسى المكبوتة ، لما فعلوا اكثر مما فعلوا فى هذه المناسبة ، فقد كفت مشاعرى الشهوية عن ازعاجى امدا طويلا بعدها !**

ذلك انهم لم يستطيعوا ان ينتزعوا منى الاعتراف المنشود. ومع اننى مثلت بين أيديهم عدة مرات ، وتعرضت لمحاولات أرهقتنى الى درجة خليقة بالرثاء ، الا اننى لم اتزعزع عن موقفى . وكنت على استعداد لان اصمد حتى الموت ، وقد عقدت عزمى بالفعل على ذلك ! واضطرت القوة الى ان تتراجع امام « العناد الشيطانى » الذى كان صادرا عن غلام صغير ــ كما وصفوا ثباتى ــ وأخيرا نجوت بجلدى من هذه المحاكمة القاسية وانا محطم .. ولكننى كنت منتصرا ! ولقد انقضى حتى الآن خمسون عاما منذ وقع هذا الحادث ــ فلست أخشى أن اعاقب ثانية من أجله ــ ومن ثم فاننى اعلن على مشهد من السماء اننى كنت بريئا من الذنب ، وانني لم أكسر المشط او أمسه ، ولا اقتربت من المدفأة ، بل ولا فكرت فى ذلك .. ولا جدوى من وراء سؤالى عن كيفية حدوث ما حدث ، فاننى لا ادرى ولا أستطيع أن ادرى .. كل الذى اعلمه عن يقين ، هو اننى لا شأن لى به !

* * *

• **ولكم** ان تتصوروا شعور غلام خجول ، ومطيع فى حياته العادية ، ولكنه شديد الاعتزاز ، مفرط الكبرياء ، جامح العواطف .. غلام لم ينقد قط الا الى صوت العقل ، ولم يعامل الا بالرفق ، والانصاف ، والتقدير ، فليست لديه اية فكرة عن الظلم .. **تصوروا غلاما كهذا يتعرف للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم ، وعلى أيدى أولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم اكثر من غيرهم ! .. فيالها من صدمة**

خيبت آراءه ! ويا له من حادث أخل باتزان مشاعره ! ويا له من انقلاب ألم بقلبه وعقله وكل كيانه الذهنى والمعنوى على صغره ! تصوروا هذا ان استطعتم ! .. اما انا ، فاننى أعجز عن تبين أو تتبع أى أثر من الآثار التى خالجتنى من جرائه !.. ذلك انه لم يكن لى من الادراك يومئذ ما يمكننى من أن أرى الى أى مدى كانت الظواهر تقف ضدى ، ومن أن أضع نفسى فى موقف الآخرين . **لقد صمدت فى موقفى ، فكان كل ماشعرت به يتمثل فى قسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم ارتكبه .. ولم أحس بالألم الجسدى ـ رغم شدته ـ الا قليلا ، وانما كان كل شعورى ينحصر فى السُخط ، والغضب ، والقنوط ..**
وكذلك كان ابن خالى ـ الذى كانت حاله مشابهة لحالى ، والذى عوقب لخطأ صدر عن غير ارادته وكأنه كان عملا مدبرا متعمدا ـ فقد لاذ بسخط مثل سخطى ، وانساق الى عين الانفعال الذى انسقت اليه . واذ كنا ننام فى سرير واحد ، فقد احتضن كل منا الآخر فى ضمات تشنجية ، حتى شعرنا بأننا نوشك أن نختنق . وعندما سرى عن قلبينا الصغيرين بعض الشىء ـ فى النهاية ـ بدأ القلبان ينفثان غلهما ، فاستوينا جالسين فى سريرنا ، ورحنا نصرخ بأعلى صوتنا ، مرات لا عداد لها : « ايها الجلاد ! .. الجلاد ! .. الجلاد ! »

اننى لأشعر ـ اذ اكتب هذه الكلمات ـ بأن خفقات قلبى تتسارع ، فلسوف تظل ذكرى تلك اللحظات ماثلة أمامى أبدا ، ولو عشت مائة الف سنة ! .. **لقد ظل أول شعور لى بالعنف والظلم محفورا فى نفسى الى درجة ان كل الأفكار المتصلة به تردنى دائما الى الانفعالات الأولى التى خالجتنى ..** وقد اشتد هذا الشعور ، الذى لا قيمة له فى جوهره الا لدى أنا وحدى ، اشتد فى حد ذاته ، واستقل عن كل تأثر أو ميل شخصى ، حتى ان قلبى ليكتوى حنقا كلما سمعت او رأيت اى عمل من أعمال الظلم ـ مهما تكن فريسته او اينما يرتكب

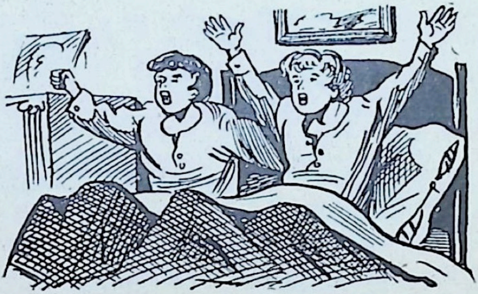

ـ وكأنما ينصب تأثيره على أنا .. **وعندما أقرأ عن فظائع أى جبار طاغية ، أو منكرات اى قس لئيم ، فاننى لا اتردد فى ان أغمد خنجرا فى قلب شقيين كهذين ، وانا مسرور .. ولو قضى على بأن اعدم مائةمرة من اجل ذلك !** .. وكثيرا ماأنهكت نفسى ـ حتى يتفصد العرق منى ـ وأنا أطارد ، أو أرمى بالأحجار ديكا أو بقرة أو كلبا ، أو أى حيوان أكون قد رايته يعذب حيوانا آخر لمجرد شعوره بأنه الأقوى ! .. وقد تكون هذه النزعة طبيعية بالنسبة لى ـ وانى لأعتقد انها كذلك ! ـ ولكن الاثر الذى خلفه الظلم الأول فى نفسى ظل طويلا مرتبطا بها بقوة بالغة ، الى درجة لم يكن من الممكن معها الا يقوى ويشتد !

وبوقوع الحادث الذى رويته ، ولت طمأنينة طفولتى وداعتها ، فكففت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية ، ولا أزال أشعر ـ الى اليوم ـ بأن ذكرى مفاتن طفولتى ، وقفت عند ذلك الحد ! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور فى (بوسى) ، غير أننا كنا هناك كما كان الانسان الأول فيما يصورونه لنا : كنا فى جنة أرضية ، ولكنا لم نعد نستمتع بها ! صحيح ان حالنا ظلت فى ظاهرها على ما كانت

عليه ، ولكنها كانت قد تغيرت فى جوهرها تغيرا تاما . فان التعلق ، والاحترام ، والمودة ، والثقة ، لم تعد تربط التلميذين برائديهما . ومن ثم فانا لم نعد نعتبرهما من « الآلهة » ! لم نعد نعتبرهما آلهين قادرين على استطلاع قلبينا . **ولهذا اصبحنا أقل من ذى قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء ، واكثر خوفا من أن نتعرض للاتهام .. وبدأنا نفقد سذاجتنا ، وطاعتنا ، وشرعنا نلجأ الى الكذب .. وقوضت كل رذائل السن التى كنا نجتازها ، براءتنا ، وألقت على موارد تسليتنا قناعا قبيحا !** بل ان الريف ذاته فقد فى نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فاتنتين تتغلغلان فى القلب ، واصبح يلوح لنا موحشا كئيبا . أصبح يبدو وكأنه استتر وراء قناع حجب جماله عن أعيننا . فكففنا عن فلاحة حوضينا فى الحديقة ، وعن غرس نباتاتنا وزهورنا .. ولم نعد نفلح الأرض فى رفق ونصيح فرحا حين نرى البذرة التى غرسناها قد بدأت تشق وجه الأرض . اصبحنا نكره الحياة ، وأصبح الغير يكرهوننا ، ومن ثم اصطحبنا خالى معه ، فافترقنا عن السيد والآنسة لامبرسييه وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر ، فلم نأسف على الفراق الا قليلا ! .. بل لقد مكثت حوالى ثلاثين عاما بعد مغادرة (بوسى) دون ان استعيد فترة إقامتى بها مصحوبة بأى سرور او ذكريات !

* * *

• **أما الآن** ـ وقد تجاوزت شرخ العمر ، وأخذت أدنو من الشيخوخة ـ فاننى اشعر بهذه الذكريات بالذات تقفز الى بالى ، بينما يتوارى سواها .. انها لتنطبع على صفحة ذاكرتى بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يوما بعد يوم ، **وكأننى ـ اذ اشعر بالحياة وقد بدأت تتسلل منى ـ أحاول ان أمسك بناصيتها ، فأغتبط بأتفه أحداث ذلك العهد ، لا لشىء الا لأنها**

تنتمى الى تلك الفترة من حياتى ! .. واكاد ابصر الخادمة أو الخادم منهمكا فى تنسيق الغرفة ، أو عصفورا يمرق خلال النافذة ، او ذبابة تحط على يدى وانا أتلو ما استذكرت من دروسى .. بل اننى لأتمثل الغرفة التى اعتدنا ان نقيم فيها ، بكل تفصيلاتها .. والى يمينها غرفة مكتب السيد لامبرسييه ، ولوحة نحاسية نقشت عليها رسوم كل البابوات ، و« بارومتر » ، وتقويم (نتيجة حائط) كبير معلق على الجدار ، واشجار الخداش (١) الكثيفة ـ التى كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة ـ تواجه مؤخرة الدار ، ومن ثم فانها كانت تنشر ظلالها على النافذة ، وقد تقتحمها احيانا ! .. **وانى لأدرك ان القارىء غير راغب فى الالمام بكل هذا ، ولكنى مسوق الى ان اقصه عليه ، فلماذا لا تواتينى الجرأة على ان اروى له كذلك كل الحكايات النافهة التى وقعت فى ذلك العهد السعيد ، والتى تهزنى نشوة حين اتذكرها ؟**

اننى لأتوق الى ان اروى خمسا او ستا منها ، بوجه خاص.. ولكن ، لنجعلها صفقة بيننا ! سأنزل عن خمس منها ، بيد اننى راغب فى ان اروى لك السادسة ، على شريطة ان تسمح لى بأن أرويها بكل تفصيل ممكن ، لكى أطيل فى اغتباطى ! .. ولو اننى اقتصرت على ما فيه فكاهة لك ، لاخترت لك قصة سقوط الآنسة لامبرسييه فى المرج ، وانكشاف ظهرها ـ او عجزها على الاصح ـ لسوء حظها ، حتى لقد بان بأكمله لملك (سردينيا) الذى تصادف مروره فى تلك الفترة ! .. ولكن قصة شجرة الجوز المطلة على الشرفة ، اكثر امتاعا لى ، اذ قمت فيها بدور ـ فى حين كنت مجرد متفرج فى قصة السقوط فى المرج ! ـ كما اعترف بأننى لا اجد ما يدعو قط الى الضحك فى حادث اثار ـ رغم طرافته ـ خوفى على سلامة شخص كنت

---

(١) « الخداش » نبات متسلق ذو ثمار حمراء ، يشبه العليق

أحبه . فقد كنت أحب الآنسة لامبرسييه كأم ، بل اكثر من أم !

والآن ، انصتوا أيها المتشوقون الى حكاية شجرة الجوز المطلة على الشرفة .. انصتوا الى المأساة الرهيبة ، وحاولوا ان تتفادوا الارتجاف ان استطعتم ! .. ففى خارج باب فناء البيت ، كانت تقوم الى يسار المدخل شرفة اعتدنا ان نجلس فيها فيما بين الظهيرة والاصيل . ولما كانت فى غير وقاء من الشمس مطلقا ، فقد أمر السيد لامبرسييه باقامة شجرة جوز هناك ، وتمت عملية غرسها فى اكثر مظاهر الاحتفال جلالا ، اذ اختير نزيلا الدار — انا وابن خالى — اشبينين للشجرة ! وبينما كان التراب ينهال فى الثغرة التى اقيمت فيها الشجرة ، اسند كل منا الشجرة باحدى يديه ، ورحنا نردد اناشيد الانتصار والفوز ! .. ولرى الشجرة ، انشىء حول اسفل جذعها ما يشبه الحوض . واذ رحت وابن خالى نرقب ريها كل يوم بشغف ، اشتد بنا الاقتناع — بطبيعة الحال — بأن من المستحسن غرس شجرة اخرى فى الشرفة ذاتها ، فان هذا افضل من ان ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات .

وعقدنا العزم على ان نستأثر بما فى هذا العمل من فضل ، فلا نشرك معنا أحدا .. ولهذا بادرنا فقطعنا غصنا من صفصافة ، وغرسناه فى الشرفة ، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة اقدام من شجرة الجوز الضخمة . ولم ننس ان نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التى حفرت حول الشجرة الأخرى ، ولكن الصعوبة تمثلت فى ابتكار طريقة لملء القناة بالماء ، اذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة ، ولم يكن مباحا لنا ان نهرع لاجتلابه .. ومع ذلك فلم يكن ثمة غنى عن اجتلاب قدر منه لصفصافتنا . وقضينا بضعة ايام نجرب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء ، حتى نجحنا الى درجة دبت عندها الحياة فى الشجرة ، فنبتت عليها اوراق

صغيرة . واقنعنا نموها ـ الذى كنا نحسبه ونقيسه فى كل ساعة ـ بأنها لن تلبث ان تفىء علينا ظلالا ، رغم ان طولها لم يكن قد تجاوز قدما واحدة ! .. **واذ استأثرت شجرتنا بكل اهتمامنا حتى اننا لم نعد قادرين على تلقى او استذكار أى درس ، واصبحنا فى غشية حجبت عن عقولنا كل شىء آخر .. واذ شد رائدانا قبضتيهما علينا ، وهما لا يدريان ما ألم بنا ، رأينا ان اللحظة الحاسمة التى لن نجد فيها ماء لشجرتنا وشيكة الحلول ، فطارت نفسانا شعاعا لمجرد التفكير فى رؤية الشجرة تذوى من العطش** .. وأخيرا ، أوحت لنا الحاجة ـ وهى أم الاختراع ـ بطريقة تجنبنا الأسى ، وتجنب الشجرة الهلاك المؤكد ، وذلك بان نحفر قناة تحت سطح الأرض ، تسرب الى صفصافتنا ـ خفية ـ قسطا من الماء الموجه الى شجرة الجوز ! .. على ان المشروع فشل فى البداية ، رغم الحماس الذى اكتنف تنفيذه . فقد حفر النفق بطريقة بدائية ، فلم يجر الماء فيه مطلقا ، اذ انهار التراب وسد القناة ، وامتلأ المدخل بالطين ، وتلف كل شىء ! ولكن شيئا من هذا لم يثبط من عزمنا ، فان الدأب يقهر الصعاب جميعا ، ومن ثم زدنا المجرى عمقا لنمكن الماء من الجريان ، كما قطعنا قيعان بعض الصناديق الى شرائح صغيرة ضيقة ، بسط بعضها على القاع ـ شريحة اثر شريحة ـ واقيمت الباقية على الجانبين بميل اقام قناة مثلثة الشكل . ثم غرسنا بضع قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل ، فكانت اشبه بحاجز او مصفاة تصد الوحل والاحجار دون ان تمنع انسياب الماء .. ثم غطينا مجراتنا بتراب دسناه فى حذر وعناية حتى سويناه مع سطح الأرض . واذ انتهى كل شىء ، شرعنا ننتظر ـ ونحن فى أشد الانفعال من جراء الأمل والخوف ـ موعد الرى .. وحانت الساعة أخيرا ، بعد انتظار خلناه استغرق قرونا ، فجاء السيد لامبرسييه ليعاون فى العملية كالمعتاد ، بينما

حرصنا نحن على ان نكون خلفه لكى نحجب شجرتنا ، التى كان ـ لحسن الحظ ـ يوليها ظهره !

وما ان سكب اول دلو من الماء ، حتى رأينا بعضه يجرى الى قناتنا ، وعند هذا المنظر فارقنا تعقلنا ، فبدأنا نطلق صيحات ابتهاج حملت السيد لامبرسييه على ان يلتفت ، وكانت هذه هى الطامة ، فقد تولاه اهتمام ضاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التى قامت فيها شجرة الجوز من جودة ، وكيف ابتلعت الماء بشراهة . واذ دهش لرؤيته الماء ينساب موزعا بين حوضين، صاح بدوره ، وانعم النظر ، فتبين الحيلة! **واذ ذاك أمر باحضار معول ، وكسر بضربة واحدة شريحتين أو ثلاثا من خشبنا ، ثم صرخ بصوت جهورى : «قناة ! قناة! »، وراح يكيل الضربات فى كل اتجاه ، دون ما رحمة ، فكأنما كانت كل منها تصيب قلبينا مباشرة ! وان هى الا لحظات حتى كانت شرائحنا الخشبية ، وقناتنا ، ومجراها ، والصفصافة ، وكل شىء ، قد تقوض واجتث من مكانه ، دون ان ينبس القس خلال هذا العمل التدميرى بكلمة ، اللهم الا ذلك التعجب الذى راح يكرره دون توقف : « قناة ! » .. وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شىء : « قناة ! قناة ! »** . ومن الطبيعى ان يخطر

بالبال ان المغامرة انتهت اسوا نهاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين ، ولكن هذا الحدس خاطىء ، فقد انقضى ذكرها بانتهاء الهدم ، ولم ينبس السيد لامبرسييه قط بكلمة لوم ، او ينظر الينا فى استياء ، كما انه لم يشر اليها بشىء مطلقا . بل اننا لم نلبث ان سمعناه بعد قليل يقهقه مع اخته ، فقد كانت قهقهته تسمع عن بعد .. على ان الاكثر مدعاة للدهشة هو اننا ــ بعد ان زايلنا الخوف الاول ــ لم نشعر بأى انزعاج أو ضيق ، بل اننا غرسنا شجرة ثانية فى بقعة أخرى ، وكثيرا ما كنا نذكر نفسينا بالنكبة التى انقضت على محاولتنا الأولى ، بأن رحنا نردد فى لهجة ذات معنى : « قناة ! قناة ! » ..وكانت تواتينى ــ حتى ذلك الوقت ــ نوبات من الزهو ، بين آن وآخر ، اذ أخال نفسى مثل « اريستديس » او « بروتس » أو غيرهما من أبطال التاريخ ، ولكن هذه النوبات لم تلبث ان زايلتنى اذ شعرت بأول نبضات الغرور واضحة ملموسة .. فقد لاح لى ان انشاءنا قناة بأيدينا ، وغرسنا فرعا من شجرة لنتحدى به دوحة ضخمة ، كان عملا يرقى الى ذروة المجد ! .. وهكذا كنت ــ وانا فى العاشرة من عمرى ــ أقدر على تمييز المجد من « قيصر » حين كان فى الثلاثين !

وقد ظلت شجرة الجوز هذه ، والقصة الصغيرة المتعلقة بها ، حيتين فى ذاكرتى ، او انهما عادتا اليها بعد حين ، حتى لقد كان من المشروعات التى وفرت لى سرورا عظيما ــ خلال رحلتى الى جنيف ، فى سنة ١٧٥٤ ــ ان قررت الذهاب الى (بوسى) وزيارة مراتع صباى ، وفى مقدمتها جميعا « شجرة الجوز » التى كان عمرها فى ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن ! .. ولكنى شغلت طيلة فترة وجودى هناك ، ولم يكن لى كثير سلطان على نفسى ، فلم أجد لحظة ارضى فيها هذه الرغبة . وليس ثمة احتمال يذكر فى ان تسنح لى هذه الفرصة مرة اخرى ، ومع ذلك فان الرغبة لم تتلاش بتبدد الأمل فى تحقيقها ، بل

أكاد أوقن من اننى اذا قدر لى ان اعود الى تلك البقاع الحبيبة ، وأن أجد شجرة الجوز العزيزة قائمة على قيد الحياة ، فلن أحجم عن أن أرويها بدموعى !

* * *

• **وبعد** عودتى الى جنيف ، أقمت مع خالى عامين أو ثلاثة، ريثما يقرر اصدقائى ما ينبغى ان يتم بشأنى . ولما كان خالى قد أراد ابنه على أن يكون مهندسا ، فقد حمله على أن يتلقى شيئا عن الرسم ، كما علمه مبادىء «يوكليد» (١) ، فاستذكرت هذه المواد معه ، وتولانى ميل اليها ، والى الرسم بوجه خاص. وفى تلك الاثناء ، كان الجدل يدور حول ما اذا كان يخلق بى ان أصبح صانع ساعات ، أو من رجال القانون ، أو قسا واعظا ! .. وكان ميلى يتجه الى تفضيل الاحتمال الأخير منها ، اذ كان الوعظ يبدو لى امرا بديعا ، بيد ان الدخل الضئيل الذى كان يدره عقار أمى — والذى كان يجب ان يقسم بينى وبين أخى — لم يكن كافيا لأن يمكننى من متابعة دراساتى . ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار ، نظرا لسنى فى تلك الفترة ، ولذلك مكثت مؤقتا مع خالى ، دون أن أفيد كثيرا من وقتى ، ودون ان ادفع مبلغا يذكر لقاء نفقات اقامتى ، كما كان الانصاف يقتضى .. اما خالى ، فمع انه كان محبا للهو مثل ابى ، الا انه كان عاجزا عن ان يكون مثله فى تقيده بالواجب ، كما انه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من أجلنا . وكانت عمتى تعتبر من المنصرفات للتقوى — بحيث كانت تؤثر ان تنشد المزامير على ان تعنى بتعليمنا ! — **ومن ثم فقد اتيحت لنا حرية كادت ان تكون مطلقة ، ولكنا لم نسىء استغلالها قط ، فكنا**

---

(١) كان « يوكليد » عالما رياضيا عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد وضع اصولا — او مبادىء — للعلوم الرياضية فى ١٣ مجلدا، خص الهندسة منها بتسعة مجلدات

دائما قانعين بصحبتنا احدنا للآخر ، اذ لم نكن نفترق قط ، كما اننا لم نتعرض لمغريات تحملنا على ان نتخذ من اندادنا من ابناء الشارع رفاقا ، فلم نتعلم شيئا من العادات المنحلة التى كان التبطل خليقا بأن يقودنا اليها .. بل اننى لأخطىء اذ أقول اننا كنا متبطلين ، فاننا لم ننحط قط الى هذا الدرك فى حياتنا ، وكان من أعظم ما حبانا به الحظ ان كل الطرق التى كنا ننتهجها لتسلية نفسينا ، والتى شغفنا بها على التوالى ، كانت تشغلنا معا فى البيت ، دون ان ننساق لغواية الخروج الى عرض الطريق .. فكنا نصنع اقفاصا ، وصافرات « الناى » ، وخذاريف (النحلات التى يلعب بها الأطفال) ، وطبولا ، وبيوتا ، وقاذفات للحصى (أو مقاليع) ، وأقواسا للرماية . ولقد اتلفنا ادوات جدنا فى محاولاتنا ان نصنع ساعات ، كما كان يصنع هو ! .. وكان لنا مزاج خاص فى الاسراف فى نماذج الورق ، وفى الرسم ، واستخدام الألوان المائية ، وتوزيع الأضواء ، وافساد الالوان . ولقد وفد على جنيف صاحب مسرح ايطالى يدعى « جامبا ـ كورتا » ، فذهبنا لمشاهدة عرضه مرة ، لم نرغب بعدها فى الذهاب مرة أخرى ! .. ولكنه قدم فيما قدم عرضا للدمى (على غرار خيال الظل) ، فشرعنا نصنع دمى .. ولما كانت عرائسه تمثل فكاهات ، فقد عكفنا على اعداد مسرحيات فكهة من وضعنا . ولما كانت تعوزنا الأداة التى تصدر ذلك الصوت المصوصو المصرصع ، فقد عمدنا الى تقليده بأصوات نصدرها من حلقينا ، لكى نخرج مسرحياتنا الفكهة البديعة ، التى تذرع اقاربنا المساكين المتفضلون بالصبر كى يجلسوا وينصتوا اليها ! ولكن خالى برنار قرأ على الاسرة ذات يوم موعظة بديعة من تأليفه ، فاذا بنا نهجر المسرحيات الفكهة لنؤلف المواعظ !

وانى لأعترف بأن هذه التفصيلات ليست مشوقة جدا ، ولكنها تبين كيف أن تربيتنا الأولى كانت موجهة خير توجيه ،

كما يبدو من اننا ندر ان انسقنا الى اساءة استغلال الفرص التى كانت متاحة لنا ، رغم اننا كنا سيدى نفسينا وصاحبى السيطرة على وقتنا ، فى تلك السن المبكرة ! .. ذلك لاننا لم نكن بحاجة تذكر الى ان ننشد رفاقا وزملاء ، حتى اننا كنا نهمل الفرص التى تقود الى ذلك . فكنا اذا خرجنا للتريض ، نظرنا ، ونحن نمر باندادنا فى السن ، الى وسائل لهوهم ، دون ماادنى رغبة ، بل دون مجرد التفكير فى ان نشاركهم اياها . كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلبينا تمام الملء ، حتى لقد كان يكفينا ان نجتمع معا ، كى نجعل من ابسط أسباب التسلية ملهاة سارة ! .. وما لبثنا ان استرعينا الانتباه بتلازمنا هذا ، وعدم افتراقنا ، سيما وان ابن خالى كان فارع الطول ، بينما كنت أنا جد قصير ، فكنا نؤلف ثنائيا غريب التكوين ! .. كان قوام ابن خالى الطويل النحيل ، ووجهه الصغير الشبيه بالتفاحة المسلوقة ، واخلاقه الرقيقة ، ومشيته الهينة المتخطرة ، تستثير سخف الاطفال ، فكان يسمى فى ساحة الحى « بارنا بريدانا ! » ، **وكنا حين نغادر البيت لا نسمع سوى صيحة « بارنا بريدانا ! » تحف بنا . وقد احتمل هو ذلك بهدوء فاق هدوئى ، اذ كنت أفقد جلدى ، وأبدى الرغبة فى العراك ، وهذا عين ماكان ينشده الأوغاد الصغار .** وقدر لى ان اتشاجر مرة ، فمنيت بالهزيمة . وحاول ابن خالى المسكين ان يساعدنى ما استطاع ، ولكنه كان ضعيفا ، فصرعته لكمة واحدة ، واذ ذاك اشتد هياجى . على اننى ــ وان تلقيت لكمات وافرة ــ لم اكن الهدف الحقيقى للعدوان ، وانما كان « بارنا بريدانا » هو الهدف .. وما لبث غيظى المستعر ان زاد من استفحال الموقف ، حتى اننا لم نعد نجرؤ على الخروج من الدار ــ فيما بعد ــ الا فى أويقات المدرسة ، خشية ان يتعقبنا الاطفال ليسخروا منا !

* * *

• **الا ترون** اذن اننى أقمت من نفسى ماحيـــا للمظالم ! .. ولكى اصبح « بالادين » (١) حقا ، كنت فى حاجة الى سيدة ، ولــكننى اوتيت اثنتين ! فلقد اعتــدت ان اذهب ــ بين وقت وآخر ــ لزيارة أبى فى (نيون) ، وهى بلدة صغـيرة فى اقليم (فود) ، استقر به المقام فيها . وقد حظى بحب القوم هناك ، وقدر لابنه ان يشـــعر بآثار ذلك ، ففى الفترة القصيرة التى كنت امكثها معـــه ، كان الاصدقاء يتبارون فى الاحتفـــاء بى . **وقد آثرتنى سيدة منهم ــ كانت تدعى السيدة « دى فيلسون » ــ بألف قبلة ، ثم توجت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتنى ابنتها عشيقا لها ! .. ومن الميسور ان تفهموا معنى « العشيق » هنا اذا تذكرتم اننى كنت فى الحـادية عشرة من عمرى ، فى حين ان الفتاة كانت فى الثانية والعشرين ! .. ولكن هؤلاء الشابات الخبيثات ــ جميعا ! ــ لم يكن يتورعن قط عن ان يلعبن أمام الملأ بدمى صغيرة ــ مثلى ــ لكى يسترن وراءها عشاقا كبارا ، او لكى يغوين بها هؤلاء الكبار !** .. أما أنا ، فلم أر شيئـــا من عدم التكافؤ بيننا ، فحملت المسألة على محمل الجد ، وانغمست بكل قلبى ــ أو بالحرى بكل رأسى ــ اذ اننى لم اقبل على الحب الا بذلك الجزء من نفسى ، فتماديت الى درجة الجنون ، وكان طربى وانفعالى وخبالى تؤدى الى مناظر كافية لأن تجعل اى فرد لا يتمالك نفسه من الضحك حتى ينشق جنباه !

ولقد ألفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف ، فلا يكاد يكون بينهما أى تشـــابه ، وان كان كل منهما حارا مشبوبا ، كما انهما يختلفان ــ كلاهمـــا ــ عن الصداقة العاطفية .. بل ان عمرى كله كان موزعا بين هذين النوعين من الحب ، رغم اختلافهما الجوهرى ، فاعتــدت ان

---

(١) رمز للبطل الذى يدافع عن الحق ويدفع الجور عن المظلومين

اشعر بهما معا ، وفى آن واحد .. مثال ذلك اننى فى الفترة التى اتحدث عنها ، وفى الوقت الذى كنت فيه مغرما بالآنسة « دى فيلسون » جهارا وفى انانية طاغية ـ حتى اننى لم اكن أطيق ان يقترب منها أى رجل ! ـ فى **تلك الاثناء بالذات ، حظيت عدة مرات بلقاءات قصيرة ولكنها حافلة ، مع فتاة معينة ـ تدعى الآنسة « جوتون » ـ فكانت تعمد خلال تلك اللقاءات الى القيام بدور المعلمة ! وكان هذا غاية الأمر . ولكن « غاية الأمر » هذه ـ وكانت هى « الغاية » فعلا ، بالنسبة لى ـ بدت فى نظرى منتهى السعادة** .. واذ شعرت بقيمة الغموض ، وان لم اكن ادرى كيف استغله اللهم الا فى نطاق حيل الطفولة ، رحت أكيل بنفس الكيل للآنسة «دى فيلسون» ـ التى لم ترتب فى الأمر ـ جزاء دأبها على استغلالى كستار لاخفاء عشاق آخرين ! بيد ان سرى لم يلبث ان تكشف ـ ويا لعظم أسفى ! ـ أو انه لم يحظ من معلمتى الصغيرة بمثل ما كنت احيطه به من كتمان ، ومن ثم فسرعان ماافترقنا .. وحدث بينما كنت اجتاز (كوتانس) ، فى طريقى الى (جنيف) ـ بعد ذلك بوقت قصير ـ ان سمعت بعض فتيات صغيرات يهتفن متهامسات : « جوتون تيك ـ تاك روسو » !

ولقد كانت هذه الآنسة « جوتون » الصغيرة فتاة فذة .. فمع انها لم تكن جميلة ، الآ انها اوتيت وجها لايسهل نسيانه، ولا ازال اتمثله فى مخيلتى فى كثير من الاحيان ، فى حنان لايليق بشيخ ارعن ! .. وما كان شكلها ، ولا اخلاقها ، ولا عيناها ـ قبل كل شىء ـ بالتى تتناسب مع سنها . وكان لها مظهر أشم ، متسلط ، يتفق كل الاتفاق مع دورها ، كمعلمة ، بل ان مظهرها هذا هو الذى اوحى الينا ـ فى الواقع ـ بأول تفكير فى هذا الدور .. ولكن أغرب ما كان فيها ، هو امتزاج بين الرعونة والتحفظ ، لم يكن من الهين ادراك مأتاه .. كانت تتصرف معى بكل حريتها ، ولكنها **ابدا** لم تسمح لى بأن اعاملها

بأى تحرر .. كانت تعاملنى كما تعامل طفلا فحسب ، مما يوحى الى بأن اعتقد أحد امرين : اما انها لم تعد ـ اذ ذاك ـ طفلة ، واما انها كانت ـ على العكس ـ من الطفولة بحيث انها لم تر فى الخطر الذى كانت تعرض له نفسها سوى لون من التسلية واللهو !

وكنت أهب نفسى تماما ـ كما ينبغى ان يقال ـ لكل من هاتين الفتاتين ، فاذا ما كنت مع احداهما ، لم أفكر مطلقا فى الاخرى . وفيما عدا ذلك ، لم يكن ثمة اى شبه ـ مهما يكن ضئيلا ـ بين المشاعر التى كانت كل منهما تبعثها فى نفسى ! كان بوسعى ان انفق كل حياتى مع الآنسة « دى فيلسون » دون ان يخطر لى ان افارقها ، ولكن اغتباطى بالقرب منها كان هادئا وخلوا من الانفعال . وكنت أحبها أكثر مما أحببت أية فتاة من فتيات المجتمع الراقى ، فقد كانت الفكاهات المنبعثة عن ذكاء لماح ، والمجون المستظرف ، وما كانت تبديه من مظاهر الغيرة العابرة ، تستهوينى وتستأثر بشغفى . **وكنت أشعر بزهو وغرور لما كانت تضفيه على من مظاهر الايثار أمام المزاحمين الكبار الذين كانت تعاملهم فى ازدراء ! .. وكنت أتعذب ، ولكننى أحببت العذاب ! .. وكان التصفيق ، والتشجيع ، والضحك ، تبعث الثقة والالهام فى نفسى .. وكانت تنتابنى نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفثىء فى فكاهات جريئة .. كان الحب يحيلنى شخصا آخر ، فى المجتمعات .. أما فى الخلوات ، فكنت محرجا ، فاترا ، بل لعلنى كنت ضيق الصدر** . ومع ذلك فاننى كنت اشعر بعاطفة صادقة نحوها ، وكنت أتألم اذا هى مرضت ، بل اننى كنت اتمنى لو أهبها صحتى كى تستعيد عافيتها ـ رغم اننى كنت اعرف ، بالتجربة ، معنى المرض ومعنى العافية ! ـ وكنت أفكر فيها وأفتقدها حين أغيب عنها .. أما حين اكون بالقرب منها ، فان عناقها كان يهز قلبى ، دون ان يهز حواسى ! كنت متعلقا بها دون ما طمع

يشوب حبى ، فكان خيالى لا يطلب اكثر مما كانت هى تنعم على به ، ومع ذلك فاننى لم أكن أطيق أن أراها تفعل مثل ذلك للغير . كنت أحبها حب الأخ لأخته ، ولكننى كنت اغار عليها غيرة العاشق على معشوقته ! ..و كنت خليقا بأن اغار على الآنسة « جوتون » غيرة التركى ، أو المجنون ، أو النمر ، لو اننى توهمت مرة انها قادرة على ان تبدى لغيرى ماكانت تبديه لى من معاملة .. ولكنها لم تكن قادرة ، بل ان هذه المعاملة كانت صنيعا اعتدت ان اسألها اياه وانا جاث امامها !

كنت أسعى الى الآنسة ((دى فيلسون)) بفرح طاغ ، ولكن دون ما انفعال ، فى حين اننى كنت لااكاد ارى الآنسة ((جوتون)) حتى تنبهر حواسى ، فلا أعود ارى سواها !..كنت آلف الأولى دون ما كلفة ، بينما كنت فى حضرة الثانية على النقيض خجولا بقدر ما كنت منفعلا ، حتى فى أقصى درجات ألفتنا . وأعتقد اننى كنت خليقا بأن أموت لو اننى مكثت معها طويلا ، فان خفقات قلبى كانت كفيلة بأن تخنق انفاسى ! .. وكنت اخشى ان تستاء منى الاثنتان على السواء ، ولكنى كنت اغمر الأولى بمزيد من حفاوتى ، وابدى للثانية مزيدا من خضوعى ، فما

كان لأى شىء فى الدنيا ان يحملنى على ان أغضب الآنسة « دى فيلسون » ، اما اذا امرتنى الآنسة « جوتون » بأن ألقى بنفسى فى اللهب ، فأعتقد اننى كنت قمينا بأن اطيعها فى الحال ! .. ولم يستمر حبى ــ أو بالحرى لقاءاتى ــ للأخيرة سوى وقت قصير . قصير بالنسبة لسعادة كل منا ! ومع ان علاقاتى بالآنسة « دى فيلسون » لم تكن فى خطورة علاقاتى بالأخرى ، الا انها لم تخل من الخطر ، بعد ان استمرت امدا أطول . وجدير بجميع العلاقات التى على هذه الشاكلة ان تنتهى دائما بطريقة شاعرية ، وان تصبح مادة لزفرات الأسى . ومع ان صلتى بالآنسة دى فيلسون كانت أقل شدة واضطراما من علاقتى بالآنسة جوتون ، الا انها كانت اكثر توثقا ومتانة ، فلم نفترق قط دون دموع ، وكان من الخليق بالعجب حقا ، ذلك الفراغ المحير الذى كنت أشعر بأننى أتردى فيه بمجرد ان كنت أفارقها ! .. فما كنت أتحدث أو أفكر فى سواها ، وكان أساى صادقا ومحتدما ، ولكنى اعتقد ان هذا الأسى المنطوى على البطولة لم يكن ــ فى قراره ــ من اجل الفتاة نفسها ، وانما كان للمتع التى اعتدت ان أنعم بها فى قرب الفتاة ، دور فى خلقه ، وان لم أفطن اذ ذاك ! .. ولقد اعتدنا ــ لتخفيف لوعات البعاد ــ ان نتراسل بخطابات كنا نضمنها من الشجون ما يذيب قلب الصخر!

وظفرت فى النهاية ، اذ ان الفتاة لم تستطع ان تمضى فى التجلد ، فجاءت الى (جنيف) لترانى . وفى هذه المرة ، فقدت حجاى تماما ، فكنت منتشيا ، مجنونا ، اثناء اليومين اللذين مكثتهما . فلما رحلت ، رغبت فى أن ألقى بنفسى فى الماء وراءها ، وتردد صراخى فى الهواء ! .. وبعد ثمانية ايام ، ارسلت لى بعض الحلوى وقفازين . وكنت خليقا بأن اعتبر هذا مجاملة عظيمة لولا اننى علمت ــ فى الوقت ذاته ــ انها تزوجت ، وان الزيارة التى راق لها ان تشرفنى بها انما دبرت فى الواقع من اجل شراء ثوب الزفاف ! .. ولن أحاول ان أصف حنقى ، ففى

الوسع تصوره ! . . وأقسمت ـ فى غضبى السامى ـ ان لا أرى « الغادرة » مرة اخرى ، اذ لم اكن لأتصور عقابا اكثر قسوة عليها من هذا !. . ولكنها لم تمت من قسوتى ، اذ حدث ـ بعد عشرين عاما ـ بينما كنت اتنزه مع أبى فى النهر ، اثناء احدى زياراتى له ، ان سألته عن سيدتين كانتا فى قارب على غير مبعدة منا ، فهتف أبى مبتسما : « عجبا ! ألا ينبئك قلبك ؟ . . انها حبيبتك القديمة ، التى كانت الآنسة دى فيلسون ، وأصبحت السيدة كريستان ! » . . واجفلت اذ سمعت الاسم الذى كاد يصبح منسيا ، وسألت النوتيين ان يحولا اتجاه قاربنا ، فمع ان الفرصة كانت سانحة ـ فى تلك اللحظة ـ لكى أثأر لنفسى ، الا اننى لم أر اية قيمة لأن أعاتب امرأة فى الاربعين ، وان اجدد خصاما مضى عليه عشرون عاما !

٣ ـ من سنة ١٧٢٣ الى سنة ١٧٢٨

• **وهكذا** بددت أغلى فترات صباى فى الحماقات ، قبل ان يستقر الرأى على مهنتى المقبلة . وبعد جدل طويل بشأن ميولى الطبيعية ، انعقد العزم على مهنة لم أكن اكن لها سوى اقل ميل . فقد عهد بى الى السيد « ماسيرون » ـ كاتب البلدة ـ لأتعلم على يديه مهنة المحاماة النافعة ! . . وكان مجرد الاسم الدارج لهذه المهنة ـ « مغتصب الأجر » ـ بغيضا لدى غاية البغض ، ولم يستهونى الأمل فى كسب عدد من « الكراونات » (١) من مهنة « وضيعة » كهذه ! . . بل ان العمل ذاته بدا لى مملا لا يطاق ، فان المطالبة المستمرة ، والشعور بالعبودية أتما كراهيتى ، فما ولجت المكتب مرة دون ان اشعر بنفور اخذ يزداد حدة يوما بعد يوم ! **كذلك كان السيد ماسيرون من ناحيته ضيقا بى ، فكان يعاملنى بازدراء ، ولا يفتأ يرمينى بالغباء**

---

(١) « الكراون » عملة تعادل ثلاثة فرنكات

والبلادة ، ويردد على اذنى كل يوم ان خالى انبــأه بأننى على نسط من المعرفة ، فى حين اننى كنت ـ فى الواقع ـ لا أعرف شيئا !.. وانه بشره بأننى فتى ذكى ، فى حين انه ابتلاه بجحش!.. وفصلت أخيرا من المكتب ، موصوما بأننى غــير كفء مطلقا ، وصرح معاونو السيد ماسيرون بأننى لم اكن أصلح لشىء سوى نقل الملفات !

واذ انتهى الأمر فى تقرير مهنتى على هذه الصورة ، ارسلت لأتعلم حرفة .. لا لدى « ساعاتى » ، وانما لدى أحد الناقشين على المعادن (١) . وكان الصفار الذى عاملنى به السيد ماسيرون قد اذل نفسى كثيرا ، فأطعت بدون تذمر . وكان معلمى الجديد ـ السيد ديكومين ـ شابا فظا ، قاسيا ، افلح فى أمد وجيز فى اطفاء كل ما كان لى فى طفولتى من ذكاء ، وفى تخدير طبيعتى الودود النشيطة ، وفى الهبوط بى الى مرتبة « صبى الصانع » فعلا ، سواء فى العقل أو فى المركز ! .. وقدر لما كنت قد حصلته من اللاتينية والتاريخ ، ولما عرفته عن الأقدمين وآثارهم ، ان ينسى امدا طويلا .. بل اننى لم أعد أذكر ان قد كان فى الدنيا اى من الرومان ! ولم يعد أبى يرى فى ـ حين ذهبت لزيارته ـ معبوده القديم .. كما اننى لم أعد ، فى نظر السيدات ، « جان جاك » الكيس المقرب الى قلوبهن . وايقنت ، أنا نفسى ، من ان الأخوين لامبرسييه ما كانا ليعرفان فى شخصى تلميذهما القديم ، حتى اننى خجلت من أن ازورهما ، فلم أرهما منذ ذلك الحين . وحلت أرذل الميول واحط مفاسد السوقة محل اسباب التسلية الساذجة ، بل انها محت كل ذكرى لها ! ولا بد اننى كنت قد اوتيت استعدادا عظيما للانحدار ـ رغم اننى حظيت بنشــأة اعظم ما تكون استقــامة ـ ذلك لأن الانقلاب أصــابنى بسرعة عظيمة ، دون أتفه عسر ، فما قدر قط « لقيصر » مبكر النضوج

---

(١) حفار يصنع الأختام و « الميداليات » بالحفر على المعادن

ان اصبح « لاريدون » بمثل هذه السرعة ! (١)

ولم تكن الحرفة ـ فى حد ذاتها ـ هى التى لم تصادف هوى من نفسى ، اذ كان لدى ميل أكيد للرسم ، وقد لذ لى العمل بآلة الحفر ، ولما كان ثمة طلب محدود على الحفار الماهر للاستعانة به فى صناعة الساعات ، **فقد ساورنى الأمل فى ان أبلغ الكمال فى هذه الحرفة . ولعلنى كنت بالغا هذه الدرجة لولا ان فظاظة معلمى الوحشية ، وافراطه فى فرض القيود على ، حملانى على ان أكره عملى ! وكنت استرق بعض ساعات العمل لأتوفر على بعض أعمال مشابهة ـ ولكنها كانت تفتننى بما كنت أحسه فى ممارستها من حرية ـ** فكنت احفر الأوسمة التى ترمز الى طبقة من الاشراف ابتكرتها لنفسى ولزملائى . وفاجأنى معلمى مرة وانا فى هذا العمل المحظور ، فضربنى ضربا مبرحا ، معلنا اننى كنت اتدرب لأغدو مزيفا للنقود ، اذ ان الاوسمة التى صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية . . وأقسم اننى لم أوت ـ اذ ذاك ـ اية فكرة عن النقود الزائفة ، بل اننى لم اوت الا اتفه فكرة عن النقود الطيبة ! . . وكان المامى بعملات الرومان ـ التى قرات عنها فى الكتب ـ يفوق معرفتى بنقودنا المستعملة !

وأخيرا ، أدت ربقة معلمى الى ان صار العمل ـ الذى كنت مهيأ لأن اشغف به ـ شيئا لا يطاق ، وأفعمتنى برذائل كنت خليقا بان اكرهها لولا جبروته ، مثل الكذب ، والتكاسل ، والسرقة ! . . ولقد علمتنى ذكرى التبدل الذى اصابنى فى هذه الفترة من حياتى ـ اكثر من اى شىء آخر ـ الفرق بين تبعية الابن للأب ، وبين الخضوع الذليل . ومع ما فطرت عليه من خجل واستحياء ، لم يكن ثمة عيب يجافى خصالى الطبيعية قدر

---

(١) استعير هذا الاسم من « لافونتين » الذى اطلقه على الكلاب المنحطة ، فى اسطورة بعنوان : « التربية » ، اذ قال : « اواه ! كم من قياصرة اصبحوا لاريدونات ! »

بذاءة اللسان . على اننى كنت استمتع بحرية كريمة لم تلبث ان تعرضت للقمع تدريجيا ـ بعد ابتعادى عن أبى ـ حتى تلاشت تماما . وكنت جريئا مع أبى ، غير مكبوت مع السيد لامبرسييه ، معتدلا مع خالى ، فصرت جبانا مع معلمى !ومنذ تلك اللحظة أصبحت طفلا حائرا ضالا . ولما كنت قد ألفت ان اكون على قدم المساواة التامة فى اتصالاتى بمن يكبروننى ، ولم أعرف ملهاة بعيدة عن متناولى ، ولا رأيت صفحة طعام لا يحق لى أن أنال منها نصيبا ، ولا رغبة لا أملك ان اعبر عنها جهارا .. **لما كنت قد ألفت كل هذا ، واعتدت ان يكون كل ما فى قلبى على طرف لسانى ، فان من الميسور تقدير ما كنت مسوقا الى أن أتحول اليه فى بيت لم أكن أجسر فيه على ان افتح فمى ، وكنت مضطرا فيه الى أن أغادر المائدة قبل أن أفرغ من نصف الوجبة ، وأن أبرح الغرفة بمجرد أن أفرغ من شأنى بها .. فى بيت كنت فيه مغلولا الى عملى باستمرار ، ولم أكن ارى فيه سوى أسباب المتعة لسواى والحرمان لنفسى ..** حيث كانت رؤيتى الحرية التى يستمتع بها معلمى وزملائى تضاعف من وطأة الخضوع على نفسى ، وحيث لم أكن أجرؤ على ان افتح فمى اذا ما ثار الجدل حول امور كنت على خير دراية بها ! .. وقصارى القول ، حيث كان كل ما يقع عليه بصرى يغدو هدفا لشوقى ، لمجرد اننى كنت محروما من كل شىء !

منذ ذلك الحين فارقتنى وداعتى ولطفى وخفة روحى ، وتلك البشاشة التى كانت ـ فيما مضى ـ تقينى العقاب اذا ماارتكبت ذنبا . كل هذه تبددت . ولا اتمالك ان اضحك كلما تذكرت كيف اننى ـ ذات مساء ـ ارسلت الى الفراش ، فى بيت ابى ، دون عشاء ، لذنب أتيته .. وفيما كنت أجتاز المطبخ وفى يدى كسرة خبز تدعو الى الأسى ، رأيت قطعة لحم تقلب على السفود ـ « الشواية » ـ فاخذت اتنسم عبيرها ! وكان كل أهل البيت

وقوفا حول النار ، فاضطررت الى ان القى على كل منهم تحية المساء ، اثنـاء مروري ، حتى اذا فرغت من تحيتهم ، غمزت بعيني لقطعة اللحم التى بدت بديعة المنظر ، والتى كانت زكية الرائحة ، ولم اتمالك ان انحنيت لها ــ كما انحنيت للآخرين ــ وقلت بلهجة حزينة : «عمى مساء ياقطعة الشواء !» . واطربتهم هذه الملحة الساذجة الى درجة جعلتهم يستبقوننى للعشاء . ولعلها كانت كفيـلة بأن تتخذ نفس الموقع من نفس معـلمى ، ولكنى واثق من انها لم تخطر ببالى قـط ، ومن اننى ما كنت لأجد الشجاعة على ان اقولها فى حضوره !

وبهـذا النهج تعلمت كيف أكتم ما اشتهى ، وكيف أنافق ، واكذب ، و ــ أخيرا ــ أسرق ! .. وهو أمر لم يخطر ــ حتى ذلك الوقت ــ ببالى مطلقا ، ولم استطع منـذ ذلك الحين ان ابرىء نفسى منه تماما . ذلك لأن الاشتهاء المكبوت والضعف يقودان دائما الى هـذا الاتجاه ، الأمر الذى يفسر السر فى ان جميع الخدم نصابون ، وفى أن جميع الصبيـان لدى اصحاب الحرف مسوقون الى ان يكونوا كذلك .. ولكن هؤلاء يفقدون ــ بتقدمهم فى مدارج العمر ــ هذه الرذيلة المشينة ، اذا اتيحت لهم المسـاواة فى جو وادع مأمون ، يألفون فيـه ان يكون كل ما يرونه فى متناولهم . ولما لم تتح لى هذه الميزات ، فاننى لم املك ان اجنى نفس الفوائد ! .. **واكاد أقول ان الذى يدفـع الطفل الى أن يخطو أولى خطواته نحو الشر ، هو دائما المبادىء الطيبة التى يساء توجيهها .** فلقد مكثت مع معلمى عاما دون ان أفكر فى الاقدام على أخذ اى شىء ــ حتى من المـأكولات ــ برغم ما لاقيت من حرمان واغراء مستمرين . وكانت أولى سرقاتى من اجل شخص سواى ، ولكنها فتحت الباب لسرقات اخرى ، لم يكن الباعث اليها أمرا محمودا ! .. فلقـد كان لدى معلمى عامل باليومية ــ يدعى السيد «فيرا» ــ يقيم فى دار مجاورة ، وله حديقة على مسـافة منها تنتج نوعا راقيا من (الاسفاناخ) .

وخطر للسيد فيرا ـ الذى لم يكن يحصل على حاجته من المال ـ ان يسرق بعض الاسفاناخ الصغيرة التى كانت امه تستنبتها ، فيبيعها لتدر عليه ما يكفى لامداده بفطور طيب ليومين او ثلاثة . ولما لم يكن راغبا فى أن يقدم بنفسه على المغامرة ، كما انه لم يكن خفيف الحركة ، فقد اختارنى لهذه المهمة . وبعد محايلات اولية وتملقات ـ زاد من سهولة نجاحها فى التأثير على ، اننى لم اكن ادرك هدفها ـ عرض على الأمر كفكرة خطرت له عفو اللحظة . فعارضتها بشدة ، ولكنه ألح . وليس بوسعى قط أن اقاوم التملق ، ومن ثم فقد انصعت له ، وأخذت اذهب فى كل صباح فاجمع أبدع نبتات الاسفاناخ واحملها الى سوق (مولار) ، حيث ادركت امرأة طيبة اننى كنت أسرقها لتوى ، فكانت ترمينى بهذا الاتهام لتبخسنى الثمن . وكنت فى ذعرى اقبل اى ثمن تقدمه ، ثم احمله الى فيرا ، فسرعان ما يتحول المبلغ الى فطور كنت اتكفل باحضاره ، وكان يتقاسمه مع زميل آخر ، بينما أقنع انا ببضع لقيمات .. ولم اتذوق قط النبيذ الذى كانا يتناولانه مع هذا الفطور !

واستمرت هذه الخطة عدة ايام ، دون ان يخطر لى قط ان اسرق ـ بدورى ، من الباطن ـ السارق الاصلى ، وأن أفرض « عوائد » على ما كانت تدره اسفاناخ السيد فيرا ! بل كنت أؤدى دورى فى المهمة بمنتهى الاخلاص ، وليس لى من حافز سوى رغبتى فى ارضاء ذاك الذى كان يحرضنى . ومع ذلك ، فكم من صفعات وشتائم وقسوة كنت خليقا بأن اتلقاها ـ لو ان امرى انفضح ـ بينما كان من المؤكد ان يبادر الوغد الى انتحال اكذوبة تقابل بالتصديق ـ ومن ثم يتضاعف عقابى اذ يعتبر اتهامى اياه ـ وهو العامل وأنا الصبى ـ وقاحة ! ..
وهكذا نرى انه ـ فى كافة ظروف الحياة ـ كثيرا مايحدث ان المذنب القوى ينجى نفسه على حساب البرىء الضعيف ! ..
وبهذه الطريقة تعلمت ان السرقة لم تكن من الفظاعة بالقدر

الذى كنت اتصورها عليــه ، وانه ليس من شىء اشتهيه يعز على ، ما دام فى متناول يدى . ولم أكن سىء التغذيةعلى طول الخط ، ولكن العفة أصبحت امرا متعذرا على وانا ارى معلمى ينظر اليها كشىء منكر ! .. **ويبدو لى ان اعتياد اقصاء الصغار عن المائدة ، فى الوقت الذى تحمل اليها فيــه اشهى الأطعمة ، هو أروع طريقة تنتهج لجعلهم نهمين ولصوصا ! .. وسرعان ما أصبحت نهما ولصا ، واستطعت أن أمضى موفقا ــ بوجــه عام ــ فلم يفتضح أمرى الا فى مرات نادرة كنت أفاجأ فيها !**

اننى لأرتجف ــ وأضحك فى الوقت ذاته ــ اذ اتذكر ان سرقة بعض التفاح كادت تكبدنى غاليا ! فقد كانت تلك التفاحات فى قرار حجرة لاختزان المؤن ، تضاء بالنور المنســاب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكةحديدية . وفى ذات يوم ، وقد خلت الدار الا منى ، صعدت على المعجن ــ حوض العجين ــ لألقى نظرة على الثمار الغالية فى حديقة « هيسبريد » (١) . ولما كانت بعيدة عن متناولى ، فقد أحضرت سيخا لأحاول ان اتبين ما اذا كان بوسعى ان امس التفاحات ، ولكنه كان جد قصير . ولكى ازيده طولا ، ربطت اليه سيخا صغيرا ، كان يستخدم فى شى الحيوانات الصغيرة ، اذ كان معلمى مغرما بالصيد . ودفعت السيخين عدة مرات ، دون ان اوفق . وأخيرا ، شعرت لعظم اغتباطى ، اننى أصبت تفاحــة ، فتأهبت لأن استحوذ عليها ، ولكن .. منذا الذى يستطيع ان يصف اساى ، حين وجدتها اكبر من ان تمر خــلال قضبان الكوة ! وكم من حيــل بذلتها لأنفذها خلال القضبان ! .. وكان لابد لى من العثور على مايبقى السيخ فى مكانه ، والحصول على سكين ذات طول كاف لشطر التفاحة ، وقطعة من الخشب استعين بهــا على ابقاء التفاحة عاليا . وتمكنت أخيرا من ان اشطرها ، يحــدونى الأمل فى ان

---

(١) هيسبريد : اسم لواحدة من عذارى ورد ذكرهن فى اساطير الاغريق على انهن كن يحرسن شجرة تثمر تفاحات ذهبية

استطيع ان اجتذب النصفين ، واحدا بعد الآخر ، ولكنهما ما ان انفصلا حتى هويا الى ارض المخزن ! — **ألا فلتشاركنى أساي ، أيها القارىء الشفوق !** — ومع ذلك فاننى لم افقد جلدى مطلقا ، ولكننى كنت قد ضيعت وقتا ليس بالقصير ، فخشيت ان افاجأ ، وارجأت القيام بمحاولة أخرى — تكون موفقة — الى اليوم التالى ، وعدت الى عملى فى سكينة ، وكأننى لم آت امرا ، دون ان افكر فى الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان فى المخزن !

وفى اليوم التالى ، انتهزت فرصة سانحة ، وقمت بمحاولة جديدة . فصعدت على مقعدى ،وربطت السيخين وهيأتهما ، وهممت بأن ادفعهما ، **ولكن « الفول » لم يكن نائما ، لسوء الحظ . فقد فتح باب المخزن بغتة ، وخرج منه معلمى ، فعقد ذراعيه ، وتطلع الى ، وقال : « تشجع ! »**

ان القلم يسقط من يدى ! .. على ان حساسيتى ازاء العقاب لم تلبث ان ضعفت ، من جراء سوء المعاملة المستمر ، فكنت انظر الى السرقة على انها نوع من التعويض يخول لى الاستمرار فيها ! وبدلا من ان استعرض ما فات وأقدر ما كنت ألقى من عقاب ، رحت اتطلع الى الأمام وأفكر فى الانتقام ! ... **ورحت ارى اننى اذا كنت أضرب بزعم اننى لص ، فان هذا الضرب يخولنى ان اتصرف كلص . وتبينت ان السرقة والضرب امران يسيران جنبا الى جنب ، فجعلت منهما جانبين فى صفقة عادلة .. فاذا قمت بدورى ، كان على ان ادع معلمى يؤدى دوره ! وبهذا التفكير ، شرعت امارس السرقة بنفس اكثر طمأنينة من ذى قبل . وكنت أقول لنفسى : « ما هى النتيجة ؟ .. سأضرب ؟ .. لا بأس ، لقد تعودت الضرب ! »**

اننى مشغوف بالأكل ، ولكنى لست شرها .. وانا مغرم بارضاء نزواتى البدنية ، ولكنى لست نهما ، فان لى ميولا كثيرة أخرى تحول دون ذلك . وما جشمت نفسى يوما اية متاعب

بشأن الطعام ، اللهم الا حين يكون قلبى خاليا مما يشغله ،وهذه حال كانت من القلة فى حياتى بحيث اننى نادرا ماوجدت وقتا للتفكير فى الأطايب اللذيذة . **ولهذا السبب لم اقصر اتجاهاتى فى اللصوصية على المواد الغذائيــة ـ لأمد طويل ـ بل سرعان ما بسطتها الى كل شىء كان يغرينى ! واذا كنت لم أصبح لصا محترفا ، فانما ذلك لأننى لم اجد قط فى النقود اغراء شديدا.** وكانت فى الطريق الى خارج « الورشة » العامة حجرة خاصة لمعلمى ، وجدت وسيلة لأن افتح بابها واغلقــه دون ان يفطن احد الى ذلك . وهنـاك ، رحت أشـاطره خير عدده وآلاته ورسومه وتجاربه .. بل كل شىء كان يجتذب ميولى ، وكان هو يحرص على ابقائه بعيدا عنى لهذا السبب ! .. وكانت هذه السرقات ـ فى قرارها ـ بريئة تماما ، اذ ما كنت استغلها الا فى خدمة معلمى . على اننى انتشيت اذ وجدت هذه التوافه فى متناولى ، وخيل الى اننى كنت أسلبه مواهبه وما كان ينتج عنها ! والى جانب ذلك ، وجدت صناديق تحوى مبارد واساور صغيرة وبعض النفائس والعملات الذهبية والفضية . وكنت حين أجد فى جيبى اربع أو خمس قطع من فئة «السو» (١) ، اعتبر نفسى غنيا . ومع ذلك ، ففضلا عن اننى لم امس شيئا مما وجدته هناك ، فاننى لا اذكر قط اننى رمقتها يوما بعينين مشوقتين . وانما كنت انظر اليها فى جزع اكثر منى فى ابتهاج ! **وأعتقد ان هذا الاستنكار لسرقة المال والنفائس كان راجعا ـ الى حد كبير ـ الى تربيتى ، والى ما كان يقترن بها من افكار دفينة عن العار ، والسجن ، والعقاب ، والمشانق ، ممــا كان كفيلا بأن يجعلنى ارتجف فرقا لو اننى تأثرت بالاغراء ..** هذا فى حين ان أحابيلى كانت تبدو فى نظرى كمجرد اعمال خبيثة ـ أو « شقاوة » ـ لا اكثر ، وانها لا يمكن ان تفضى الى اكثر

---

(١) « السو » عملة فرنسية صــغيرة تعــادل ٥ سنتيمات ، او جزء١٠ من عشرين من الفرنك

من « علقة » طيبة من معلمي .. وكنت اعد نفسي مقدما لذلك! .. واكرر انني لم اشعر قط برغبة كافية في ان أكبح نفسي ، فلم يكن ثمة ما يقلق ضميري . وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع اكثر اغراء لي من نقود تكفي لأن ابتاع رزمة منه ! وهذه الظاهرة الفذة ترتبط باحدى ميزات خلقي وشخصيتي ، وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكي مايجعلها اهلا للشرح !

* * *

• **انني** انسان ذو حمية بالغة ، اذا ما استبدت بي سورتها، فلن يعدل اندفاعي شيء : اذ انسى كل حكمة ، وكل شعور بالاحترام والخوف والوقار ، فاذا أنا أغدو شرسا ، متهورا ، عنيفا ، غير هياب .. لايصدني اي احساس بالعار ، ولا يرهبني اي خطر .. بل انني لا أحفل من الكون كله الا بالغاية التي تشغل بالي فحسب ! على ان هذا كله لا يستمر الا لحظة، ثم اذا بي في اللحظة التالية انغمس في سكون تام . **أما في لحظات هدوئي ، فأنا الخور والجبن ذاتهما ، اذ يخيفني ويشط همتي كل شيء : فالذبابة التي تمر بي وهي تطن تفزعني .. واضطراري الى ان اقول كلمة أو ابدي حركة ، يقض خمولي .. وهكذا يتسلط علي الخوف والخجل الى درجة يسرني معها ان استخفي عن بصر زملائي من الآدميين ! .. واذا كان علي ان آتي تصرفا فانني لا ادري ماذا ينبغي ان أفعل . واذا قدر علي ان أتكلم ، فانني لا ادري ما ينبغي ان اقول . واذا نظر أحد الي ، تولاني الارتباك !** .. ولقد أوفق الى الكلمات الخليقة بان تقال ، عندما استثار لدرجة عالية ، ولكني — في الحديث العادي — لا اعثر البتة على شيء يقال ، واغدو في حال لاتطاق ، لمجرد ان اجدني مضطرا الى الكلام ! .. أضف الى ذلك ان ليس بين رغباتي المتسلطة ما يتجه الى اشياء يمكن ان تشترى . فلست اشتهي

سوى المتع البريئة ، غير الزائفة ، وكلها مما يسممه المال ويفسده . من ذلك اننى مشغوف بمتع الطعام ، ولكننى — اذ لا أحتمل عبء الجلوس فى جماعة ، أو الشراب فى حانة — لا املك ان احظى بها الا برفقة صديق .. اما اذا كنت وحيدا ، فان خيالى يشغل اذ ذاك بأمور أخرى ، فلا يعود للأكل حظوة لدى . ورغم ان دمى الحار يهفو الى النساء ، فان قلبى المشبوب اشد حنينا الى العاطفة الصادقة . ومن ثم تفقد النساء — اللاتى يشترين بالمال — كل مفاتنهن فى نظرى .. بل انى ارتاب فى أن أجد من نفسى قابلية للافادة منهن . كذلك شأنى مع كل المتع التى فى متناول يدى ، فأنا أجدها غثة طالما كانت لا تكبدنى شيئا ! .. وانما أحب من المتع واسباب اللذة ما لا يكون ملكا لأول انسان يعرف كيف يستمرئها !

والمال .. أبدا ما تراءى لى نفيسا كما يقدر عادة ، بل انه لم يبد لى قط ذا صلاحية خاصة ، فهو عديم القيمة فى حد ذاته ، اذ لا بد من استبداله لكى يتيسر الاستمتاع به . فالمرء مضطر الى أن يشترى ، ويساوم ، ويتعرض للغش ، ويغبن ويبهظ ، ولا يخدم حق الخدمة .. وحين انشد شيئا جيد الصنف ، اوقن من اننى لن احصل بالمال الاعلى صنف ردىء !.. فاذا ما دفعت نقودا من اجل بيضة طازجة ، وجدتها فاسدة.. أو من اجل ثمرة طيبة من الفاكهة ، ألفيتها فجة ..وقد ادفع من اجل فتاة ، فاذا بها مفسودة ! .. وانا مولع بالنبيذ الجيد ، ولكن اين اظفر به ؟ ألدى تاجر الخمور ؟ مهما أفعل فانه لن يتحرج عن ان يسمنى ! ولو شئت ان أحظى بخدمة طيبة حقا ، فياللعناء وياللحيرة ! لا بد لى من أصدقاء ، ورسل ، ومن ان أمنح عمولات ، واكتب ، واروح واجىء ، وأنتظر .. وغالبا ما أكون فى النهاية ضحية للغش ! .. اى عناء ألقاه من مالى ! ان خوفى منه لأشد من شغفى بالخمر الجيدة !

كم من مرات يخطئها الحصر ، خرجت فيها — اثناء تعلمى

الحرفة وبعد ذلك ـ وانا اعتزم شراء بعض الحلوى .. فكنت أقبل على حانوت صانع الحلوى ، فأرى بعض النسوة عند طاولة البيع . وأخال انني ابصرهن بالفعل وهن يتضاحكن من هـذا النهم الصغير ! .. فأذهب الى الفاكهى ، وارمق الكمثرى فيغوينى شذاها ، ويرمقنى شابان او ثلاثة على مقربة .. وهـذا رجل يعرفنى ، يقف أمام حانوته .. وارى فتـاة مقبلة من بعـد ، أفتراها خادم الدار ؟ ان قصر نظرى يهيىء لى كافـة الرؤى الوهمية ، فأخال المارة جميعا من المعارف ، وهكذا أجد فى كل مكان من العراقيل ما يفزعنى ويصدنى .. وتتضاعف رغبتى بازدياد خجلى واستحيائى ، ثم أعود ـ فى النهاية ـ الى البيت، كالمغفل ، والشوق يضنينى ، وفى جيبى الوسيلة لاشباعه ولكنى لم أوت الجرأة على أن ابتاع شـيئا ! ولقد أنسـاق الى أكثر التفصيلات اجتلابا للملل اذا سمحت لنفسى ـ وأنا أصف كيف كانت نقودى تنفق ، عن طـريقى أو عن طريق سواى ـ بأن اشرح الارتباك ، والاستحياء ، والاحجام ، والتململ ، والازعاج ؛ التى كنت أمر بها دائما .. على ان القارىء المتتبع لمجرى حياتى، لن يلبث ـ اذا ما عرف حقيقة طباعى وسجيتى ـ ان يفهم كل هذا دون ان اتجشم عناء روايته عليه !

ولو تسنى له فهم هذا ، فسيسهل عليـه ادراك ظاهرة من أبرز ظواهر التنـاقض لدى : وهى اجتماع شـح يكاد يكون خسيسا ، مع بغض شديد للنقود ! .. فما النقود سوى قطعة من اثاث لا أجد فيها من الراحة سوى القليل ، حتى انه لايخطر ببالى قط ان اصبو اليها عندما لا تتوفر لى .. وحتى اذا ظفرت بها ، فانى ابقيها طويلا دون أن أنفقها ، عجزا منى عن ان ادرى كيف أستخدمها بطريقـة تدخل السرور على نفسى . اما اذا سنحت لى فرصة ملائمة ومواتية ، فاننى اقبل على استخدام النقود حتى ليخلو كيسى منها قبل ان افطن ! .. والى جانب ذلك ، فلا داعى لأن يتوقع احد ان يجد عندى تلك الخلة العجيبة

التى تتوفر فى البخلاء : الانفاق ، لمجرد التظاهر بالانفاق ! بل اننى ـ على النقيض ـ انفق فى السر من اجل الاستمتاع ،وبدلا من ان افخر بالانفاق اخفيه ! ويبلغ من شدة شعورى بأن لا نفع للمال لدى ، أننى أكاد أخجل اذ اقتنى اى قدر منـه ، وأكون أشد خجلا حين أستخدمه ! .. ولو قدر لى يوما من الدخـل ما يكفى لأن أعيش حيـاة مريحة ، فاننى اجزم بأننى ما كنت لأكون بخيلا ، بل كنت انفقه عن آخره ، دون أن أحاول زيادته. ولكن ظروفى غير المستقرة تلزمنى الحرص ، فأنا أعبد الحرية، وأمقت الكبت والعناء ، وان اكون عالة على الغير ! وطالمـا بقى المال فى كيسى ، فانه يطمئننى الى استقلالى ، ويعفينى مؤونة البحث عن اعمال لتملأ الكيس من جديد ، وهى ضرورة تبعث الجزع فى نفسى دائمـا .. **ومن ثم فان الخـوف من ان أرى ما لدى من المال قد استنزف ، يجعلنى اكتنزه فى حرص .. فالمال الذى يمتلكه الشخص هو اداة حريته ، اما حين نسعى اليه ملهوفين فيكون أداة العبودية .. ولهذا أتشبث بما لدى ، ولا ارغب فى مزيد !**

ومن ثم فان عدم شغفى بالمال لم يكن سوى تقاعس وتبلد، فان متعة الاقتناء لاتستحق عناء التحصيل .. وكذلك الحال بالنسبة لاسرافى ، فهو ليس اكثر من تقاعس وبلادة ، وعندما تحين فرصة الانفاق النافع ، فاننى لا أحسن استغلالها .. فالمال أقل اغـراء لى من الأشياء ، اذ ان ثمـة وسيطا ـ على الدوام ـ بين المال وبين اقتناء الأشياء المنشودة ، فى حين أنه لايوجد أى وسيط بين الأشياء وبين الاستمتـاع بها .. فاذا ما رأيت الشىء فانه يستهوينى، وما ان اتبين وسيلة الظفر به حتى يفقد اغراءه !.. ولهذا السبب اعتدت أن أرتكب السرقات، ولا أزال ـ حتى الآن ـ أختلس التوافه التى تستهوينى ، والتى أوثر ان آخذها بهذه الطريقة على ان اطلبها .. ولكننى لا اذكر اننى ـ سواء فى طفولتى أو فى كبرى ـ قد سلبت اى امرىء

درهما واحدا ، اللهم الا فى مناسبة واحدة ـ منذ خمس عشرة سنة ـ اذ سرقت سبعة «ليبرات» وعشر قطع من فئة «السو». وهذا الحادث جدير بالذكر ، لأنه يشتمل على خليط عجيب من النزق والقحة ، ما كنت لأصدقه بسهولة لو انه كان يتعلق بشخص سواى !

ولقد وقع هذا الحادث فى باريس ، اذ كنت أتمشى مع السيد « دى فرانسوى » فى حدائق (الباليه رويال) حوالى الساعة الخامسة . فاذا به يخرج ساعته ، فيستطلعها الوقت، ثم يقول : « لنذهب الى الاوبرا ! » . ووافقت ، فذهبنا . واستأجر السيد مقعدين فى « الصالة » ، واعطانى احدى التذكرتين ، ثم مضى بالثانية يتقدمنى ، فتبعته . ودخل الى «الصالة» ، فلما هممت بالدخول خلفه ، اذا بالناس يسدون الطريق . وتلفت فاذا كل فرد واقف ، فظننت ان من السهل ان اتوه وسط الزحام ، أو ان اوهم السيد « دى فرانسوى » بأننى ضللت ، على اية حال . ومن ثم خرجت فاسترجعت ثمن التذكرة ، وانصرفت بالنقود ، دون ان يخطر ببالى ان الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرد بلوغى الباب الخارجى، وان السيد «دى فرانسوى» قد تبين اننى لم اكن موجودا !(١)

.. واذ لم يكن ثمة تصرف ينافى مسلكى العادى مثل هذا التصرف ، فاننى اذكره لأبين ان هناك لحظات ينبغى الا يحكم فيها على الرجال بأعمالهم ، لأنهم يكونون فى شبه ذهول أو شرود !.. ذلك لأننى لم اكن راغبا فى اختلاس النقود ذاتها ، وانما أردت ان اسرق وجه استخدامها ، ولكن هذا التصرف كان مشينا بقدر ما كان بعيدا عن السرقة !

---

(١) ذكرت جورج صاند فى كتابها : « تاريخ حياتى » ، ان السيد دى فرانسوى ـ وكان جدها ـ اعتاد ان ينكر دائما صدق هذه القصة

☆ ☆ ☆

• ولن يقدر لى أن أفرغ من كل هــذه التفصيلات لو اننى المحت بكافة الدروب التى اتبعتها ـ اثناء تعلمى الحرفة ـ فى هبوطى من ذرى البطولة النبيلة، الى درك التفاهة ! ومع ذلك، فاننى لم استمرىء رذائل المركز الذى كنت فيه، وان مارستها. وسئمت أسباب التسلية التى كان زملائى يقبلون عليها ، حتى اذا اشتد تقييد حريتى فجعل العمل فى نظرى امرا لا يطاق ، سئمت كل شىء !.. وجدد هذا من شغفى بالقراءة ، بعد ان كنت قد فقدته زمنا . ولكن هذه القراءة ـ التى كنت اختلس لها فترة من وقت العمل ـ اصبحت عيبا جـديدا استوجب عقابى .. واذا الميل اليها يتحول ـ بالقمع ـ الى وجد لم يلبث ان أصبح جنونا !.. وكانت «لاتريبو» ـ وهى امرأة اشتهرت باعارة الكتب ـ تمدنى بكتب كافة الوان الأدب ، وكانت كلها ـ الغث منها والنفيس ـ سواء عنـدى ، اذ لم يكن لى فى الأمر خيار ، فأخذت أقرأ كل شىء بنفس النهم : رحت أقـرأ وانا أمام طاولة العمل ، واقرأ وأنا منطلق فى بعض المهام ، وأقـرأ بجوار صوان الملابس ، وانسى نفسى ساعات طويلة حتى يدور راسى لفرط القراءة .. فما كنت املك سوى ان أقرأ ! وكان معلمى يراقبنى ، ويباغتنى، ويضربنى، وينتزع الكتب منى.. وكم من مجلدات مزقت وأحرقت وطوح بها من النافذة ! .. وكم من مؤلفات تركت ناقصة الأجزاء ـ لهـذا السبب ـ فى مكتبة «لاتريبو» !.. وكنت اذا عزت على النقود ، اقدم للمرأة اقمصتى ، وأربطة عنقى ، وملابسى.. كما كانت تستولى منى فى يوم الاحد من كل اسبوع على قطع « السو » الثلاث التى كنت اتقاضاها لمصروفى الخاص !

سيقال لى هنا ان النقود باتت من الضرورات لى . وهـذا حق ، ولكنه لم ينطبق على الا عندما حرمنى شغفى بالقراءة ، من كل نشاط . فان انصرافى بكل نفسى الى هوايتى ، وعـدم

اكتراثى بغير القراءة ، الهانى عن السرقة ! وهــذه ميزة أخرى من الميزات البارزة فى شخصيتى ، ففى غمرة انغماسى فى أى مسلك فى الحياة ، يستطيع اى أمر تافه ان يجتــذبنى ، وأن يحولنى ، وأن يســتأثر بانتباهى ، ثم يغــدو شغفا . واذ ذاك يصبح كل شىء منسيــا ، فلا أعود أفكر فى غير الشىء الجديد الذى يستحوذ على اهتمامى . . وهـكذا كان قلبى يخفق فى صبر نافد اذا ما احضرت كتابا جــديدا ودسسته فى جيبى ، فلا أكاد أخلو الى نفسى حتى أخرج الكتاب ، ولا أعود أفكر فى التنقيب فى حجرة معلمى بالورشــة .. ولا أكاد اصدق اننى كنت أقــدم على السرقة ، ولو كانت لى أهواء تكلفنى نفقــة ابهظ .. كنت فى اقتصارى على الحاضر ، لا أجد اتجاها الى ان ادبر امر المستقبل بهذه الطريقة ، فقــد كانت « لاتريبو » تعطينى الـكتب بالنسيئة (بالتقسيط) ، وكانت الدفعــات صغيرة ، ولكنى كنت أنسى كل شىء بمجرد ان اطمئن الى وجود الكتاب فى جيبى . وكانت النقود التى تأتينى بطــرق شريفة تذهب بنفس الاسلوب الى يدى هــذه المرأة ! ولم يكن أهون على ـ عند ما تشتد فى الضغط على ـ من ان انزل عما امتلك . وكانت السرقة ـ قبل الحاجة الى المسروق ـ تتطلب كثيرا من

بعد النظر ، ومن ثم لم أكن أتعرض لاغراء يحملنى على السرقة لكى ادفع ما كانت المرأة تطلبه !.. **وكان من جراء المشاجرات، والضرب ، والاطلاع خفية على كتب** أسىء **اختيارها، ان صرت شرسا ، صموتا ، وشرد عقلى ، وأصبحت اعيش منطويا !..**
على إنه اذا كان ادراكى لم يعصمنى من الكتب السخيفة والفاسدة ، فان حظى الحسن صاننى من الكتب الفاحشة والنابية .. لا لأن «لاتريبو» ـ التى كانت امرأة لينة الجانب، من كل اعتبار ـ كانت تثير اى اعتراض دون اعارتى هذه الكتب ، وانما لأنها كانت تذكرها لى فى لهجة مشوبة بالغموض، لكى تضاعف من قيمتها لدى ، فاذا بهذا الغموض يحملنى على رفضها ، بدافع من الاستهجان والاستحياء .. **وقد ساعدنى حظى على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع ، فانقضى اكثر من ثلاثين عاما قبل ان تقع عيناى على احد هذه الكتب الخطرة، التى ما كانت اية سيدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة ، لأنها لاتقرأ الا بيد واحدة فقط ! (١)**

وفى أقل من عام ، كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من الكتب ، التى كانت لدى « لاتريبو » ، وأصبح افتقارى الى مايشغلنى ـ خلال فراغى ـ امرا مضنيا . وكنت قد أبرأت نفسى من نزواتى الصبيانية النابية ، بفضل ولعى بالمطالعة . بل انى بفضل الكتب التى كنت اقرأها ـ رغم انها كانت سيئة الاختيار ، وكثيرا ما كانت رديئة ـ ملأت قلبى بمشاعر انبل من تلك التى كان محيط حياتى يوحى الى بها . واذ امتلأت اشمئزازا من كل شىء كان فى متناول يدى ، وشعورا بأن كل ما كان خليقا باغرائى قد أقصى عنى تماما ، لم أعد أرى ثمة ما يمكن ان يهفو اليه فؤادى. وكانت حواسى المهتاجة قد طال شوقها الى متعة لم يكن فى وسعى ان ادرك كنهها ، ولو فى

---

(١) يقصد روسو الكتب المثيرة ، التى كان يبلغ من عنف اثارتها للقارىء ان تغريه على ممارسة العادات السيئة

الخيال !.. كنت نائيا عن المتعة الواقعيــة ، وكأننى خال من الجنس .. وكنت ـ لاكتمال نموى وارهاف مشاعرى ـ افكر أحيانا فى نزواتى ، ولكنى لم أكن أبصر مما وراءها أى شىء .. وفى هذه الحال العجيبة ، أقبل خيــالى المضطرب على شاغل انقذنى من نفسى وهــدأ من حساسيتى الشهوية النامية !.. وكان هــذا الشاغل هو تعليل نفسى بالحــالات والمواقف التى استرعت انتباهى اثناء مطالعاتى. وبفضل تذكرها ، وتنويعها، والجمع بينها ، وتصور انها تمت لى حقيقة ، **اصبحت واحدا من الشخصيــات التى كانت تمــلأ خيالى ، وأصــبحت ارى نفسى ـ دائماـ فى اكثر هذه المواقف ملاءمة لذوقى.. وأخيرا، جعلتنى الحال الخيالية ـ التى وفقت الى وضع نفسى فيها ـ أنسى حالى الحقيقية التى لم اكن راضيا عنهــا !** وقد أفضى بى هذا الولع بالموضوعات الخيالية، والاستعداد الذى كنت اتوسل به الى شغل نفسى بها ، الى الاشمئزاز من كل شىء حولى، والى اقرار ذلك الميــل الى الوحدة الذى لم يفــارقنى بعد ذلك . وسنرى ـ اكثر من مرة ـ فى سياق الحديث ، الآثار العجيبة التى ترتبت على هذا السلوك الذى كان يبدو كئيبا ، ومنطويا، **ولكنه ـ فى الواقع ـ راجع الى قلب مفرط العطف ، ومفرط الحب ، ومفرط الحنان ، اضطر الى ان يغذى نفسه بالأوهام اذ عجز عن ان يجد فى الوجود أى قلب آخر يشبهه !** على اننى اكتفى ـ فى الوقت الحــاضر ـ بأننى حــددت أصل ومبعث هواية خففت كل نزواتى ، وفرضت عليها من نفسها قيودا ، فجعلتنى على الدوام بطىء التصرف، نظرا لفرط تأجج شهوتى!

* * *

• **وهكذا** بلغت العام السادس عشر من عمرى ، وانا قلق ، غير راض عن نفسى ولا عن أى شىء ، خلو من شىء من الميــول التى تتوفر فى مثل الحال التى كنت أعيش فيها . . خلو من

ملاهى السن التى كنت اجتازها ، يضنينى اشتهاء الغاية التى كنت اجهل كنهها .. فكنت أبكى دون ما داع للدموع ، واتنهد دون ان أدرى لذلك سببا ! وقصارى القول ، كنت اداعب أطياف خيالى بحنان، لأننى لم أكن ارى حولى شيئا يرجحها. وكان زملائى – الذين كانوا يتعلمون الحرفة معى – يفدون فى ايام الآحاد يبحثون عنى بعد الصلاة ، لأذهب فأنشد بعض اللهو معهم . كنت اشعر باننى خليق بأن اغتبط لو استطعت ان اهرب منهم ، **ولكنى لم اكد اشترك فى ملاهيهم مرة ، حتى ازددت تحمسا وتماديت الى ابعد مما كانوا يذهبون اليه !.. هكذا كان مسلكى دائما ، يصعب حملى على الشىء، كمايصعب ايقافى عن المضى فيه اذا ما بدأت !..** فكنت – خلال نزهاتنا خارج المدينة – أذهب الى ابعدمما يذهب اليه أى واحد منهم، دون ما تفكير فى العودة ، ما لم يتذكرها لى الآخرون !.. ولقد تورطت فى هذا الصدد مرتين ، اذ اغلقت ابواب المدينة قبل ان اتمكن من العودة ! فكنت – فى اليوم التالى – أقابل من معلمى بما يمكن تصوره ! بل اننى انذرت فى المرة الثانية بأن أقابل – اذا ما تكرر التأخر – استقبالا جعلنى أعقد العزم على ان لا أقدم على التعرض لهذا الخطر ثانية !.. ومع ذلك ، فقد قدر للمرة الثالثة ان تأتى ، برغم بشاعتها : فقد افسد على حرصى ضابط لعين من الحرس – كان يدعى الكابتن مينوتولى – اعتاد دائما ان يغلق «البوابة» التى كان يحرسها قبل ان تغلق الأبواب الأخرى بنصف ساعة ! وكنت فى تلك المرة عائدا مع زميلين ، وقبل ان نبلغ المدينة بنصف فرسخ ، سمعت البوق الذى يستحث العائدين ، فضاعفت من خطاى.. وعدت أسمع البوق ، فهرعت بكل قواى .. ووصلت وانا مقطوع الانفاس، غارقا فى العرق ، وقد راح قلبى يخفق بعنف .. ورأيت الجنود – من بعد – يتخذون مراكزهم ، **فاندفعت نحو البوابة وأنا أصرخ بصوت كاد يخنقه التهدج .. ولكن الفرصة كانت**

قد فاتت ، فما ان أصبحت على عشرين خطوة من مركز الحراسة الامامى ، حتى رفعت القنطرة الأولى ! وارتعدت وانا ارى طرفيها الرهيبين يرتفعان فى الهواء ، كنذير شؤم بغيض بالمصير الذى كان فى تلك اللحظة يفغر فاه ليبتلعنى !

وفى الفورة الأولى لأساى ، ألقيت بنفسى على الارض المنحدرة ، ورحت اعضها . وبادر زميلاى لتوهما — وهما يضحكان من نحسهما — الى تقرير ما ينبغى عليهما عمله . وقد حذوت حذوهما، ولكن قرارى كان يختلف عن قرارهما. فقد اقسمت — فى تلك البقعة — الا أعود الى معلمى قط ! فلما ولجا المدينة فى الصباح التالى ، بعد ان فتحت الأبواب، ودعتهما الى الأبد ، ولم اسألهما سوى ان ينبئا ابن خالى « برنار » بقرارى، سرا، وبالمكان الذى يستطيع ان يرانى فيه مرة اخرى!..

ولم أكن — منذ تتلمذت فى الحرفة — قد رأيته الا لماما ، فقد ظللنا وقتا نلتقى فى يوم الأحد من كل اسبوع ، ولكن كلا منا اخذ يتجه رويدا الى عادات غير عادات صاحبه ، فأخذت لقاءاتنا تقل باطراد . واعتقد ان لأمه يدا فى هذا التحول ، فقد كان من ابناء الحى الراقى ، بينما كنت تلميذا فقيرا اتلقى اصول الصنعة . كنت من أبناء (سان جيرفيه) — حى الفقراء بالمدينة — فلم تعد ثمة مساواة بيننا ، رغم قرابتنا ، ومن ثم فقد كان من الحطة له أن يكون ذا شأن معى ! .. ومع ذلك ، فان الصلات بيننا لم تنقطع تماما ، فان ابن خالى — بما أوتى من فطرة طيبة — كان يتبع فى بعض الأحيان ما كان يمليه عليه قلبه ، وليس ما كانت تمليه عليه أمه ! .. فلما انبىء بما عقدت عليه العزم ، أسرع الى ، لا ليحاول ان يثنينى عنه أو يشاطرنيه، وانما ليخفف متاعب فرارى ببعض المنح البسيطة ، اذ كانت مواردى لا تساعدنى على الذهاب بعيدا . وكان بين الاشياء الأخرى التى وهبنيها ، سيف صغير استهوانى كثيرا ، وظللت احمله حتى بلغت (تورين) ، حيث اضطرتنى الضرورة الى

ان انزل عنه . انني كلما فكرت ـ منذ ذلك الحين ـ في التصرف الذي انتهجه ابن خالي نحوي في تلك اللحظة الحرجة ، ازددت اقتناعا بأنه انما اتبع تعليمات امه ، وربما أبيه ايضا . اذ انه من الامور التي لا سبيل الى تصديقها ، انه كان يقعد عن بذل اي مجهود لاستبقائي ، او يحجم عن ان يتبعني ، لو انه كان يتصرف من تلقاء نفسه .. **ولكنه ـ على العكس ـ كان في مسلكه أقرب الى تشجيعي على ان امضي في خطتي ، منه الى اثنائي عنها ! .. وعندما تبين انني كنت مصمما ، تركني دون ان يذرف كثير دمع . ولم يقدر لنا ان نتبادل الرسائل أو ان يرى أحدنا الآخر ، منذ ذلك الحين ! وانه لأمر يدعو للأسف ، اذ كانت شخصيته بطبيعتها طيبة ، وكنا قد خلقنا لكي يحب كل منا الآخر !**

وقبل ان أستغرق في الحديث عن حظي وقدري ، اسمحوا لي ان أحول عيني لحظة الى الحظ الذي كان خليقا بأن ينتظرني ـ بحكم طبيعة الأمور ـ لو انني وقعت بين يدي معلم أفضل من معلمي هذا .. فما كان ثمة ما هو أنسب لميولي ، ولا ما هو أصلح لاسعادي ، من الحياة الهادئة ، المغمورة ، التي يحظى بها أي صاحب حرفة محترم ، لا سيما اذا كان من طبقة كطبقة الناقشين على المعادن في (جنيف) .. اذ ان مثل هذا المركز ـ الذي يدر من الكسب مايكفي لتهيئة معاش مناسب ، ولكنه لايكفي لتكوين ثروة ـ كان كفيلا بأن يحد من طموحي ماتبقى لي من العمر ، وبأن يفسح لي فراغا شريفا لكي ارعى ميولي المتواضعة ، وبأن يستبقيني في المحيط المناسب لي ، دون ان يتيح لي أسباب تجاوزه ! .. فقد كانت موارد خيالي من الخصب بحيث تخلع جمالا على كل المهن والاعمال وما يحيط بها ، ومن القوة بحيث تنقلني ـ ان صح هذا التعبير ـ من حال الى حال ، وفق ارادتي . لذلك لم يكن للمركز الذي أجد نفسي فيه اي اعتبار مادي في الواقع . وما كان أي مكان أوجد فيه ليبعد عن

اولى قلاعى التى كنت اشيدها فى الهواء ، بمسافة تقعدنى عن أن الوذ بقلعتى دون ما عناء ! .. وترتب على هــذا وحده ان أبسط مهنة ، المهنة التى تنطوى على اقل عنــاء ، والتى تتيح اكبر قدر من الحرية الفكرية ، هى التى كانت تروق لى اكثر من سواها .. وهكذا كانت مهنتى تماما ! .. وكان من الممكن أن أقضى حياة هادئة وادعــة ، كتلك التى تتطلبها ميولى ، فى احضان عقيدتى ، ووطنى ، واسرتى ، واصدقائى ..وفى رتابة المهنة التى تلائم ذوقى ، وفى الرفقة المحببة الى فؤادى .. كان من الممكن ان اكون مسيحيا طيبا ، ومواطنا طيبا ، وأبا طيبــا لأسرة ، وصــديقا طيبا ، وعاملا طيبا ، ورجلا طيبــا فى كافة روابط الحياة .. وكان من الممكن أن أحب مركزى فى الحياة ، بل ولعلنى كنت أمجده .. **وكان من الممكن بعد أن أقضى حياة بسيطة وخاملة مغمورة ، فى الواقع — او فلأقل هادئة وقورا — أن أموت بسلام ، فى احضان اسرتى .. ومع اننى كنت خليقا بأن أغدو نسيا منسيا بعــد قليل — دون ما ريب — الا اننى كنت خليقــا اذ ذاك بأن أجد من يحزن على — على الأقــل — ما بقي على قيد الحياة واحد ممن يذكروننى !**

اية صورة اوشك ان ارسمها ، بدلا من هذه ؟ .. لنكف عن استباق شجون الحياة ، فسوف اشــغل قرائى بما هو فوق الكفاية من الأسى !

الكراسة الثانية

٤ ـ من سنة ١٧٢٨ الى سنة ١٧٣١

• **بقدر** ما بدت اللحظة ـ التى اوحى الى فيها الخوف بفكرة الفرار ـ حزينة ، فان اللحظة التى اقدمت فيها على تنفيذ الفكرة بدت بهيجة .. فقد كنت أهجر بلدى ، وأهلى ، وأسباب عيشى ،وموارددى ، وانا بعد صغيرا ! .. كنت انصرف عن حرفة ـ وانا فى منتصف دراستها ـ دون ما معرفة كافية بها ، تمكننى من ان اكسب عيشى .. كنت أسلم نفسى لأهوال العوز ، دون اية وسيلة لانقاذ نفسى منها ! .. كنت اعرض نفسى ـ وانا بعد فى سن البراءة والضعف ـ لكل غوايات الرذيلة والقنوط .. كنت انشد ـ فى البعد ـ العذاب ، والخطأ ، والزلات ، والعبودية ، والموت تحت ربقة اشد طغيانا من تلك التى لم اطق احتمالها ! .. هذا ما كنت أوشك أن أفعل ، وهذا هو المستقبل المحتمل الذى كان يجب ان أقدره ! .. فما أبعد هذا عن الخيال المزوق ! .. كان الاستقلال الذى اعتقدت اننى اكتسبته ، هو الشعور الوحيد الذى أخذ يحركنى .. **فقد**

اعتقدت ان بوسعى - وانا حر ، سيد نفسى - ان افعل كل شىء ، وان أحقق كل شىء ، وليس على سوى أن أدفع نفسى فاذا بى أرقى وأحلق فى الهواء ! .. لقد دخلت الدنيا الواسعة وانا عامر القلب بالشعور بالأمان ، وبأن هذه الدنيا لن تلبث ان تفعم بصيت أعمالى ، واننى ساجد فى كل خطوة احتفالات ، وكنوزا ، ومغامرات ، وأصدقاء على استعداد لأن يخدمونى ، وعشيقات تواقات الى ارضائى ! .. فليس على سوى ان اظهر، فأشغل بال الدنيا بأسرها .. ومع ذلك فلم اكن راغبا فى الدنيا كلها ، اذ كان بوسعى ان استغنى عنها ، الى حد ما ! .. كانت الرفقة اللطيفة تكفينى ، دون أن أضنى نفسى ببقية الدنيا .. كنت فى تواضعى قد قصرت نفسى على مجال ضيق ، مختار ، بهيج ، يكون سلطانى عليه أمرا محققا .. كان أقصى طموحى يتمثل فى نطاق غزو قلعة واحدة : فلو قدر لى ان اكون أثيرا لدى السيد والسيدة ، وحبيبا للابنة ، وصديقا للابن ، وحاميا للجيرة ، لقنعت .. فما كنت راغبا فى مزيد !

وفى ارتقاب هذا المستقبل المتواضع ، رحت أهيم حول المدينة لبضعة ايام ، متخذا مقامى لدى بعض فلاحين كنت أعرفهم . وقد استقبلونى فى كرم يفوق ما كان أى امرىء من سكان المدينة خليقا بأن يبذل لى ، فقد رحبوا بى ، وآوونى ، وغذونى بكرم يفوق كل ماكنت استحق .. ولا سبيل الى وصف عملهم بأنه «احسان» ، اذ انهم لم يكونوا يخلعونه على بترفع أو من .. وهكذا رحت اتنقل وأهيم على وجهى ، حتى بلغت (كونفنيون) ، بمنطقة (سافوى) ، على بعد فرسخين من (جنيف) . وكان مطرانها يدعى السيد « دى بونفير » ، وقد استرعى انتباهى هذا الاسم الذائع فى تاريخ الجمهورية ، وكنت تواقا لأن اشهد سلالة « فرسان الملعقة » (١)

---

(١) كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا دوق سافوى ، وكانوا يؤلفون عصبة فى جنيف ، فى عهد الاصلاح ، وقد اطلق عليهم لقب « فرسان الملعقة » ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم « أكلوا اعداءهم بالملعقة » !.. ومن ثم فقد كانوا

وسعيت الى السيد « دى بونفير » ، فتلقانى فى رفق ، وتحدث عن زندقة (جنيف) ، وعن سلطان كنيسة الام المقدسة ، ثم دعانى الى العشاء . ولم أجد ما ارد به على حديث انتهى الى هذه النتيجة ، بل اننى خرجت برأى اوحى الى بأن المطارنة الذين يحظون بمثل هذا العشاء ، لايقلون صلاحا عن كهنتنا . وكنت ـ يقينا ـ أكثر معرفة من السيد «دى بونفير» ، ولكنى كنت لا أقل صلاحية كضيف عنى كمتبحر فى علوم اللاهوت ، **كما ان نبيذ « فرانجى » الذى قدم على المائدة ، والذى لاح لى بديعا ، كان موفقا فى كسب كل حجة الى صف المطران ، فقد كان خليقا بى ان استحيى من ان اوقف فم مثل هذا المضيف العجيب عن الكلام ! .. ومن ثم فقد رحت أسلم بحججه ، أو ـ على الاقل ـ احجم عن ان ابدى مقاومة صريحة.** ولو ان احدا رأى ما كنت أبدى من حذر ، لخالنى مخادعا . ولكن هذا غير صحيح ، فمن المحقق اننى انما كنت أصدر فى تصرفى عن ملاطفة عامة ، اذ ان المجاملة ولين الجانب ليسا من الرذائل دائما ، بل انهما كثيرا ما يكونان من الفضائل ، لا سيما لدى الشبان .. ذلك لأن الكرم الذى يعاملنا به أى شخص يقربه الى قلوبنا ، فاذا ما جاريناه فى آرائه فلن يكون ذلك عن تملق ، بغية استغلال كرمه ، وانما هو تجنب لاغضابه ، أو لمقابلة حسنته بسيئة .. اذ ما الصالح الذى كان السيد دى بونفير يبتغيه من وراء استقبالى ، أو اكرامى ، او محاولة اقناعى ؟ .. لا شىء سوى مصلحتى انا . هكذا انبأنى قلبى الشباب ، فهزنى عرفان الجميل ، وتوقير مثل هذا الكاهن الطيب . وكنت اشعر بتفوقى عليه فى المعرفة ، فلم أشأ ان اجازيه عن ضيافته بأن اذهله بهذا التفوق . ومن ثم لم يكن فى مسلكى شىء من النفاق ، فما فكرت قط فى أن أغير دينى ، بل

يحملون ملعقة مدلاة من أشرطة حول أعناقهم . وكان يرأسهم فارس من آل « دى بونفير »

انني كنت أبعد ما أكون عن ان اروض نفسي سريعـا على هذه الفكرة ، وما نظرت اليها الا فى استنكار ساعد على ان يقصيها عنى امدا طويلا . انما كانت كل رغبتى هى ان أتفادى اغضاب اولئك الذين كانوا يحسنون معاملتى سعيـا منهم الى تحويلى عن عقيدتى . كنت أبغى ان أنمى حسن نواياهم ، وان ادعلهم الأمل فى النجاح ، وذلك بأن أبدى لهم اننى اقل مناعة مما كنت فى الواقع . **وكان مسلكى فى ذلك يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة ، اللائى يعرفن كيف يثرن آمالا تفوق ما يعتزمن ان يحققنه احيانا فى سبيل بلوغ مآربهن ، دون ان يجدن بشىء ، او يتقيدن بوعد !**

كان العقل ، والشفقة ، ومراعاة النظام ، تتطلب من الناس ان ينقذونى من الدمار الذى كنت أهرع لملاقاته ، واعادتى الى اسرتى ، بدلا من معاونتى على طيشى ! هذا ما كان كل انسان صالح صادق التقوى خليقا بأن يفعله ، أو يحاول فعله . ولكن السيد « دى بونفير » وان كان رجلا طيبا ، الا انه لم يكن ـ قطعا ـ بالرجل التقى . . بل انه كان ـ على النقيض ـ متعصبا ، لايعرف عن التقوى سوى انها عبادة الصور ، وترديد التسابيح . . كان من ذلك النوع من المبشرين الذين لايملك الواحد منهم ان يفكر فى شىء لمصلحة عقيدته ، أفضـل من كتابة الاتهامات ضد قساوسـة جنيف ! . . وبدلا من ان يردنى الى موطنى ، استغل الرغبة التى كنت احس بها فى الفرار من هذا الموطن ، وعمل على ان يجعل العودة متعذرة على ، ولو شئتها ! . . ومن المحتمل ان الطريق التى وجهنى اليها كانت كفيلة بأن توردنى موارد التعاسة ، أو ان تجعلنى امعة لا وزن له . . ولكنه لم يكن يتطلع الى ذلك أو يحسب حسابه ، فما كان يرى امامه سوى نفس انقذت من الكفر وردت الى الكنيسة . **وسواء اكنت شريفا ام وغدا ، فما قيمة ذلك ما دمت اذهب الى القداس ؟ . . على أن المرء يجب الا يعتقـد ان مثل هذا التفكير مستغرب لدى**

الكاثوليك ، بل انه مألوف لدى كافة الأديان المتعصبة ، التى يعتبر الايمان هو الشىء الرئيسي فيها ، وليس الاعمال !

وقال لى السيد دى بونفير : « ان الله يدعوك ، فاذهب الى (انيسى) ، وهناك ستجد سيدة طيبة ، محسنة ، جعلها كرم الملك فى مركز يمكنها من انقاذ الأرواح من الخطأ الذى نجت هى نفسها منه ! » . وكانت السيدة المقصودة هى « مدام دى فاران » ، التى اعتنقت الكاثوليكية حديثا ، والتى اضطرها القساوسة - فى الواقع - الى ان تقتسم مع من كانوا يبيعون عقيدتهم من الدهماء ، معاشا قدره الفا فرنك كانت تتلقاه من ملك سردينيا . وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيدة طيبة محسنة ، فقد كنت جد تواق الى ان احصل على مايفى بحاجاتى ، وليس الى ان احظى بصدقات ! .. كما ان التفرغ للدين لم يكن يستهوينى . ومع ذلك فقد حملت نفسى - فى شىء من العناء - على ان اسعى الى (انيسي) مدفوعا بالحاح السيد دى بونفير ، وبضغط الجوع ، وبمتعة الرحيل فى سبيل غاية محددة . وكان بوسعى ان ابلغ وجهتى فى يوم واحد ، ولكننى استغرقت فى سفرى ثلاثة ايام ، اذ لم اكن فى عجلة من امرى . ولم أجرؤ - فى تلك الاثناء - على ان ألج قصرا ، أو اقرع بابا ، فقد كنت بطبعى شديد الخجل . ولكنى كنت اغنى تحت النوافذ التى يراودنى الأمل فى ان يكون خلفها من يسمعنى . وكنت أصدم عندما انهك رئتى بالجهد المتواصل ، ثم لا ارى سيدات ولا عذارى ينجذبن الى صوتى أو معانى اغانى ، لاسيما وانى كنت اعرف منظومات رائعة علمنيها زملائى ، وكنت اغنيها فى القاء لا يقل عن معانيها روعة !

ووصلت أخيرا ، فرأيت **« مدام دى فاران »** . ولقد حددت هذه الفترة من عمرى شخصيتى ، فلست اقوى على ان احمل نفسى على المرور بها مرا سريعا .. **كنت فى منتصف العام السادس عشر من عمرى ، وكنت بديع التكوين ، دون ان اكون**

ما يسمونه ((فتى مليحا)) .. كنت صغير القدم ، مستوى الساق ، رضى الخلق ، ذا قسمات معبرة ، وفم صغير بديع ، وشعر فاحم ، وحاجبين أسودين ، وعينين صغيرتين غائرتين قليلا ، ولكنهما ـ مع ذلك ـ كانتا ترسلان بقوة تلك النار التى كانت تتأجج فى دمى ! .. على اننى ـ لسوء الحظ ـ لم اكن اعرف شيئا عن ذلك ، فما خطر لى قط ـ خلال حياتى ـ ان افكر فى مظهرى الشخصى ، اللهم الا بعد ان فات اوان الافادة منه!
.. وكان الجبن المألوف فى مثل سنى هذه يرتبط بوجل ناشىء عن شخصية جبلت على الحب ، فهى دائما فى هم من خشية الاساءة الى أحد . هذا الى جانب اننى وان اوتيت عقلا حسن التكوين ، نشىء على التسامح ، الا اننى لم اكن قد رأيت الدنيا ، وكانت تعوزنى آداب السلوك .. وبدلا من ان تسد معرفتى هذا النقص ، فانها لم تؤد الا الى مضاعفة خجلى وجبنى ، اذ اظهرتنى على مدى حاجتى الماسة الى هذه الآداب !

ومن ثم ، فان خوفى من ان يخفق مظهرى ـ فى اول لقاء مع مدام دى فاران ـ فى ان يكسب عطفها ، دفعنى الى تجشم متاعب اخرى . فنظمت رسالة بديعة ، فى اسلوب خطابى ، خلطت فيها عبارات منتقاة من الكتب ، بتعبيرات مكتسبة من الزملاء العمال ، وكشفت عن كل بلاغتى ، لكى اكسب رضاء السيدة . وارفقت برسالتى خطاب السيد دى بونفير ، ثم سعيت الى المقابلة التى كنت أرهبها!.. ولم تكن مدام دى فاران فى البيت ، بل قيل لى انها بارحته لتوها الى الكنيسة ، اذ كان اليوم يوم احد السعف من عام ١٧٢٨ ، فهرعت فى اثرها ، ورأيتها ، فلحقت بها وخاطبتها . **وخليق بى ان اذكر البقعة التى التقينا فيها ، فكم رويتها بدمعى وغطيتها بقبلاتى ، منذ ذلك الحين ! وكم اتمنى ان احيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب . كم اود ان اجتلب اليها تمجيد العالم وخشوعه .. وخليق بكل من يحب تكريم ذكريات خلاص النفوس البشرية ،**

ان لا يقترب منها الا وهو راكع على ركبتيه !

كانت تلك البقعة دربا يمتد خلف منزل السيدة ، ويصل بين جدول - الى اليمين - يفصل البيت عن الحديقة،وسياج الفناء-الى اليسار-ويؤدى الى باب خلفى لكنيسةالفرنسيسكان (١) . وفى اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتياز هذا الباب ، سمعت صوتى ، فالتفتت خلفها . وكم اذهلنى منظرها ! .. كنت قد تمثلتها عجوزا ، عابسة ، متعصبة فى تدينها-فما كانت السيدة التقية التى تعرف السيد دى بونفير لتعدو هذه الصورة ، فى رأيى ! - **بيد اننى رأيت بدلا من هذه الصورة وجها يفيض بالسحر ، وعينين زرقاوين جميلتين - مفعمتين رقة - وبشرة تبهر البصر ، ومعالم عنق فاتن .. لم يفلت شىء من النظرة السريعة التى القاها المريد الفتى - فقد غدوت منذ تلك اللحظة مريدا وتلميذا متعلقا بها-وقدداخلنى اقتناع بأن دينا يبشر به حواريون من قبيل هذه السيدة ،لابد**

---

(١) أصحاب الحبال : وهم أفراد طائفة دينية أنشأها القديس فرانسيس الاسيسى فى سنة ١٢٢٣ . وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعة أنشأها « دانتون » و « مارا » و « ديمولان » - زعماء الثورة الفرنسية - فى سنة ١٧٩٠ ، وكانت تعقد اجتماعاتها فى دير الفرنسيسكان العتيق بباريس .

رسم تاريخى من ريشة أحد الرسامين القدامى ، يمثل راعية « جان جاك روسو » المشهورة ، وملهمته الأولى الرئيسية : « مدام دى فاران »

وأن يقود الى الفردوس ! وتناولت منى المرأة، مبتسمة ، الرسالة التى قدمتها اليها بيد مرتجفة ، ففضتها ، والقت نظرة على ما كتب السيد دى بونفير ، ثم ارتدت الى ما كتبته انا فقرأته كله، وهمت بأن تعيد قراءته لولا ان نبهها خادمها الى ان الوقت قد حان لتلج الكنيسة ، فقالت لى بلهجة هزت كيانى : « حسنا يا صغيرى .. اذن فأنت تهيم فى البلاد ، فى مثل هذه السن؟ .. انه لأمر يستحق الرثاء حقا ! » .. ولم تنتظر حتى اجيب، بل اردفت : « اذهب فانتظرنى ، وسلهم ان يقدموا لك فطورا .. ولسوف آتى بعد الصلاة لاتحدث اليك »

كانت « لويز اليونور دى فاران » شابة تنتمى الى آل

« لاتوردى بيل »،وهى اسرة عريقة ونبيلة من اسرات (فيفاى) احدى مدن مقاطعة (فودن) . وكانت قد تزوجت وهى جد صغيرة من السـيد دى فاران ـ من آل لويس ـ وكان الابن الاكبر للسـيد دى فيلاردان ، من (لوزان) . ولم يكن هـذا الزواج ـ الذى لم يعقب ولدا ـ زواجا هنيئا،فلم تلبث السيدة دى فاران ـ تحت تأثير حزن عائلى ـ ان انتهزت فرصة وجود الملك فيكتور اماديو فى (ايفيان) ، فعبرت البحـيرة ، والقت بنفسـها عنـــد قدمى هذا الأمير .. **ومن ثم هجرت زوجها وأسرتها وبلادها ، فى فورة حمقاء تشبه فورتى! ـ وقد وجدت متسعا من الوقت بعد ذلك للندم ، كما فعلت انا ـ** واذ كان الملك مشغوفا بأن يظهر بمظهر الكاثوليكى الغيور ، فانه اخـذ السيدة تحت حمايته ،ووقف عليها معاشا سنويا قدره ١٥٠٠ جنيه بييمونتى (١) .. وهو مبلغ كبير يعد اسرافا من امير كان بطبعه غير ميال للسخاء. على انه علم بعد ذلك بما قيل ـ بسبب استقباله اياها ـ من انه احبها ، فما كان منـه الا ان ارسلها الى (انيسى) فى حماية فصيلة من حرسه، حيث نبذت العقيدة البروتستانتية فى دير (الزيارة)، تحت ارشاد روحى من «ميشيل جابرييل دى برنيكس » ، **الاسقف الاسمى لجنيف .**

وكانت قد قضت ست سنوات فى (انيسى) عندما قدر لى ان اصل اليها ، وكانت وقتئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها، اذ ولدت فى بداية القرن . **ولقد كان جمالها من النـوع الذى يبقى مع الزمن، اذ انه يقترن بالمحيا اكثر منه بالملامح والقسمات .. كما انه كان ـ لديها ـ فى باكورة تألقه . فكان لها طابع لطيف ، حنون ، وشكل رقيق ، وابتسامة ملائكية، وفم يشبه فمى ، وشعر اشهب خفيف نادر الجمال ، ترسله فى اهمال كان**

---

(١) نسبة الى ولاية (بييمونتى) ـ وتكتب بالحروف اللاتينية (بييد مونت) ولكن التاء تغفل فى النطق ـ وتقع على حدود فرنسا وسويسرا ، فى الشمال الغربى لايطاليا

يكسبها مظهرا اخاذا . وكانت صغيرة القد ، بل انها كانت قصيرة،وان لم يكن هذا يعيبها . على انها اوتيت رأساوصدرا ويدين وذراعين لا تملك العين ان تقع على اجمل منها ..
ولقد كانت تربيتها جد عجيبة:كانت قد فقدت أمها عندمولدها - مثلي - وتلقت العلم فى غير انتظام ، كلما عن لها أو صادفتها الفرصة.. فأخذت قدرا ضئيلا من مربيتها، وقليلا من ابيها، وقليلا من مدرسيها ، وحظا وافرا من عاشقيها ، لاسيما من شخص منهم يدعى السيد « دى تافيل » ، كان رجل ذوق وعلم،فكان يزين المرأة التى تتجه اليهاعواطفه بروائعمعرفته. ولكن تعدد أنواع المعرفة المتباينة - بهذه الكثرة - جعل كلا منها يعرقل الآخر ! ولما كانت السيدة قد واصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم ، فان ادراكها السليم - بطبعه - لم يصب اى تحسن. ومن ثم فانها - رغم المامها بشىء من اصول الفلسفة وعلم الطبيعة - ظلت تحتفظ بما كان لابيها من ميل الى الطب التجريبى (١) والكيمياء، وكانت تحضرانواع «الاكسير» والأصباغ ، والبلاسم (المراهم) ، والمساحيق السامية (٢) . **وكانت تزعم انها تمتلك عقاقير سرية ! ولقد استغل مدعوالطب من الدجالين ضعفها ، فتسلطوا عليها ، وأعنتوها ، وأفلسوها** .. وبين البواتق والعقاقير بددوا ذكاءها ، ومواهبها ،ومفاتنها التى كانت خليقة بان تبهر بها ارقى مجتمع !.. ومع ذلك ، فبالرغم من ان الأوغاد الخبثاء اساءوا استغلال تربيتها التى لم تلق التوجيه الصالح ، لكى يطفئوا ضياء عقلها ، **الا ان قلبها السامى صمد للمحنة ، وظل دائما على سموه .. وما تغيرت شخصيتها الودودة اللطيفة ،ولا عطفها على التعساء،ولاطيبتها**

---

(١) الطب التجريبى هنا يقصد به ذلك الطب الذى تكتسب معرفته بالممارسة والتجربة ، وهو ما يعرف لدى العامة بطب « البركة »
(٢) المساحيق السامية مساحيق كانت تعزى اليها ميزات عالية

التى لم يكن لها حد ، ولا خلقها البشوش ، الصريح، المستقيم .. بل انها حين عدا عليها الكبر ، واحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الانواع، ظلت على سجيتها الوادعة الجميلة، محتفظة - حتى نهاية عمرها - بكل ما كان بها من بهجة فى اهنأ الأيام !

ولقد كانت اخطاؤها راجعة الى معين لا ينضب من النشاط الذى كان فى حاجة مستمرة الى شاغل . ولم تكن تبغى شيئا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء ، وانما كانت تبغى مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها . فلقد خلقت لتسهم فى الشئون الهامة. ولو ان « مدام دى لونجفيل » كانت فى مكانها لكانت مجرد دساسة تنصرف الى المؤامرات .. اما هى ، فلو انها كانت فى مكان مدام دى لونجفيل لحكمت الدولة وساست امورها ! ولكن قدر لمواهبها ان تتوفر فى غير المجال الصالح لها ، فاذا هذه المواهب التى كانت خليقة بأن تجلب عليها الشهرة لو انها كانت فى مركز اسمى ، تؤدى الى دمارها وهى فى المركز الذى عاشت فيه ! .. ذلك انها كانت - فى كل ما يقع فى مجال طاقتها العقلية - ترسم خطتها مكبرة فى رأسها، فترى غايتها مضخمة ، مما كان ينجم عنه استخدامها وسائل اكثر تناسبا مع آرائها منها مع قوتها .. ولقد اخفقت بفضل أخطاء غيرها . وعندما فشل مشروعها، أفلست ولما يكد سواها يخسر شيئا !.. **على ان هذا الشغف بالاعمال التجارية - الذى أضر بها أبلغ الضرر - كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى فى عزلتها الرهبانية ، اذ حال بينها وبين البقاء فى هذه العزلة مابقى من عمرها ، كما كانت تعتزم .** فما كان من المحتمل ان تليق حياة الراهبات المنتظمة المتقشفة ، ولا الثرثرة المنبعثة عن الخمول والكسل، بعقل كان فى حركة مستمرة، وكان يبتكر فى كل يوم نظما جديدة، ويحتاج الى الحرية ليكرس ذاته لهذه النظم!

وكان اسقف برنيكس الطيب يشبه « فرانسوا دى سال »

(١) فى كثير من النواحى ، وان لم يعدله مهارة .. كما ان مدام دى فاران ـ التى كان يدعوها بابنته ـ كانت تشبه « مدام دى شانتال » (٢) فى كثير من النواحى ، وكانت خليقة بأن تشبهها ايضا فى اعتزالها الناس ، لولا ان حياة الدير الخاملة كانت بغيضة اليها . ولم يكن عن نقص فى حمية هذه السيدة الطيبة ان عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التى تتطلبها الرهبنة ، والتى كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثةعهد بالعقيدة ، تعيش تحت ارشاد اسقف .. فمهما يكن الباعث الذى اغراها على ان تبدل عقيدتها، فانها كانت صادقةالاخلاص ـ عن يقين ـ للعقيدة الجديدة التى اعتنقتها . ومن المحتمل ان تكون قد ندمت على اقدامها على ذلك، الا ان من الأكيد انها لم ترغب قط فى النكوص، فهى لم تمت على مذهب الكثلكة فحسب، بل انها برهنت خلال حياتها على انها كانت كاثوليكية صالحة . **وانى لاجرؤ ـ وانا الذى يعتقد انه قد اطلع على سريرتها ـ على ان أؤكد ان عزوفها عن ان تبدو فى ثياب التقوى علانية انما كان ناجما عن استبشاعها للتصنع** . كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها ان تظهرها للملأ .. على ان هذا ليس بمجال الحديث عن مبادئها ، فلسوف تسنح لى فرص اخرى للخوض فيها .

وعلى الذين ينكرون تعاطف الارواح ان يفسروا ـ ان استطاعوا ـ كيف ان مدام دى فاران اوحت الى منذ اللقاء الأول ، بل منذ الكلمة الاولى ، والنظرة الأولى ، بثقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها، فضلا عما أوحت الى به من مشاعر الولاء والتعلق . **ولو سلمنا بان احاسيسى نحوها كانت حبا حقيقيا ـ وهو ماسيبدو موضع شك ،على الاقل، لاولئك الذين يتتبعون تاريخ علاقتنا ـ**

(١) اسقف جنيف (١٥٦٧ ـ ١٦٢٢)

(٢) سيدة امتازت بتقواها ، وهى التى اسست نظام راهبات « الزيارة » ، وقد أقر رهبنتها البابا كليمنت الثالث عشر

فكيف تسنى ان يكون هذا الحب منذ بداينه مقترنا بمشاعر قل ان اوحى بها الهوى - وأعنى بذلك طمأنينة القلب ، والسكينة ، والسرور ، والثقة ، والأعتداد ؟ - كيف تسنى اننى عند ما سعيت لأول مرة الى امرأة لطيفة ، مهذبة ، ذات جمال باهر .. الى سيدة ارفع منى مقاما - وما كنت قد خاطبت يوما مثيلة لها - وكان مصيرى ، بطريقة ما،يتوقف عليها ، وفقا لمدى ما قد تستشعره من ميل للأخذ بيدى .. اقول : كيف تسنى - رغم كل هذا - ان اشعر لفورى بانطلاق، وبارتياح تام،وكأننى كنت واثقا كل الثقة من اننى سأروق لها؟ .. كيف تسنى اننى لم أحس - ولو للحظة واحدة - بأية حيرة ، او ارتباك ، أو تحرج ؟.. لقد كنت بطبيعتى خجولا ، سهل الاضطراب ، لا أعرف شيئا من الدنيا ، فكيف تسنى لى منذ اليوم الأول ، بل اللحظة الأولى ، أن اتخذ معها المسلك السهل ، واللغة الرقيقة ،واللهجة الأليفة التى سادت بيننا بعد ذلك بعشر سنوات ، عند ما جعل الود الوثيق هذه الأمور طبيعية؟ . . **فهل من المحتمل ان يحب المرء بدون غيرة-ولست أقول بدون رغبات ، فان هذه كانت متوفرة لدى ! - افلا يرغب المرء فى أن يعرف على الأقل ، من هدف عواطفه ، ما اذا كان حبه يقابل بحب مثله ام لا ؟**.. الواقع انه ما خطر لى فى حياتى أن أوجه اليها هذا السؤال ، ولا أن اسأل نفسى ما اذا كنت قد احببتها !.. كما انها لم تبد فضولا نحوى من هذا القبيل . كان ثمة شىء فذ فى مشاعرى نحو هذه المرأة الساحرة ، ولسوف يصادف القارىء - فى سياق حكايتى - عجائب غير مرتقبة !

كان الموضوع يتعلق بما سوف يصير اليه امرى ، وقد استبقتنى السيدة للغداء كى نتحدث بشأن مستقبلى . وكانت تلك اول مرة فى حياتى تخلت عنى فيها شهيتى ، حتى لقد قالت وصيفة السيدة -التى قامت بخدمتنا على المائدة- اننى كنت اول قادم من سفر ،فى مثل سنى وطبقتى ، رأته فى مثل

هذه الحال. ومع ان هذه الملاحظة لم تنل منى فى نظر سيدتها، الا انها اصابت مرمى فى نفس طفيلى كبير كان يتناول الفداء معنا ، وكان قد التهم وحده ما يكفى ستة افراد ! **اما انا ، فقد كنت فى حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لى سبيلا الى الأكل . كان قلبى يتغذى من شعور جديد على كل الجدة، وقد ملأ كل كيانى ، ولم يدع بنفسى ميلا الى اى شىء آخر !**

ورغبت مدام دى فاران فى ان تعرف دقائق تاريخ حياتى القصيرة ، فاستعدت وانا ارويها كل ما فقدت خلال تتلمذى فى الحرفة من حماسة ومرح . وكنت كلما استثرت اهتمام تلك الروح السامية ، ازدادت هى اشفاقا على مما اعتزمت أن أعرض حياتى له . ولم تجرؤ على ان تنصحنى بالعودة الى جنيف ، فقد كان ذلك ـ بالنسبة لموقفى ـ عملا ينطوى على خيانة للعقيدة الكاثوليكية ، كما انها كانت تعرف تمام المعرفة كيف انها كانت محوطة بالرقابة ، وكيف ان كلماتها كانت توزن بميزان دقيق . على انها حدثتنى بلهجة مؤثرة عن أسى أبى ، حتى لقد كان من السهل ان يرى المرء انها كانت تحبذ عودتى كى أواسيه . ولم تكن تدرى كيف انها كانت تترافع بقوة ضد نفسها ، دون ان تدرى . اذ اظننى قد قلت من قبل ان عقلى كان قد استقر على قرار ، **فكنت كلما ازدادت كلمات السيدة ذلاقة واقناعا ، وكلما ازدادت تغلغلا فى فؤادى، ازددت عجزا عن ان افكر فى الانفصال عنها ! كنت اشعر بأن العودة الى جنيف بمثابة اقامة عوائق لا سبيل الى تذليلها بينى وبين هذه السيدة ، مالم اتشبث بهذه الخطوة التى اتخذتها . ومن ثم ظللت صامدا فى موقفى .** واذ رأت مدام دى فاران ان جهودها غير مجدية ، لم تمعن فى الالحاح، حتى تتفادى احراج نفسها ، بيد انها قالت لى وهى ترمقنى فى اشفاق : « ايها الصغير البائس ، يجب ان تذهب الى حيث يدعوك الله ، ولكنك ستتذكر حديثى عندما تكبر ! » .. واعتقد انها لم تكن تتصور

اذ ذاك مدى القسوة التي قدر لهذه النبوءة ان تتحقق بها !
وكانت المشكلة عسيرة . كيف كان بوسعى ـ وانا فى مثل تلك السن الصغيرة ـ ان اجد موردا للعيش بعيدا عن وطنى؟ .. كنت جد بعيد عن ان اتقن حرفتى وانا لم اكد اتم نصف فترة التعلم والمران .. وحتى لو اننى كنت اتقنها ، فقد كنت خليقا بأن اعجز عن كسب قوتى منها فى اقليم (سافوى) ، لأن الاقليم كان أفقر من ان يجد ما ينفقه على الفنون .. على ان الطفيلى الذى كان يلتهم الأكل ـ نيابة عن السيدة وعنى ـ وجد نفسه مضطرا الى التوقف كى يريح فكيه ، فانتهز الفرصة وقدم اقتراحا قال انه مستلهم من السماء ، وان كان خليقا ـ اذا حكمنا عليه بنتائجه ـ بان يكون مستلهما من مكان اخر مضاد للسماء . وكان الاقتراح يوحى بأن اذهب الى (تورين) حيث اجد عونا روحيا وبدنيا فى دار للضيافة اقيمت للوعظ والتعليم الدينى، الى ان يتاح لى ان انضوى تحت لواء الكنيسة، فاستطيع ان احصل على عمل بفضل اريحية المحسنين .
واستطرد صاحبى قائلا : « اما نفقات رحلته ، فان سيادة الاسقف سيتكرم بلا شك بتوفيرها ، اذا اقترحت السيدة هذا العمل الخيرى عليه. ولامراء كذلك فى ان السيدة البارونة» .
وتابع قوله وهو ينحنى على طبقه : « وهى جد محسنة ، ستتوق هى الأخرى الى المساهمة» . **ووجدت فكرة الاحسان بهذا الشكل جد بغيضة ، فأثقل الألم قلبى ولم أنبس ببنت شفة . أما مدام دى فاران ، فقد اكتفت بان قالت ـ دون ان تتحمس فى قبول الاقتراح ـ ان كل انسان جدير بأن يصنع الخير بقدر مافى وسعه، وانها على استعداد لأن تتحدث الى الأسقف بهذا الصدد** . ولكن صاحبنا اللعين ، الذى لم يكن له فى الأمر شأن يذكر ، والذى كان يخشى ان لا تتحدث السيدة الى الاسقف بالطريقة التى كان يرجوها، سارع الى دعوة المحسنين، وبذل جهده فى اقناع القساوسة ببراعة .. فلما رغبت مدام

دى فاران ــ التى كانت تخشى على من الرحلة ــ فى الحديث الى الأسقف عنها ، وجدت ان كل شىء قد دبر . واسلمها الرجل لفوره النقود التى خصصت لنفقات رحلتى المتواضعة، **فلم تجسر على الالحاح فى بقائى ، اذ كنت اقترب من السن التى لا يليق عندها بامرأة فى عمر السيدة ان تعبر عن رغبتها فى استبقاء شاب معها !**

واضطررت ــ بعد اذ دبرت رحلتى بهذا الشكل ــ الى الانصياع ، بل اننى اقدمت على الرحلة دون احجام . ومع ان (تورين) كانت ابعد من (جنيف) ــ كما قدرت ــ الا انها ، كعاصمة للاقليم ، كانت اوثق اتصالا بانيسى من اية بلدة تابعة لعقيدة مختلفة ، وفى ارض اجنبية . والى جانب اننى كنت مقدما على الرحيل اطاعة لمدام دى فاران، فاننى اعتبرت نفسى باقيا تحت رعايتها ، فكان هذا أهم عندى من ان اقيم على مقربة منها . ثم أن فكرة الانطلاق فى رحلة طويلة اثارت شغفى بالتجوال والترحال ، وهو شغف كان قد بدأ يعلن عن نفسه . **وبدا لى ان من التجارب البديعة ان اعبر الجبال ـ وانا فى تلك السن ـ وان ارفع نفسى عن كل رفاقى بقدر ارتفاع جبال (الألب) .. ان فى مشاهدة مختلف الاقطار لسحراً لا يكاد اى امرىء من ابناء (جنيف) يقوى على مقاومته** . ومن ثم فقد قبلت الرحيل . وكان ذلك الطفيلى مزمعا ان يسافر مع زوجته خلال يومين، فعهدوا بى الى رعايته، كما عهدوا بنقودى ــ التى ضاعفتها مدام دى فاران ــ اليه . على انها منحتنى كذلك مبلغا بسيطا لمصروفى الخاص ، وزودتنى بنصحها .. وفى يوم الاربعاء من « اسبوع الآلام » ، بدأنا سفرنا .

* * *

• **وفى** اليوم التالى لرحيلى ، وصل ابى الى (أنيسى) ــ متعقبا اثرى ــ مع صديقه السيد ريفال ، وهو ساعاتى مثله، موهوب

بل مشحوذ الذكاء ، كان ينظم اشعارا تفوق اشعار «(لاموت)»، ولم يكن يقل ابداعا للكلام عنه بالشعر ، فضلا عن انه كان طيبا فى كل ناحية . بيد ان ميله للأدب - فى غير مجاله - لم يجد عليه من الثمار سوى دفع احدابنائه الى اعتلاء المسرح!.. **ولقد قابل السيدان - ابى وصاحبه - مدام دى فاران ، واكتفيا بأن رثيا لحظى ، بدلا من ان يتبعانى ويستردانى ، وهو أمر كان من اليسير عليهما اداؤه ، اذ انهما كانا يمتطيان جوادين ، فى حين اننى كنت أسير على قدمى !** ولقد حذا خالى «برنار» حذوهما ، فوصل الى (كونفينيون)، ثم ارتد الى (جنيف) بعد ان سمع اننى كنت فى (انيسى) . . وكأنما كان اهلى متحالفين مع نجمى المنحوس على ان يسلمونى الى المصير الذى كان يرتقبنى . ولقد ضاع أخى بفضل اهمال شبيه بهذا ، وكان ضياعه شبه نهائى ، حتى ان أحدا لم يعرف قط ما جرى له !

وما كان ابى رجلا شريفا فحسب ، وانما كان ذا استقامة مشهود بها ، وقد اوتى نفسا من تلك النفوس القوية القادرة على جليل الفضائل . وكان فضلا عن ذلك ابا صالحا،لاسيما بالنسبة لى . فقد كان يحبنى ويخصنى بحنان فياض،ولكنه كان يحب مسراته كذلك، **وقد اكتسب - مذ اصبحت أعيش بعيدا عنه - ميولا أخرى احالت عاطفته الأبوية فاترة بعض الشىء . وكان قد تزوج مرة اخرى فى (نيون) ، ومع ان زوجته لم تكن فى سن تمكنها من ان تمنحنى اخوة ، الا انها كانت ذات أقارب وأهل ، مما خلق لأبى اسرة جديدة ، وأهدافا جديدة، ووسطا جديدا، فلم يعد يكثر من استعادة ذكراى ..** وكان قد اكتهل ، وليس لديه ما يعيش عليه ، ولكنى واخى كنا قد ورثنا عن امنا ثروة بسيطة ، كان من حق ابى ان يحصل على ريعها فى غيابنا . ولم تواته هذه الفكرة مباشرة ، ولا هى حالت بينه وبين اداء واجبه، ولكنها

كانت تتغلغل خفية فى نفسه ، دون ان يفطن اليها ! وقد خففت ــ فى بعض الاحيان ــ من تحمسه الذى كان خليقا بأن يدفعه الى الانطلاق فى تعقب أثرى ، كما حدث عقب رحيلى عن (انيسى) . وهذا ــ فيما اعتقد ــ هو السر فى انه ، وان كان قد سعى الى (انيسى) للبحث عنى فى الواقع ، فانه لم يتبعنى الى (شامبيرى)، حيث كان حريا بأن يعثر على ولابد. وكان هذا هو السر كذلك فى انه كان يستقبلنى عندما أزوره ــ كما صرت أفعل كثيرا بعد فرارى ــ بعناقات الأب وقبلاته، ولكن .. دون ان يبذل اى جهد صادق لاستبقائى معه !

على ان هذا التصرف من جانب ابى ــ الذى كنت اعرف حنانه واستقامته تمام المعرفة ــ قادنى الى تأملات فى حالى، ساهمت بدرجة غير طفيفة فى استبقاء قلبى سليما . فمنها استنتجت الدرس الاخلاقى العظيم ، الذى قد يكون الدرس الأوحد ذا القيمة العملية : تفادى تلك المواقف التى تعترض الحياة ، والتى تدفع واجباتنا الى التضارب مع مصالحنا ، والتى تبصرنا بما قد يكون لنا من نفع فى مصائب الغير .. **فمن المؤكد ــ فى مثل هذه المواقف ــ انه مهما يكن حبنا للفضيلة صادقا ، فلا بد من انه سيأخذ فى الضعف ، دون ان ننتبه الى ذلك ــ ان عاجلا او آجلا ــ حتى يصبح ظالما ، شديدا فى تصرفاته ، وان لم يكف عن ان يظل منصفا طيبا فى اعماق قلوبنا !**

هذا المبدأ الذى انطبع فى قرارة فؤادى ، والذى هدانى ــ وان جاءت هدايته متأخرة ــ فى كل مسلكى فى الواقع ، هو أحد المبادىء التى جعلتنى أبدو مخلوقا شديد الغرابة والحماقة فى نظر العالم ، وفى نظر معارفى قبل سواهم ! ولقد عيب على اننى احاول ان اظهر فذا ، مغايرا لكل من عداى ، والحقيقة هى اننى لم اجشم نفسى قط عناء التصرف على شاكلة غيرى من الناس ، أو على نقيضهم ، وانما كنت اتوق

مخلصا الى ان افعل ما كنت اراه صوابا . فكنت ابتعد ـ بقدر ما فى وسعى ـ عن المواقف التى تجعل مصالحى متعارضة مع مصالح الغير ، والتى قد توحى الى ـ من جراء ذلك ـ برغبة خفية فى ايذاء الغير ، ولو دون ارادة منى ! .. ولقد اراد سيدى اللورد مارشال ان يثبت اسمى فى وصيته ـ منذ عامين ـ فعارضت ذلك بشدة ، وقلت له اننى لا ابغض شيئا فى الدنيا ، قدر ان اعلم ان اسمى مثبت فى وصية أحد ، وفى وصيته هو بالذات . ولقد نزل أخيرا عن رغبته ، ولكنه أصر على ان يمنحنى معاشا مدى الحياة ، فلم أعارض . ولسوف يقال اننى كسبت بهذا التعديل ، وهو قول قد يكون صحيحا ، ولكن .. اواه ايها الأب وايها المحسن ! . اننى لأوقن بأنه اذا قدر لى ـ لتعاستى ـ ان اعيش بعدك ، فاننى سأفقد بفقدانك كل شىء ، ولن اكسب شيئا !

هـذه ـ فى رأيى ـ هى الفلسفة الحقة ، بل الفلسفة الوحيدة التى تناسب القلب البشرى فى الواقع . وانى لأزداد فى كل يوم تأثرا بمتانتها وثباتها ، حتى اننى عرضتها ـ تحت اضواء متعددة ـ فى كتاباتى الحديثة، ولكن الجمهور سطحى الادراك ، لايعنى الا بالقشور ، فلم يدر كيف يستوعبها .
ولو قدر لى ان أعيش ، بعد أن افرغ من مهمتى الحاضرة ، حتى اضطلع بمهمة جديدة ، فاننى أعتزم ان اقدم ـ على غرار مافعلت فى «اميل» (١) ـ مثالا جذابا رائعا لهذه الفلسفة، يضطر القارىء الى ان يعنى به . ولكن .. لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر ، فقد آن لنا ان نواصل الرحلة !

* * *

• **وجدت** الرحلة أبدع مما توقعت ، ولم يكن مرافقى الطفيلى من السماجة بالقدر الذى كان يلوح عليه : كان رجلا

---

(١) يقصد بهذه الاشارة ما أورده فى الخطاب العشرين ، بالجزء الثالث من قصته الطويلة « هيلويز الجديدة »

فى اوسط العمر ، له شعر أسود بدأ الشيب يدب فى حوافه ، وقد بدا كجندى من قاذفى القنابل ، وأوتى صوتا جهوريا.. وكان عارم البشاشة، يغذ فى سيره، ويسرف فى أكله، ويمارس كافة انواع الحرف ، دون ان يجيد شيئا منها . واعتقد انه كان يزمع انشاء مصنع ما فى (انيسى) ، ولم تتخل مدام دى فاران عن تحبيذ فكرته ، وكان لابد له ـ كى يقدم على المحاولة ـ من الحصول على موافقة الوزير ، ولهذا كان فى طريقه الى (تورين) ، مزودا بالمال . وكان صديقنا هذا ذا براعة فى الدس والتآمر ، حريصا دائما على ان يتقرب الى رجال الدين، وبينما كان يبدى تلهفا عظيما على اداء الخدمات لهم ، استطاع ان يقتبس عن مدرستهم اسلوبا وذلاقة ورعتين كان لايفتأ يستغلهما مباهيا بأنه واعظ كبير .. بل انه استطاع ان يحفظ آية من التوراة باللاتينية ، كان لايكف عن ترديدها الف مرة فى اليوم ، فيبدو وكأنه يعرف ألفا منها !.. ونادرا ما كان يعوزه المال اذا ما عرف ان لدى سواه نقودا .. كان بارعا أكثر منه أفاقا ، وكان عندما يردد « كابوشينياته » (١) بلهجة ضابط تدريب المجندين ، يشبه الراهب بطرس (٢) عندما كان يدعو الى الحرب الصليبية ، ملقيا خطبه الدينية وهو ممسك بسيف !.. **اما زوجته ـ السيدة سابران ـ فكانت امرأة طيبة ، اهدأ بالنهار منها بالليل . ولما كنت انام فى حجرتهما ، فان نومها الصاخب كثيرا ما كان يوقظنى، وكان خليقا بأن يستبقينى ساهرا لو اننى علمت سببه ، ولكنى لم اشعر بأتفه ريب ، وقد ادى غبائى فى هذه الناحية الى وقوع عبء تعليمى على الطبيعة وحدها !**

ومضيت فى رحلتى مع مرافقى التقى وزميلته الصاخبة ،

---

(١) خطب وعظات دينية غثة ،كتلك التى كان يلقيها الرهبان « الكابوشان »

(٢) يعتبر بطرس الراهب اهم محرض على شن الحملة الصليبية الاولى ، وكان يطوف بقرى اوربا على ظهر بغلة ، ويخطب فى الناس ممسكا سيفا ، ويتخذ من الغيرة الدينية وسيلة لتحريك الأحقاد

دون ان تعكر صفو سفرى اية بادرة . كنت أسعد ، بدنيا وذهنيا ، مما كنت طيلة عمرى . كنت فتى قويا ، موفور الصحة ، خلوا من الهم ، مفعما بالثقة فى نفسى وفى الغير . كنت أستمتع بتلك الفترة الغالية – رغم قصرها – من الحياة . . اللحظة التى تنبسط فيها الحياة على سعتها ، فتتضخم من شعورنا بكل حواسنا واحاسيسنا ، وتجمل الطبيعة فى ابصارنا ، اذ تبديها تحت سحر وجودنا!. . وكان قلقى البهيج يخضع لهدف يقيد من حدته ، ويسكن من خيالى . كنت انظر الى نفسى كصنيعة وتلميذ وصديق ، بل وحبيب – تقريبا – لمدام دى فاران . **كانت الأمور المؤدبة التى حدثتنى بها ، واللطف البسيط الذى خصتنى به ، والاهتمام الحنون الذى لاح انها أولتنيه ، ونظراتها الودية التى بدت لى وكأنها مليئة بالحب – اذ انها كانت تلهمنى هذا الشعور ! – كل هذه الأمور شغلت افكارى خلال الرحلة ، واغرقتنى فى احلام لذيذه لم يكن يعكرها أى خوف أو شك بشأن مستقبلى .** فقد رأيت انهم – اذ اوفدونى الى تورين – قد تكفلوا بأن يعولونى هناك ، وان يحصلوا لى على مركز مناسب . لذلك شعرت بأننى فى غير حاجة الى ان أحمل هم نفسى بعد ذلك ، فقد حمله عنى سواى . ومن ثم مضيت فى سفرى بخطى خفيفة بعد أن تخلصت من هذا العبء . كان كل شىء يلوح لى وكأنه يعزز سعادتى المبكرة . وكنت بين الجدران اصور لنفسى المآدب والحفاوات الريفية . . وفى المروج أصور لنفسى الالعاب الخشنة . . وعلى ضفاف الانهار : السباحة والنزهات وصيد السمك . . وفوق الشجر : الفواكه الشهية . . وتحت ظلالها : الخلوات العاشقة . . وعلى الجبال : دلاء مترعة باللبن والقشدة ، وخمول حبيب وسكينة وبساطة ، ومتعة الانطلاق دون ما غاية !. . وقصارى القول انه لم يكن ثمة ما يصادف بصرى دون ان يبعث فى فؤادى شيئا من الافتتان الممتع !. . كانت

فخامة المناظر المحيطة بى ، وتنوعها، وجمالها الحقيقى، تجعل تلك الفتنة أهلا للتدبر والتأمل . بل ان الغرور كان يطالب لنفسه بنصيب فى ذلك ، **فقد لاح لى شرفا يفوق ما يؤهلنى له عمرى ان أزور ايطاليا ـ وانا لا أزال صغيرا ـ وان أرى مثل هذا القدر من الدنيا ، وان اقفو اثر ((هانيبال)) عبر الجبال !.. وكنا ـ الى جانب ذلك ـ كثيرا ما نقف بالفنادق الريفية الجيدة . وكانت شهيتى متفتحة للأكل ، كما كان ارضاؤها متوفرا بكثرة .** والواقع اننى لم أجد داعيا لأن احرم نفسى شيئا ، لاسيما وان واجباتى لم تكن بالشىء الذى يذكر اذا قورنت بوجبات السيد سابران !

ولست اذكر خلال حياتى كلها وقتا حظيت فيه بتحرر تام من الهم والقلق كما تحررت فى الأيام السبعة أو الثمانية التى استغرقتها رحلتنا ! فان مقدرة السيدة سابران على السير ــ وهى المعدل الذى كنا مضطرين الى ان ننظم خطانا وفقا له ــ جعلت الرحلة تجاوز نزهة طويلة على الأقدام ! ولقد خلفت لى ذكرى هذه المناسبة ميلا شديدا الى كل شىء كان مرتبطا بها ، لا سيما الجبال والسير على الأقدام . فما سبق لى ، فى الأيام السالفة من عمرى ، ان سافرت على قدمى .. فضلا عن ان سفرى هذا كان مقترنا بأعظم المسرات ، ذلك لأن الواجبات والاعمال وكثرة الامتعة ، اضطرتنى فيما بعد الى ان اتخذ دور السيد الراقى ، وأن استقل عربة فى اسفارى . كما ان الهموم والارتباكات والشواغل المضة لم تلبث ان تسربت الى، فغدا كل همى فى رحلاتى متجها الى بلوغ غايتى ، بعد ان كنت لا اكترث بشىء سوى الاستمتاع بالسفر ! . **ولقد قضيت وقتا طويلا أحاول ان اعثر على رفيقين اوتيا مثل ميولى بحيث يقبلان ان ينفقا خمسين ((لوى)) (١) من مالهما ، وعاما من**

---

(١) « اللوى » عملة فرنسية قديمة كانت تساوى عشرين فرنكا

وقتهما ، فى الترحال معى على الاقدام، لنجوس خلال ايطاليا ، دون ان نصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا . ولقد بدا على الكثيرين الافتتان بالفكرة ، ولكنهم لم يكونوا يرونها ـ فى الواقع ـ اكثر من وهم يطيب الحديث عنه ، دون اى تفكير فى تنفيذه ! وانى لأذكر ان «ديديرو» و«جريم» ـ اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة ـ قد تحمسا لها فى النهاية ، فخيل الي ان الأمر قد استقر، ولكنه انتهى الى ان قمنا برحلة على الورق ، لم يجد فيها « جريم » من السرور اكثر من ان يجعل «ديديرو» يرتكب عددا من الأخطاء الالحادية، ثم يسلمنى الى التحقيق بدلا منه ! (١)

* * *

• لم يخفف من أسفى لسرعة الوصول الى (تورين) سوى سرورى برؤية مدينة كبيرة ، والأمل فى ان يقدر لى ان أقوم بدور يليق بشخصى ، اذ كانت ابخرة الطموح قد بدأت تتصاعد فى مخى ، واصبحت ارى اننى قد سموت ـ الى ما لانهاية ـ فوق حالى السابقة ايام كنت اتتلمذ للحرفة .. وكنت ابعد من ان اظن ـ مجرد ظن ـ انه قد كتب لى ان اهوى ، فى امد وجيز ، الى ما دون تلك الحال !.. على ان من واجبى ان اسأل القارىء الصفح ، أو ان أبرر له ـ قبل ان أمضى فى قصتى ـ تلك التفصيلات التافهة التى خضتها ، أو التى سأخوضها فى سياق القصة ، والتى قد تبدو فى نظره عديمة القيمة .. فان المهمة التى آليتها على نفسى ـ اذ وعدت بأن اكشف نفسى للملأ على حقيقتها ، دون ما تحفظ ـ تتطلب عدم ابقاء شىء يتعلق بى فى طى الابهام أو الخفاء ، وان ادع نفسى تحت أبصار الملأ باستمرار ، حتى يصحبونى فى كل هفوات قلبى ، وفى كل

(١) يقصد روسو ان الرحلة لم تخرج عن نطاق الورق والقلم والانطلاق فى الخيال ، بحيث غدت قصة وهمية

الأركان الخفية فى حياتى ، فلا اغيب عن اعينهم لحظة واحدة، خشية ان يتساءلوا لو انهم عثروا فى روايتى على اضأل ثغرة ، أو اتفه فراغ : ((ما الذى كان يفعله خلال ذلك ؟)) .. فلا يلبثون ان يتهمونى بأننى غير راغب فى ان افضى بكل شىء . وان ما اكتبه ليعرضنى لغضب الجنس البشرى بما فيه الكفاية، دون ما حاجة لأن أعرض نفسى ـ بصمتى ـ لمزيد !

وكان مصروفى الخاص الضئيل قد نفد ، اذ كنت فى ثرثرتى قد تحدثت عنه ، فلم يتوان مرشداى عن استغلال عدم حرصى ، واستطاعت مدام سابران ان تحصل منى على كل ما كان معى .. حتى على قطعة صغيرة من شريط مكسو بالفضة كانت مدام دى فاران قد منحتنيها لأزين بها سيفى

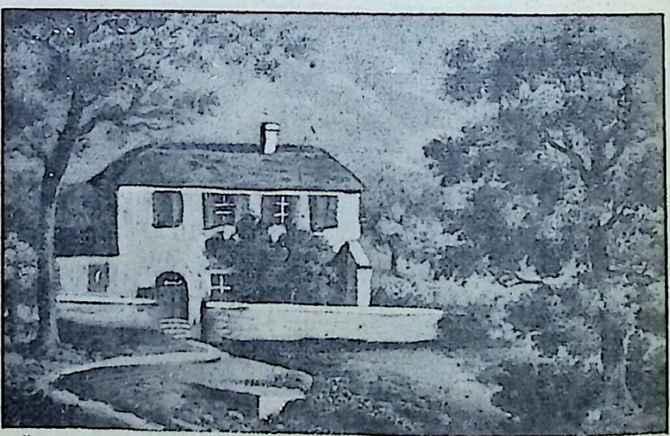

دار مدام دى فاران الدائنه فى ضيعتها المشهورة «ليه شارميت»، التى شهدت أيام «روسو» الخالدة فى كنفها . وقد صارت منذ ذلك الحين مزارا يحج اليه أدباء العالم ومفكروه !

الصغير . وكانت حسرتى عليها اشد منها على اى شىء آخر. بل ان السيف ذاته كان خليقا بأن يبقى فى حوزتهما لو اننى تهاونت فى مقاومتى . ولقد تكفلا بنفقاتى ــ فى اثناء الرحلة ــ بأمانة ، ولكنهما لم يدعا لى فى الوقت ذاته شيئا .. فبلغت (تورين) بلا ثياب ولا مال ولا متاع ، وغدوت مضطرا الى ان ادع لمواهبى وحدها شرف الحظ الذى كنت أرجو ان أحظى به!

وكنت مزودا ببعض خطابات قدمتها ، فسرعان ما اقتدت الى نزل الوعاظ ، حيث بدات اتعلم الدين الذى كان على أن أكسب به عيشى!.. ورأيت عند وصولى بابا ضخما ذا قضبان حديدية ، اغلق خلفى ــ واحكم رتاجه ــ بمجرد ان اجتزته . وبدت لى هذه المقدمة منفرة اكثر منها مقبولة . وكانت قد بدات تغذينى بالخواطر عندما اقتدت الى غرفة رحبة الجوانب، كان كل اثاثها عبارة عن هيكل خشبى يعلوه صليب كبير ــ فى نهاية الحجرة ــ وقد قامت أمامه اربعة أو خمسة مقاعد صنعت هى الأخرى من الخشب ، ولاحت كأنها مصقولة خصيصا ، فى حين انها انما كانت تلمع من كثرة الاستعمال والمسح والاحتكاك. وفى هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات ، كان ثمة اربعة او خمسة من الاشرار الرهيبين .. اولئك كانوا رفاقا من الطلبة الذين لاحوا لى وكأنهم من الزبانية وليسوا من الطامعين فى شرف ان يصبحوا ابناء للرب . وكان اثنان من هؤلاء الأوغاد من «السلافيين» الذين يزعمون انهم من اليهود او المراكشيين ، وقد اعترفا لى بأنهما قضيا عمريهما فى التجوال فى ربوع اسبانيا وايطاليا ، وانهما كانا يعتنقان المسيحية من آن لآخر ويتقدمان كى يعمدا اينما كان يحلو لهما ان يقضيا بعض الوقت !

وما لبث ان فتح باب حديدى آخر ، فشطر شرفة رحبة تمتد بطول الفناء . واقبلت خلال هذا الباب أخواتنا . كن من التلميذات اللائى قدر لهن ــ كما قدر لى ــ ان يولدن من جديد، لا عن طريق التعميد ، وانما عن طريق نبذ عقيدتهن السابقة ،

وكن حقا أعظم أفاقات وابشع متشردات لطخن زمرة رعايا الرب . **على ان واحدة منهن فقط لاحت لى جميلة وجذابة ، وكانت فى حوالى عمرى ، أو ربما كانت تكبرنى بعامين او ثلاثة . وقد اوتيت عينين جريئتين اخذتا تلتقيان بعينى أحيانا ، فألهمنى**

هذا برغبة فى التعرف بها ، ولكنى وجدت خلال الشهرين اللذين قضيتهما فى النزل بعد وصولى ــ وكانت قد مكثت ثلاثة اشهر قبلهما ــ ان من المستحيل اطلاقا ان اتحدث اليها ، فقد كانت حارسة سجننا العجوز مأمورة بأن تشتد فى رعايتها ، كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشر الدينى الذى كان يبذل مزيدا من الحماس والجهد لتحويلها عن عقيدتها . ولا بد انها كانت مفرطة الغباء ، وان لم تكن تبدو كذلك ، اذ ان تلقين العقيدة لم يكن يستغرق قط مثل هذا الوقت الطويل ، فقد كان رجل الدين يجدها دواما غير متأهبة لاعلان خروجها عن عقيدتها السابقة . على انها مالبثت أن ملت عزلتها عن العالم ، فأعلنت عن رغبتها فى ترك النزل ، سواء صارت مسيحية أو لم تصر . واضطروا الى أن يكتفوا باعلان انضوائها للكثلكة ــ دون ان تعى تعاليمها ــ خشية ان يتولاها العناد فترفض !

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعا لتكريم الداخلة الجديدة

فى حظيرة الدين . والقى علينا خطاب قصير ، وجه الى فيه الحض على ان استجيب لفضل الله الذى أتيح لى ، بينما دعى الآخرون الى ان يصلوا من اجلى ، وان يشجعونى بأن يكونوا قدوة لى . وعادت عذارانا ـ بعد ذلك ـ الى معزلهن ، وانفسح امامى الوقت كى أفكر مذهولا فى موقفى على ضوء هوى قلبى . ثم اجتمعنا فى الصباح التالى مرة اخرى لنتلقى الدرس ، واذ ذاك بدأت ـ لمرة الاولى ـ أفكر جديا فى الخطوة التى كنت مزمعا اتخاذها ، وفى الظروف التي قادتنى الى ذلك !

ولقد قلت ـ ولا ازال أقول ، ولعلنى سأظل اردد وانا ازداد كل يوم اقتناعا ـ بأنه اذا كان ثمة طفل قد تلقى تربية معقولة سليمة ، فهذا الطفل هو أنا ! فقد كنت انتمى الى اسرة امتازت باخلاقها عن عامة الناس ، فما تعلمت من اقاربى سوى دروس الحكمة ، وكنت دائما ارى امام عينى أمثلة مشرفة . فلقد كان ابى ـ رغم ولعه باللهو ـ رجلا شديد الاستقامة ، ليس هذا فحسب ، بل انه كان ايضا على قدر كبير من الشعور الدينى . كان رجلا ذا شهامة فى شئون الدنيا ، ومسيحيا فى قرارة فؤاده ، وقد بث فى قلبى منذ الصغر ما كان يخالجه من احاسيس . وكذلك أفدت من عماتى الثلاث ، اللائى كن جميعا عاقلات فاضلات ، فقد كانت الكبريان منهن تقيتين ، اما الصغرى ـ وكانت فتاة فياضة الحسن والذكاء والذوق ـ فلعلها كانت أكثر منهما تقوى ، وان لم تكن تبدى تقواها الا لماما . ومن حضانة هذه الاسرة ، انتقلت الى السيد لامبرسييه الذى كان واعظا ومن رجال الدين ، ومع ذلك فانه كان مؤمنا فى قرارة قلبه ويكاد يمارس دائما كل ما يعظ به ! ولقد عمل واخته ـ بالرفق والتعليم الحكيم المتئد ـ على تنمية ما وجدا فى فؤادى من مبادىء التقوى . ولقد استخدم هذان الشخصان الكريمان فى سبيل غايتهما هذه وسائل صادقة ، حكيمة ، معقولة ، دون ان يملا الوعظ والتعليم . وكنت دائما اتأثر بهذا الجهد منهما ،

واتخذ قرارات طيبة ،نادرا ماكنت أغفل تنفيذها عندما اذكرها. أما فى حالة عمتى برنار ، فان تقواها كانت منفرة لى بعض الشىء، لأنها كانت تتخذ منها حرفة وصنعة. على اننى نادرا مافكرت فيها اثناء مدة تدريبى الحرفى دون ان اغير هذا الرأى .. **كذلك لم اتصل قط بأى شخص فى باكورة العمر يمكن ان يفسدنى ، ومع اننى غدوت شريدا ، الا اننى لم اكن قط منحلا !**

وكنت ، من جراء هذا ، اعرف من الدين كل ما يمكن لطفل فى سنى ان يعرفه . بل اننى كنت أعرف اكثر من ذلك ـ اذ لا جدوى من أن أكتم خواطرى ! ـ فان طفولتى لم تكن شبيهة بطفولة أندادى ، بل اننى كنت دائما أشعر وافكر كما يشعر الرجل ويفكر ! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين الا عندما كبرت ، ولكنى لم اكن فى طفولتى عاديا ! ولسوف يضحك القارىء اذ يجدنى أصف نفسى ـ متواضعا ـ كشخص ممتاز. فليكن ! ولكن ليتصور ـ اذا ما فرغ من الضحك ـ طفلا فى السادسة من عمره بلغ به الافتتان بالقصص الخيالية والاستساغة لها والتأثر بها ، درجة تجعله يذرف الدمع سخينا عليها ! .. اذا استطاع القارىء ان يتصور هذا ، فسأشعر بأن غرورى كان سخفا ، وسأعترف بأننى مخطىء ! واذا كنت اقول اننا جديرون بأن لا نحدث الاطفال عن الدين ـ اذا شئنا لهم ان يعتنقوا اى دين ـ بل اذا كنت اذهب الى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله ، ولو وفقا لآرائنا فيه ، فانما انا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهداتى ، وليس من خبرتى الخاصة ، **اذ اننى ادرك ان ليس بين النتائج التى تستمد من خبرتى مايصلح لغيرى من الأطفال . والا فاصنعوا منهم جان جاك روسو كذلك الذى كنته فى السادسة من عمرى ، وتحدثوا اليهم عن الله اذا ما بلغوا السابعة ، واذ ذاك اطمئنكم الى انكم لن تتعرضوا لأية مجازفة !**

واعتقد ان من المسلم به ان التدين لدى الطفل ـ بل ولدى

الرجل ـ يعنى اتباع الدين الذى ولد عليه . ولكن هذا الايمان قد يتضاءل احيانا ، ونادرا مايقوى . . فالايمان الأعمى من ثمار التربية . والى جانب هذا المبدأ العام الذى ربطنى بعقيدة آبائى الدينية ، فاننى اوتيت ذلك النفور الذى امتازت به قريتنا اراء الكاثوليكية ، والذى كان يصورها على انها وثنية رهيبة ، ويلطخ قساوستها بأشد الألوان قتامة ! ولقد بلغ من شدة هذا الشعور فى نفسى ، اننى ـ فى البداية ـ لم اشهد قط جوف اية كنيسة ، ولا قابلت قسا فى زى الكهنوت ، ولا انصت اطلاقا الى جرس جنائزى ، الا وسرت فى جسدى قشعريرة خوف وفزع ، لم تلبث ان زايلتنى فى المدن ، ولكنها كانت كثيرا ما تعاودنى فى أبرشيات (١) الريف ، لأنها اكثر شبها بتلك التى واتانى فيها هذا الشعور فى البداية . ومن الصحيح ان هذا الاثر يتناقض ـ بشكل بارز ـ مع ذكريات العطف الذى كان قساوسة ضواحى جنيف مولعين باسباغه على اطفال المدينة . **وبينما كان الجرس الذى يعلن الراحة الكبرى ـ الموت ـ يفزعنى ، كان جرس القداس وصلوات الغروب تذكرنى بالفطور ، واللقاء حول المائدة ، والزبد الطازجة ، والفاكهة ، والغذاء المخلوط باللبن ! . . ولا يزال عشاء السيد بونفير الشهى يحدث فى نفسى أثرا عظيما !**

* * *

• **على اننى** اقصيت كل تلك الخواطر من ذهنى ، واقبلت ـ وانا انظر الى البابوية من ناحية علاقتها بالتسلية وطيب الحياة فقط ـ على ترويض نفسى على فكرة العيش فى غمرة الكثلكة ، بيد ان فكرة الانضواء نهائيا تحت لواء كنيسة روما كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالى الا لحظة ، وكاحتمال للمستقبل البعيد . أما فى الفترة التى انا بصددها ، فلم يعد بوسعى ان اغرر بنفسى ، بل تبينت فى جزع نوع القبول الذى

(١) الدوائر التابعة للكنائس الريفية

قطعته على نفسى ، وما يترتب عليه من نتائج لا محيد عنها . ولم يكن لرهبان المستقبل المبتدئين ، الذين كانوا حولى ، حساب فى تعزيز شجاعتى ، **ولا كان فى طوقى ان اخفى عن نفسى ان العمل المقدس الذى اعتزمت الاضطلاع به كان فى الحقيقة نوعا من السرقة ! ذلك لاننى شعرت ، رغم صغر سنى اذ ذاك ، بأنه أيا كان الدين الحق بين العقائد ، فاننى كنت مقدما على بيع عقيدتى .. واننى وان كنت قد اخترت عقيدة طيبة ، الا اننى كنت – فى قرارة فؤادى – أكذب على الروح القدس واستحق ازدراء البشر !** .. ولقد كنت أزداد سخطا على نفسى كلما ازددت تفكيرا فى ذلك ، وكنت ازفر حسرة على المصير الذى ساقنى الى هذه الطريق ، وكأنما لم يكن المصير من صنعى انا ! وكانت تمر بى لحظات تشتد فيها هذه الخواطر ، الى الدرجة التى كانت خليقة بأن تجعلنى أفر بكل تأكيد ، لو اننى كنت قد ألفيت الباب مفتوحا لحظة ! ولكن هذا كان مستحيلا ، كما ان عزمى لم يكن بالقوة الكافية . فكم من رغبات خفية صارعتها لئلا تتغلب على .. ثم ان تصميمى الثابت على عدم العودة إلى جنيف ، والاستحياء ، وصعوبة اجتياز الجبال ثانية ، والحيرة التى انتابتنى اذ وجدت نفسى نائيا عن بلدى ، بلا اصدقاء ولا موارد .. كل هذه المشاعر اجتمعت على ان تجعلنى ارى فى وخزات ضميرى ندما جد متأخر . لقد كنت أتعمد ان ألوم نفسى على ما فعلت ، لكى أجد العذر فى اتيان ما أوشك ان افعله ! وبينما كنت اضخم اخطاء الماضى ، رحت اعتبر اخطاء المستقبل نتائج محتومة لها .. فبدلا من ان اقول لنفسى : « انك لم تأت الفعل بعد ، وفى وسعك ان تظل بريئا ، اذا شئت » ، رحت اقول : « اندم على الجرم الذى ادانتك نفسك به ، وفرضت على نفسك ضرورة تنفيذه » !

اية قوة ذهنية خارقة كان لا بد منها ، فى مثل سنى تلك ، لأذكر كل شىء وعدت به أو رجوته اذ ذاك ، من أجل تحطيم

الاغلال التى فرضتها على نفسى ، ولكى اعلن فى جرأة اننى كنت راغبا ، مهما يبلغ ما اتكبده ، فى أن أظل معتنقا دين آبائى !.. مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لامرىء فى سنى ، وما كان من المحتمل تماما ان تنجح ، اذ ان الامور كانت قد تطورت الى مدى لم يعد معه اخفاق هذه القوة امرا يدعو الى الخجل.. وكانت تزداد [illegible]را كلما ازددت مقاومة ، حتى عز على ان أقهرها !

وكانت السفسطة التى قضت على هى ذلك المنطق الفلسفى المألوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة الى القوة بعد ان يكون اوان الانتفاع بهذه القوة قد فات . **فالفضائل لا تغدو عسيرة المنال الا بفضل اخطائنا ، ولو اننا استطعنا ان نتمسك دائما بالحكمة والروية ، لندرت حاجتنا الى الجرى وراء الفضائل . ولكن الميول المنحرفة التي يسهل قهرها تتعجل انحدارنا لأننا لا نقاومها .** ونحن ننساق لغوايات طفيفة ، ازدراء منا لخطرها ، كما اننا نقع — دون ان نفطن — فى مآزق خطيرة كان من اليسير علينا ان نتوقاها ، ولكنا — متى وقعنا فيها — لا نستطيع ان ننتزع انفسنا منها دون جهد مستبسل يضنينا .. وفى النهاية نهوى الى الدرك الأسفل ، ونحن نلوم الله ، ويسأله كل منا فى عتاب : « لماذا خلقتنى ضعيفا بهذا الشكل ؟ » .. ولكنا — على الرغم من انفسنا — **نسمع ضمائرنا تجيب بلسانه : « انما خلقتك أضعف من ان تقوى على انقاذ نفسك من الهوة ، لاننى خلقتك أقوى من ان تسقط فيها »** !

والواقع اننى لم اكن قد عقدت العزم تماما على ان اصبح كاثوليكيا ، ولكنى استغللت الفرصة ، وانا ارى الوقت امامى متسعا ، لكى اروض نفسى على هذه الفكرة تدريجا . وكنت اتمنى فى الوقت ذاته ان تحدث ظروف غير منتظرة تنتزعنى من هذا المأزق . ولكى أكسب الوقت ، قررت ان اتخذ خير ما كان فى طوقى من اساليب الدفاع ، ولكن غرورى سرعان

ما اعفانى من التفكير فى قرارى هذا ، فما ان تبينت اننى كنت احيانا أحير اولئك الذين كانوا راغبين فى ان يعلمونى ، حتى وجدت فى هذا مايكفى لأن اسعى الى ان اضاعف من حيرتهم حتى اعجزهم جميعا ! بل اننى اخذت ابدى شوقا اهوج الى تحقيق هذه الغاية ، وبينما كانوا يحاولون التأثير على ، رحت بدورى أحاول التأثير عليهم ! وكنت اوقن حقا بأن الأمر لن يكبدنى اكثر من ان اوذق الى اقناعهم ، فاذا هم ينقلبون الى بروتستانتيين !.. وكان من جراء ذلك ، انهم لم يجدوا فى من الانسياق لهم قدر ماكانوا يتوقعون، سواء من حيث معرفتى او من حيث استعدادى ورغبتى. **والبروتستانت ــ عادة ــ أفضل تعليما من الكاثوليك. وهو امر طبيعى ، لأن عقيدة الأولين تدعو الى النقاش ، فى حين ان عقيدة الآخرين تتطلب الانصياع . فالكاثوليكى مضطر الى ان يعتنق الرأى الذى يقدم اليه ، اما البروتستانتى فلا بد من ان يتعلم كيف يقرر بنفسه الرأى الذى يعتنقه !** .. وقد كان هذا امرا معروفا ، ولكن احدا لم يكن يتوقع ان يثير فتى فى مثل سنى وموقفى مصاعب لافراد ذوى خبرة وتجارب . فضلا عن اننى لم اكن قد تلقيت اول «مناولة» (١) ، ولا لقنت التعاليم الخاصة بها . وكان هذا أمرا معروفا كذلك ، ولكن الشىء الذى لم يعرفوه هو اننى تعلمت على يدى السيد لامبرسييه واخته ، واننى ــ فضلا عن ذلك ــ كنت اختزن ثروة لا تروق لأولئك السادة ، من المعرفة بتاريخ الكنيسة والامبراطورية . فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب اثناء مقامى مع ابى ، ثم نسيته

---

(١) فريضة « المناولة » أو فريضة « الاشتراك فى العشاء الربانى » هى من اهم الفرائض والأسرار المقدسة التى تركها المسيح لتلاميذه واتباعه ، لكى يذكروه بها كلما مارسوها . وهى تقوم على تناول خبز مكسور ، رمزا الى جسد المسيح المصلوب ، وعلى تناول جرعة من عصير عنب مختمر ، رمزا لدم المسيح المسفوك على الصليب . وكل الكنائس المسيحية تمارس « المناولة » الى وقتنا الحاضر

تقريبا بعد ذلك ، ولكنه أخذ يعود الى ذاكرتى كلما اشتد وطيس الجدال !

وراس الاجتماع الأول — الذى ضمنا جميعا — قس كبير السن ، صغير الجسم ، على شىء من الوقار والمهابة . وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائى درسا فى الدين ، وليس مجالا للمنافسة . ومن ثم فقد شغل القس بتعليمهم لا بمحو اعتراضاتهم . على ان الوضع تغير فى حالة واحدة : فعندما حان دورى رحت استوقف القس عند كل نقطة ، ولم اعفه من اية عقبة كان بوسعى ان القيها فى طريقه ، فأطال هذا من وقت الاجتماع وجعله مملا للحاضرين . وأسهب قسى الشيخ فى الكلام ، وبدأ انفعاله يزداد ،واخذ يشرد عن موضوعه ، ويخرج من المأزق بادعاء انه لم يكن يجيد الفرنسية ! فلما كان اليوم التالى ، رؤى ان اعتراضاتى الرعناء قد تؤذى رفاقى ، فوضعت فى حجرة اخرى ، مع قس آخر كان أصغر سنا من قس الأمس ، واكثر ذلاقة لسان — اعنى انه كان يجيد التلاعب بالعبارات — واعظم رضى عن نفسه مما يجوز لأى مدرس ! .. **على اننى لم ادع نفسى تنصاع لمسلكه المتسلط ، وما ان اطمأننت الى ان بوسعى — رغم كل شىء — ان احتفظ بموقفى ، حتى شرعت أجيبه فى ثقة وطيدة ، واضغط عليه من كل جانب بغاية جهدى !**

.. وخيل اليه ان بوسعه ان يحيرنى بذكر القديس اوغسطين ، والقديس جريجورى ، وغيرهما من الآباء الروحيين ، ولكنه لدهشته التى فاقت كل تصور ، وجد اننى اجيد الجدال بشأن الآباء جميعا باسهاب لا يقل عن اسهابه ، لا لأننى كنت قد قرات عنهم من قبل — كما قرأ هو — وانما لأننى كنت اتذكر فقرات عديدة من كتاب دينى عن مجاهدة النفس ، فما ان كان القس يذكر فقرة منه دون ان يتوقف لمناقشتها ، حتى كنت أجيبه بفقرة أخرى من اقوال الأب نفسه الذى نقل عنه ، مما سبب له ارتباكا غير قليل ، فى كثير من الأحيان ! ومع ذلك فقد انتهى

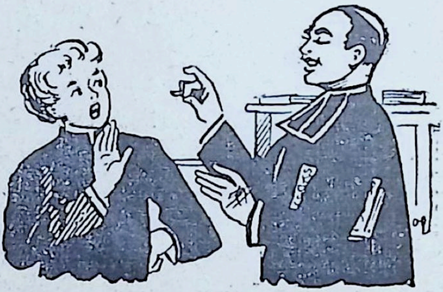

الأمر الى فوزه ، وذلك لسببين : اولهما انه كان الأقوى جانبا. ولما كنت اشعر بأننى تحت رحمته ، فقد حكمت عن صواب — رغم صغر سنى — بأنه ليس من الصواب ان احرجه ، اذ ان هذا قد يدفعه الى التطرف ، سيما بعد ان رايت بجلاء ان القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف على او على تعليمى ! .. والسبب الثانى هو ان القس الشاب كان متعلما ، فى حين اننى لم اكن متعلما ، الأمر الذى جعله يستخدم فى نقاشه اسلوبا عز على ان اجاريه فيه ، فكان اذا احس بنفسه محرجا تحت ضغط اعتراض غير ظاهر ، يرجىء الاجتماع الى اليوم التالى ، متعللا بأننى كنت اشرد عن الموضوع . وكان فى بعض الاحيان يأبى ان يصدق ما كنت اذكره من اقوال مقتبسة ، زاعما انها مصطنعة زائفة ، ثم يتحدانى ان ارشده الى مواقع هذه المقتبسات من الكتب ، وهو مطمئن الى انه لن يتعرض لكثير من الحرج ، لأننى رغم علمى المستعار لم أكن ذا خبرة كافية للبحث فى الكتب ، ولم أكن من الدراية باللاتينية الى الدرجة التى تمكننى من البحث عن فقرة فى مجلد كبير ، مهما اكن متاكدا من وجودها فيه ! .. وكنت من ناحيتى اذهب الى الشك فى ان القس الشاب كان يعمد الى عين ما اتهم به قساوستنا من خداع وعدم امانة ، والى افتراء الفقرات ليوسع لنفسه مخرجا

من مأزق اكون قد اوقعته فيه !

* * *

• **وبينما** كانت هذه المجادلات العارضة حول التوافه مستمرة، والوقت يمضى فى نقاش ، وتمتمة وصلوات ، دون ما عمل ، تعرضت لمغامرة صغيرة مستهجنة ، اوشكت تماما ان تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لى ! ذلك انه ما من نفس خبيثة ، ولا قلب همجى ، الا ر.. ـاحبهما ميل ما . وقد ساورت احد الشقيين اللذين كانا يزعمان انهما مراكشيان عاطفة نحوى ، فكان مشغوفا بمتابعتى ، لا يفتأ يكلمنى بلكنته الغريبة ، ويؤدى لى بعض الخدمات البسيطة ، ويمنحنى فى بعض الأحيان شطرا من غذائه، بل وكثيرا ما كان يقبلنى فى حرارة كانت تغيظنى ! وعلى الرغم من الجزع الطبيعى الذى كان يتملكنى من وجهه الاسمر المشوه بندبة طويلة ، ومن ملامحه التى كانت تبدو أقرب الى الشراسة منها الى اللطف ، فاننى كنت احتمل قبلاته ، قائلا لنفسى : « لقد تملكت المسكين صداقة طاغية نحوى ، فمن الخطأ أن أصده ! » .. ولكنه اخذ ــ بالتدريج ــ يستبيح لنفسه حرية متزايدة معى ، وكان احيانا يعرض على اقتراحات غريبة ، جعلتنى اظنه مجنونا .. **واراد فى احدى الليالى ان يبيت معى ، فرفضت قائلا ان سريرى جد صغير ، واذا به يلح على أن أصحبه الى سريره ، ولكنى رفضت من جديد ، اذ كان الوغد جد قذر ، تفوح منه رائحة الطباق الذى كان يمضغه ، بحيث كانت نفسى تغثى منه !**

وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى كنا وحيدين فى قاعة الاجتماع ، فشرع يعانقنى ويقبلنى فى حركات عنيفة لم تلبث ان اثارت خوفى . واخيرا ، شاء ان يستبيح لنفسه ابشع تحرر منى ، وأمسك بيدى محاولا ان يحملنى على أن أستبيح نفس التحرر معه ! فأرسلت صرخة عالية ، وقفزت الى الخلف مفلتا

منه . وبدون ان ابدى غضبا أو حنقا ـ اذ لم تكن لدى اتفه فكرة عما كان يسعى اليه ـ اعربت له عن دهشتى وازدرائى بشكل جعله يتركنى حيث كنت . ولكنى رأيت ـ بينما كان ماضيا فى اتمام الحركات التى كان قد بدأها ـ شيئا ابيض لزجا ينبثق منه مندفعا فى اتجاه المدفأة ، ثم سقط على الارض، فأثار مظهره معدتى ، واندفعت الى الشرفة وانا اشد تأثرا ، واشد انزعاجا ، وأشد خوفا مما كنت فى اى يوم فى حياتى ، حتى لقد شعرت اننى اوشك ان اقع مريضا !

ولم يكن بوسعى ان افقه ما اصاب التعس ، بل اعتقدت انه اصيب بنوبة من الصرع ، او بنوع من الجنون اقسى من الصرع! والحق اننى لا اعرف ما هو أبشع لدى اى شخص هادىء الاعصاب ، من رؤية مثل هذا المسلك المشين القذر ، ولا مثل تلك الملامح التى ألهبتها الشهوة البهيمية ! .. وما رأيت قط رجلا آخر فى مثل هذه الحال ، ولكن اذا كنا نتعرض لهذا المشهد ونحن مع النساء ، فلا بد ان نظراتهن تخضع لسحر خاص ، يحميهن من ان يشمأززن منا !

وهرعت لأنبىء كل امرىء بما جرى لى ، ولكن المشرفة العجوز امرتنى بأن أعقل لسانى ! على أننى رأيت ان قصتى قد أثرت عليها بدرجة كبيرة ، وسمعتها تتمتم : ((يا له من كلب لعين !.. وحش كاسر !)) .. ولما كنت لم ادرك الحكمة فى ان امسك لسانى ، فقد مضيت فى اخبار كل شخص بما حدث ، رغم امرها ، فاذا بأحد المشرفين يفد فى ساعة مبكرة من اليوم التالى فيوجه الى تقريعا مقذعا ، ويتهمنى بالاساءة الى شرف دار دينية ، وباثارة ضجة حول حادث تافه ! .. ونسج محاضرته بحيث شرح لى اشياء كثيرة كنت اجهلها ، ولكنه لم يكن يصدق انه كان يعرفنى بها لأول مرة ، اذ انه كان مقتنعا بأننى ما دافعت عن نفسى الا لأننى كنت غير راغب ، وليس لأننى لم أكن أفقه ما ابتغاه المراكشى منى ! .. ثم أنبأنى ـ برصانة ـ بان ذلك

العمل محرم ، وبأنه جد بعيد عن الأخلاق ، ولكن اشتهاءه ليس اهانة للشخص الذى يكون هدفا له ، ومن ثم لم يكن ثمة داع لأن اغضب من شخص اعتبرنى جديرا بالمحبة ! وانبأنى بوضوح انه ـ هو نفسه ـ قد تقبل فى صغره هذا الشرف حين عرض له ، وانه عندما فوجىء به وهو فى حال لا تمكنه من المقاومة ، لم يجد الأمر مؤلما فى حد ذاته ! .. **وكان من عدم الحياء بحيث انه راح يستعمل الفاظا صريحة ، واخذ ـ وهو يتصور ان مقاومتى كانت ناشئة عن خوف من الألم ـ يطمئننى الى انه ليس ثمة داع للخوف ، وانه ما كان لى ان انزعج دون ما مبرر للانزعاج !**

ورحت اصغى الى ذلك التعس فى ذهول ضاعف منه انه لم يكن يروى امرا يخصه ، وانما بدا انه كان ينصحنى بما فيه الخير لى . كان الموضوع يتراءى له بسيطا الى درجة انه لم يحاول ان يتستر أو يتكتم ، بل ان حديثا انساب الى اذنى طرف ثالث تمثل فى رجل من رجال الكنيسة ، لاح انه لم ينزعج هو الآخر من الأمر ! واثرت على هذه الروح المتساهلة التى ابدت الأمر عاديا ، الى درجة اننى اقتنعت بأنه ـ ولا بد ـ عادة معترف بها فى العالم ، وان لم تتح لى فرصة الالمام بها قبل ذلك الحين ! .. **وكان من جراء ذلك اننى رحت أصغى بدون غضب ، ولكن اصغائى لم يخل من الاشمئزاز . ولقد ظلت صورة ما حدث لى ـ وما رأيته بوجه خاص ـ منطبعة فى ذاكرتى الى درجة اننى لا ازال اشعر بالتقزز كلما تمثلتها !** .. وبدون ان افطن ، امتد نفورى من الشىء الى الشخص الذى كان يبرره ، اذ لم يكن بوسعى ان اتمالك نفسى الى الدرجة التى تحول بينه وبين مشاهدة الاثر السىء لدرسه فى نفسى . ومن ثم رمانى بنظرة كانت بعيدة عن اى ود ! ومنذ ذلك الوقت لم يدخر وسعا فى ان يجعل اقامتى فى النزل مكروهة . ولقد وفق فى ذلك الى درجة اننى لم ار سوى وسيلة واحدة للفرار ، فبادرت الى اتخاذها ، بنفس التحمس الذى كنت اتذرع به حتى ذاك

الحين لتفاديها !

ولقد امدتنى هذه المغامرة بمناعة فى المستقبل ضد محاولات « فرسان الكم » ، فكانت رؤية اولئك المنتمين الى مذهبهم تذكرنى بمنظر وحركات المراكشى الرهيب ، فتوحى الى دائما بجزع يعز على اخفاؤه ! ومن ناحية اخرى ، يبدو لى ان النساء ظفرن بكسب نسبى من جراء هذه المغامرة ، اذ تراءى لى اننى مدين لهن بالعواطف اللطيفة وبالمجاملة كتعويض لهن عما يلحقه بهن ابناء جنسى من اهانات .. وكانت أبشع مومس تصبح فى نظرى اهلا للعبادة ، اذا ما تذكرت ذلك الافريقى الزائف !

.. أما هو ، فلم ادر ما قيل له ، ولم يظهر لى ان احدا ـ فيما عدا السيدة لورينزا ـ بدل من شعوره السابق نحوه ! على انه لم يعد يلاحقنى أو يتحدث الى . وبعد ثمانية ايام ، تم تعميده فى جلال عظيم ، وسربل بالبياض من رأسه الى قدمه ، رمزا لطهر روحه التائبة ! وفى اليوم التالى غادر النزل ، فلم اره البتة منذ ذلك الحين . ثم حان دورى بعد شهر ، فقد كان لا بد من هذه المدة لأتيح لمرشدى شرف الفوز بهداية « كافر » صعب المراس ، واضطررت الى ان اجتاز امتحانا سئلت فيه عن جميع التعاليم ، حتى يتسنى لهم ان يزدهوا باستعراض علمى الجديد!

أما وقد تعلمت أخيرا ـ ما فيه الكفاية ـ وتم اعدادى بالدرجة التى ترضى اساتذتى ، فقد اقتدت فى موكب مهيب الى كنيسة القديس يوحنا الكبرى ، لأعلن خروجى على عقيدتى امام الملأ ، ولأتلقى شهادات التعميد ـ وان كنت لم اعمد فعلا، اذ كنت معمدا منذ مولدى ـ ولكن مثل هذه الاحتفالات تنفع فى ايهام الناس بأن البروتستانتيين ليسوا من المسيحيين فى شىء! .. وارتديت يومذاك معطفا رمادى اللون ، مزدانا بضفادع بيضاء، كان يستخدم فى مثل هذه المناسبات . وحف بى رجلان ـ من أمام ومن خلف ـ يحملان وعاءين من النحاس ، اخذا يضربان عليهما بمفتاحين ، فكان كل امرىء يلقى فى هذين الوعاءين بما يتصدق

به ، تبعا لتقواه ولمدى اهتمامه بالمؤمن الجديد . وقصارى القول ان شيئا من مظاهر عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يدخر، وذلك لاسباغ آيات الجلال على الحفلة فى نظر الناس ، وامعانا فى اذلال نفسى . ولم يكن ينقصنى سوى الرداء الأبيض ، الذى كان يليق بى ، والذى لم يسمح به لى كما سمح به للمراكشى، لأننى لم أحظ بأن أكون يهوديا قبل انضمامى للكنيسة !

على ان هذا لم يكن كل ما فى الاحتفال ، اذ اضطررت بعد ذلك الى ان اذهب الى ديوان التحقيق ، لأتلقى قرار توبتى من جريمة الزندقة ، ودخولى الى حظيرة الكنيسة فى احتفال كان الملك هنرى الرابع ممثلا فيه فى شخص سفيره ! ولم يكن فى مسلك قداسة الأب المحقق ، ولا فى مظهره ، ما يمحو الرعب الخفى الذى تملكنى وأنا ألج الدار . وبعد عدة اسئلة عن عقيدتى ، ومركزى ، وأسرتى ، سألنى فجأة عما اذا كانت أمى ملعونة ؟.. وحملنى الذعر على ان أكبت اول مظاهر الاستنكار ، واكتفيت بأن أجبت بأننى اجرؤ على ان ارجو ان لا تكون ملعونة ، وان يكون الله قد أنار بصيرتها فى ساعتها الأخيرة . وصمت الراهب، ولكنه كشر عن ابتسامة لم يبد لى انها من امارات الرضى فى شىء ! وعندما انتهى كل شىء ، وفى اللحظة التى توقعت فيها ان يمدوني بالمال الذى يلائم آمالى ، اذا بهم يشيعوننى الى خارج الابواب وفى يدى مايزيد قليلا على عشرين فرنكا بالعملات الصغيرة .. هى نتيجة الصدقات التى جمعت لى . وزودت بالنصح بأن اعيش مسيحيا صالحا ، وان اظل صادق الولاء لشرف العقيدة .. ثم تمنوا لى حظا حسنا ، واغلقوا الباب دونى ، فلم ارهم بعد ذلك !

* * *

• **وهكذا** تلاشت كل أمالى العظام فى لحظة ، وكانت النتيجة الوحيدة التى خرجت بها من الخطوة التى اتخذتها ، هى الشعور

« مدام دى فاران » ، كما تبدو فى لوحة زيتية ، لرسام مجهول

بأننى كنت مرتدا عن دينى ، وغرا مغفلا ، فى آن واحد !
ومن اليسير تصور اية ثورة مفاجئة اصابت آرائى عندما رأيت نفسى مقذوفا من حالق احلام الثراء البراقة الى البؤس المدقع! وبعد ان كنت ـ فى الصباح ـ اطيل التفكير فى انتقاء القصر الذى أقيم فيه ، الفيتنى فى المساء مضطرا الى أن أنام على

قارعة الطريق ! .. وقد يخطر بالبال أننى بدأت استسلم لشعور من القنوط ، زاده قسوة ما انتابنى من حسرة رحت معها ألوم نفسى لأن نحسى انما كان من صنع يدى . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، اذ كنت قد مكثت سجينا — لأول مرة فى حياتى — أكثر من شهرين ، فكان أول ما انتابنى هو شعور بالفرح لاسترداد حريتى . ووجدتنى سيد نفسى وتصرفاتى من جديد — بعد فترة طويلة من الاستعباد — فى مدينة كبيرة ، وافرة الموارد ، غنية بذوى المكانة الذين لايمكن أن أخفق فى أن أحظى بضيافتهم — حين أصبح معروفا — لما كان لى من خلال طيبة ومواهب . والى جانب ذلك ، كان الوقت متسعا أمامى ، وكانت الفرنكات العشرون القابعة فى جيبى تلوح لى كما لو كانت كنزا لاينضب معينه ! كنت أملك أن أنفقها كما أشاء ، دون أن أقدم عنها حسابا لأحد . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أملك فيها مثل هذا المبلغ . ومن ثم فبدلا من أن تثبط عزيمتى ، أو ينساب دمعى ، اكتفيت بأن عدلت آمالى ، دون أن يفقد قلبى الطاهر شيئا من جراء هذا التعديل .. فما شعرت قط بمثل ماداخلنى اذ ذاك من طمأنينة وثقة ، اذ اعتقدت أن حظى بات امرا مقررا ، ورأيت أن من البديع حقا أن لايكون لأحد — سواى — فضل فى ذلك !

وكان أول ما فعلته هو أن سعيت لارضاء فضولى الى الطواف بالمدينة ، ولو لاستمتع بملاذ الحرية !.. فذهبت لمشاهدة فرسان الحرس ، وهناك راقت لى الموسيقى العسكرية الى درجة بعيدة . وتبعت المواكب ، فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التى كان يعزفها القساوسة . **وسعيت لمشاهدة قصر الملك ، فاقتربت منه فى رهبة وخشوع ، حتى اذا رأيت غيرى يلجونه ، حذوت حذوهم ، فلم يستوقفنى أحد ! — ولعلى كنت مدينا بهذه الحظوة للفافة التى كنت احملها تحت ابطى — وكيفما يكن الأمر ، فاننى بدأت أقيم وزنا كبيرا لنفسى عندما ألفيتنى**

فى القصر . بل اننى بدأت اتمثل نفسى مقيما فيه بالفعل . وما لبثت فى النهاية أن سئمت الرواح والغدو ، وكنت جائعا ، والجو حارا ، فولجت حانوت لبان ، وابتعت قسطا من جبن «الجيونكا» (١) واللبن الرائب ، وشريحتين من الخبز البييمونتى البديع الذى أفضله على ما عداه . وبخمس أو ست قطع من فئة « السو » حظيت بوجبة من أشهى الوجبات التى تناولتها فى حياتى !

وكنت مضطرا الى البحث عن مأوى . وكان من السهل ان أعثر على واحد ، اذ كنت قد ألممت من اللغة البييمونتية بقدر يمكننى من ان اجعل حديثى مفهوما . وكنت من الحكمة بحيث راعيت فى اختيارى ما يناسب مواردى وليس ما يلائم ذوقى. فقد انبئت بأن زوجة جندى فى شارع « دوبو » تأوى الخدم المتعطلين مقابل « سو » واحد فى الليلة . وكان لديها سرير خال ، فاستأجرته . وكانت المرأة شابة حديثة العهد بالزواج، وان كانت قد أنجبت خمسة أطفال أو ستة من قبل !.. ونمنا جميعا فى غرفة واحدة : الأم ، والأطفال ، والنزلاء .. (وقد ظللنا على هذه الحال طيلة اقامتى عندها !) .. وفيما عدا ذلك كانت امرأة طيبة ، سريعة السباب كالحوذية ، تكشف دائما عن ثدييها ، وتدع شعرها مشعثا. على أنها كانت شفوقة القلب ، بشوشا ، مالت الى ، بل كانت ذات نفع لى !

وقضيت عدة أيام مسلما نفسى لمباهج الاستقلال والفضول وحدها ، فجست خلال المدينة وخارجها ، متفحصا كل مكان، متأملا كل ما كان يبدو لى جديدا او غريبا. وهكذا كان الشأن بالنسبة لكل شىء ، لدى شاب غادر لفوره معتقله ، ولم يسبق له أن رأى عاصمة . وكنت ــ قبل كل شىء ــ اتردد بانتظام على القصر ، كما كنت حريصا على ان أحضر القداس الملكى

(١) جبن « الجيونكا » نوع من الجبن الطازج الذى ينقل الى السوق فى حصير .. كالجبن المعروف فى مصر باسم « القريش »

فى كل صباح ، فقد رأيت أن من البديع أن أكون فى كنيسة واحدة مع الأمير وحاشيته ، ولكن شغفى بالموسيقى كان قد بدأ يغدو محسوسا ، وكان أكثر دفعا لى على الحضور المنتظم من الرواء الملكى الذى ما أن يرى بانتظام ، وبنفس الشكل ، حتى يفقد فتنته وطرافته .. وكانت لدى ملك سردينيا فى ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين فى أوروبا. وكان «سومى» و « ديجارادنه » و «بيسوتزى» هم بالتتابع نجومها اللامعين. وكان هذا أكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صوت أسوأ آلة موسيقية ، اذا كان العزف عليها سليما . وبجانب ذلك ، كان الاعجاب الذى احسست به نحو العظمة والفخفخة - اللتين بهرتا بصرى - اعجابا خاليا من التعقل ، ولا يستحق أن يغبطنى أحد عليه . وكان الشىء الوحيد الذى أثار اهتمامى فى كل رواء البلاط الملكى هو أن أرى ما اذا كانت ثمة أميرة شابة ،جديرة بتكريمى ، وبأن اتصل بها فى مغامرة غرامية؟!.. وكنت قد أوشكت أن أبدأ مغامرة من هذا النوع ، فى وسط أقل رواء ، ولكنها مغامرة كنت خليقا بأن أجد فيها - لو أننى مضيت قدما - متعا تفوق متع الغرام بالأميرات ألف مرة !

* * *

• **ومع أننى** كنت أعيش بأقصى درجات التقتير ، الا أن كيسي بدأ ينضب رويدا . ولم يكن اقتصادي فى النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بساطة فى الذوق لم يبدلها - الى يومنا هذا - تعودى على أن أجلس الى موائد علية القوم. فما عرفت - بل ولا ازال بعيدا عن أن أعرف - ما هو أبهج من الطعام الريفى . وفى وسع أى امرىء أن يطمئن الى اكرامه لى اذا هو قدم لى بعض منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر ، والجبن ، والخبز الأسمر ، وبعض النبيذ المقبول .. اذ أن شهيتى تتكفل بما يبقى بعد ذلك. هذا فى الوقت الذى لا أرتاح

فيه الى وجود كبير للسقاة وعدد من الخدم حولى، يحيطوننى بتكلفهم المزعج ! وقد كنت فى ذلك العهد احظى بوجبات تتكلف ستة أو سبعة « سو » ، وتفضل ما اعتدت بعد ذلك أن احظى به لقاء ستة أو سبعة فرنكات ! .. كنت معتدلا ، لأننى لم أتعرض لاغراء يبعدنى عن الاعتدال ، ومع ذلك فاننى اخطىء حين أقول اننى كنت معتدلا ، اذ اننى كنت احظى فى الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكنة . كانت الكمثرى ، والجيونكا ، وشرائح الخبز ،وبضعة أقداح من نبيذ «مونفيرا» الكثيف الذى يستطيع المرء أن يقطعه الى شرائح ، تجعلنى أسعد أكول ! ومع ذلك ، فقد دنت نهاية فرنكاتى العشرين ، وكنت ازداد شعورا بهذا يوما بعد يوم ، ومع ما كانت تتسم به سنى من خلو البال ،فان قلقى من المستقبل سرعان ما أصبح جزءا حقيقيا ! ولم يبق لى من كل القصور التى كنت أشيدها فى الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة للعيش ، وهذا مالم يكن سهلا ميسورا . وفكرت فى حرفتى القديمة ، ولكننى لم أكن أعرف منها ما يكفينى لأن يغرى أى معلم على أن يستخدمنى ، فضلا عن أنه لم يكن ثمة كثير من المعلمين فى (تورين) . وأخذت أتنقل من حانوت الى آخر ، عارضا خدماتى لحفر الشعارات والرموز على الفضة ، راجيا أن أغرى بعض العملاء برخص أجرى ـ ريثما يتاح لى عمل أفضل ـ بل اننى تركت لهم تقدير الأجر . ومع ذلك فان هذا المشروع لم يسفر عن نجاح يذكر ، بل كنت اطرد عادة، فكان العمل الذى أظفر به من القلة بحيث اننى نادرا ما كسبت ما يكفى لثمن وجبتين أو ثلاث ! على اننى لمحت ذات يوم ، وأنا أسير فى (كونترادا نوفا) فى ساعة مبكرة ،امرأة شابة بدت لى ـ خلال نافذة أحد الحوانيت ـ موفورة اللطف ،جذابة المنظر الى درجة اننى ـ رغم حيائى من النساء ـ دخلت الحانوت دون تردد ، ووضعت مواهبى المتواضعة رهن اشارتها ! ولم تصدنى فى

جفاء ، بل اجلستني وسألتني أن أروى لها سيرتى القصيرة ، فلما فعلت اشفقت على ، وسألتنى ان لا ابتئس ، لأن المسيحيين الصالحين ما كانوا ليتخلوا عنى بالتاكيد . وبعد ان ارسلت الى صائغ يجاورها فى طلب الادوات التى انبأتها بأنها تعوزنى ، ذهبت الى المطبخ فأعدت لى بيديها فطورا

ولاح لى ان البداية تبشر بالخير ، فلم تكذب النتيجة حدسى، اذ بدا على المراة انها رضيت عن العمل الذى انجزته، وكانت اكثر رضاء عن ثرثرتى المتواضعة ، عندما اطمأننت قليلا اليها ، فقد كانت ذكية ، انيقة الملبس. وعلى الرغم من مسلكها الرحيم المتلطف ، فان مظهرها أوحى لى بالهيبة والوقار . **على ان كرم حفاوتها ، وصوتها الشفوق، واخلاقها اللطيفة الدمثة ، لم تلبث أن سرت عنى كل تحفظ ، فتبينت مدى توفيقى ، مما ضاعف من هذا التوفيق!.. وكانت المرأة ايطالية ، ذات اغراء ودلال الى حد ما ، لكنها كانت فى الوقت نفسه ذات حياء . وكنت من ناحيتى خجولا ، حتى انه كان من العسير ان يؤدى الموقف الى اىشىء أبعد مما جرى بيننا !** كما ان الوقت لم يتح لنا كى نمضى فى المغامرة . وانى لأذكر فى أقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التى قضيتها الى جوارها ، وبوسعى ان اقول اننى — فى بدايتها — تذوقت أحلى وانقى مباهج الحب !

وكانت تلك الايطاليةالحسناء سمراء البشرة، بالغة الفتنة، يزيد من تأثير حسنها ماكان يحمله وجهها الجميل من مخايل طيبة النفس . وكان اسمها مدام «بازيل» ، تركها زوجها — الذى كان اكبر منها سنا ، وكان غيورا بعض الشىء — فى رعاية كاتب (١) بدا أبغض من ان يكون ذا غواية او اغراء ، ومع ذلك فانه لم يكن خلوا من خلال مميزة كان يبديها مقترنة بطبعه السىء الذى آثرنى به ، رغم اننى كنت مولعا

(١) « كاتب » هنا بمعنى موظف كتابى ، اى CLERK

بأن اسمع عزفه على القيثارة التى كان يجيد استعمالها .. وكان « اله الدمامة » الجديد يزمجر كلمـا رآنى الج المكان ، ويعاملنى فى ازدراء اخذت مخدومته ترده اليه كاملا ! بل لقد

بدا لى انهـا كانت تستعـذب التلطف فى وجوده ، لـكى تثير غيظه، وكان هذا النوع من الانتقام ـ رغم مجافاته لذوقى ـ خليقا بأن يكون اكثر استساغة ، لو انه كان فى خلوة. ولكنها لم تدفع الامور قط الى هذا الحد ، أو ـ بالاحرى ـ دفعتها، ولكن بشكل آخر ! **وسواء كانت قد ألفتنى جـد صغير ، او انها لم تكن تعرف كيف تقدم على المراودة ، او كانت تعتزم حقا ان تظل عاقلة ، فانها اخذت تبدى فى ذلك الحين نوعا من التحفظ لم يكن يصدنى عنها ، ولكنه كان يجعلنى أهابها دون ان ادرى السر فى ذلك !** ومـع اننى لم احس نحـوها بذلك الاحترام الحقيقى، العاطفى، الذى احسست به نحو السيدة دى فاران ، الا أننى كنت أشـد خجلا وأقل الفـة مع مدام بازيل منى مع السـيدة المذكورة . كنت اجـدنى محرجا ، مرتبكا ، لا أجرؤ على ان اتطلع اليها ، أو أتنفس بالقرب منها، ومع ذلك فقد كنت اشد كرها للبعد عنها منى للموت. كنت التهم بعين نهمة كل ما أستطيع ان أتطلع اليه فيهـا دون ان

يلمحني احد : الزهور التى تزين ثوبهـا ، واطراف قدميهـا الرشيقتين ، ولمحة من ذراع بيضاء ، ملتفة ، كنت اراها بين قفازها وكمها . . وجزءا من صدرها كان يتجلى أحيانا بين طرف ثوبها والمنديل المحيط بعنقها. وكان كل شىء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى ! . ، **وكانت عيناى تضطربان من النظـر الى ما كنت اراه ـ بل وما وراء مـا كنت اراه ـ ويضيق صدرى ، فتزداد انفاسى تهدجا فى كل لحظة ، حتى لا أكاد أقوى على التنفس ، بل يغدو كل ما استطيعه هو ان أصعد زفرات متلاحقةغير محسوسة، كانت شديدة الاحراج لى فى غمرة السكون الشامل الذى كثيرا ما كنا نلفى نفسينا فيه!** . . على ان مدام بازيل لم تكن ـ لحسن الحظ ـ تلاحظ ذلك ، على ما كان يبدو لى ، لانهماكها فى عملهـا . ومع ذلك فاننى كنت أرى صدر ثوبها يخفقأحيانا ، وكأنها تشفق على. وكان هـذا المنظر الخطر يفقدنى رشدى تمـاما ، حتى اذا اوشكتان اطلقالعنان لانفعالاتى، قالت لى ـ بصوت هادىء ـ عبارة ما ، ترد الى ادراكى فى الحال !

* * *

• **ولقد** رأيتها عدة مرات فىهذه الحال ـ ونحن وحيدان ـ دون ما كلمة أو اشـارة او نظرة تحمل من المعـانى اكثر مما ينبغى ، أو ما يوحى بأتفه تفاهم بيننا . وكان هذا الجو ـ على ما فيه من تعذيب لى ـ جد مستعذب، حتى انني كنت لا أكاد لسذاجةقلبى أجد سببا لماكنت احس به من لوعة ! وكان يبدو ان هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هى الأخرى ، فانها ـ على أية حال ـ كانت تتيح الفرص لها بكثرة !. . واذا تساءلنا عن النفع الذى كان هذا المسلك يحققه لهـا ، أو لى ، فمن المؤكد انه كان على الاقل مسلكا خاليا من اى ضرر !

. . الى ان كـان ذات يوم ، سئمت فيـه المراة الحـديث

السخيف الذى انطلق فيه الكاتب الدميم ، فصعدت الى غرفتها . واسرعت انا أتم المهمة البسيطة التى كنت أؤديها فى الحجرة الخلفية بالحانوت ، ثم تبعتها . **وكان باب حجرتها مواربا ، فدخلت دون ان يرانى أحد . وكانت عاكفة على التطريز بجوار احدى النوافذ ، وظهرها نحو الباب ، فلم يكن بوسعها ان ترانى ، ولا ان تسمعنى ــ نظرا لجلبة العربات فى الطريق ــ وكانت تحرص دائما على أناقة ملبسها، لكنها فى ذلك اليوم بالذات كانت قد افتننت فى زينة وجهها الى درجة مغرية! وكان وضعها بديعا ، اذ كان رأسها ــ فى انحناءته البسيطة ــ يكشف بياض عنقها .. وكان شعرها معقوصا الى اعلى فى رشاقة ، وقد ازدان بالزهور . وبالاختصار ، كان يرين على قوامها بأسره سحر أخذت أطيل تأمله حتى أخرجنى عن تجلدى ،** فاذا بى اجثو على ركبتى لدى الباب، وأبسط ذراعى نحوها فى حركات ملتاعة ، وانا واثق من انها لم تكن تسمعنى، ودون أن يخطر ببالى أن من المحتمل ان ترانى .. بيد أنه كانت ثمة مرآة على رف المدفأة وشت بى اليها ! ولست أدرى أى أثر احدثته نوبة جنونى فى نفسها، فانها لم تنظر نحوى ، ولم تنبس بكلمة، وانما لفتت رأسها لفتة صغيرة، وبحركة بسيطة أشارت بأصبعها الى الحصيرة التى كانت عند قدميها. وكانت اللحظة تتطلب ان أرتجف ، أو أصرخ ، أو أرمى بنفسى حيث أشارت ، ولكن من العسير ان يصدق أحد اننى فى ذلك الموقف لم أجسر على أن أحاول اكثر من الاستلقاء عند قدميها ، فلم أنبس بكلمة واحدة ، ولا رفعت عينى اليها ، بل ولا مسستها فى محاولتى المضنية كى استند الى ركبتيها لحظة .. ومع اننى عجزت عن الكلام أو الحركة، الا اننى كنت بعيدا عن الهدوء والسكينة، بل كان كل شىء يشى بانفعالى ، وفرحى ، وعرفانى ، ورغباتى الجامحة التى لم يكن لها هدف معين ، والتى كان يكبحها الخوف من استياء السيدة ، وهو أمر ما كان قلبى الشاب

ليرتاح اليه !

وبدا انها لم تكن اقل تأثرا ولا اقل خجلا منى .. وازعجها ان ترانى هناك، وحيرها ان تكون قد اجتذبتنى الى ذلك المكان، وبدأت تشعر بعواقب الاشارة التى صدرت عنها دون أن تفكر فيها التفكير الواجب ! .. **ولكنها لم تقربنى اليها ، ولا هى صدتنى عنها ، فانها لم ترفع رأسها عن الرقعة التى تطرزها ، بل حاولت ان تتصرف كما لو لم تكن ترانى عند قدميها ! على ان كل ما أوتيت من غباء ما كان ليمنعنى من ان أستنتج انها كانت تشاطرنى ارتباكى ، وربما رغباتى ، وانها كانت تكبح عواطفها بنفس الحياء الذى كان يدفعنى الى ان اكبح عواطفى، وان لم يساعدنى ذلك على ان اتغلب على هذا الحياء ! ..**
واذ كانت تكبرنى بخمس سنوات أو ست ، فقد رأيت انها كانت خليقة بأن تكون اكثر جرأة ، وقلت لنفسى انها اذا كانت لم تفعل ما يوقظ جرأتى ، فلا بد انها غير راغبة فى ان أبدى اية جرأة من ناحيتى ! ولا ازال حتى اليوم أرى أننى كنت مصيبا ، وانها كانت ـ بالتأكيد ـ من الذكاء بحيث فطنت الى ان ناشئا مثلى كان بحاجة لا الى تشجيع فحسب ، وانما الى « تدريب » ايضا !

ولست ادرى كيف كان لينتهى هذا المشهد الحافل الصامت، ولا الى اى وقت كنت سأظل دون حراك فى وضعى المستهجن المستعذب ، لولا أننا فوجئنا بما قطع علينا الموقف ! ففى اللحظة التى بلغ فيها انفعالى عنفوانه ، سمعت باب المطبخ ـ الذى كان ملاصقا للحجرة التى كنا فيها ـ يفتح ، **فاستولى على مدام بازيل ذعر جائح تجلى فى كلماتها واشاراتها وهى تقول : « انهض ! .. ها هى ذى روزينا قادمة ! » . واسرعت بالنهوض ، ممسكا باليد التى بسطتها لى ، طابعا عليها قبلتين ملتهبتين ، شعرت عند ثانيتهما ان هذه اليد الفاتنة تضغط شفتى ضغطا خفيفا !..** ولست اغالى اذا قلت اننى لم استمتع

فى حياتى بلحظة فى مثل حلاوة تلك اللحظة . غير ان الفرصة التى فقدتها لم تسنح قط مرة اخرى ، وكف غرامنا الوليد عن النمو عند ذلك الحد ! ولعل هذا هو عين السبب فى ان صورة تلك المرأة اللطيفة ظلت مطبوعة فى اعماق قلبى بهذا الشكل الفاتن ، بل انها ازدادت جمالا بازدياد معرفتى بالدنيا والنساء . ولو انها كانت قد اوتيت مجرد قدر بسيط من الخبرة ، لأقدمت على تصرف مخالف ، كى تشجع فتى مثل الذى كنته !.. **ولكن ، لئن كان قلبها قد اوشك ان يضعف فى تلك اللحظة ، فانه كان فى الواقع مستقيما، وما انساقت للميل الذى جرفها الا على غير ارادة منها ، فكانت هذه ـ على ضوء كل المظاهر ـ اول خيانة تفكر فيها ، ولعلنى كنت خليقا بأن أجد فى مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت ألقاه فى مغالبة حيائى!**
على اننى، دون ان اذهب الى ذلك المدى، كنت أجد فى وجودها سعادة لاتوصف ، وما عادل شىء من المشاعر التى يخلقها نيل النساء ، تلك الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمى هذه المرأة دون ان اجسر على مجرد لمس ثوبها !.. **لا ، ليست هناك متعة تعدل تلك التى تستطيع ان تتيحها امرأة فاضلة يحبها المرء!.. ان كل شىء يغدو جميلا فى صحبتها .. ولقد كانت اشارة من أصبع ، ويد التصقت خفيفا بفمى ، هما كل النعم التى حظيت بها من مدام بازيل ، ولا تزال ذكرى هذين الرمزين البسيطين تفتننى كلما فكرت فيهما !**

وعبثا حاولت ـ فى اليومين التاليين ـ ان انتهز فرصة لخلوة اخرى ، فقد استحال على ان اجد هذه الفرصة ، ولم الاحظ اى حرص من جانب مدام بازيل على ان تتيحها . ومع ان مسلكها لم يصبح أقل فتورا عن ذى قبل ، الا انها صارت أكثر تحفظا من المعتاد، واعتقد انها كانت تتفادى نظراتى خشية ان تعجز عن أن تسيطر على نفسها سيطرة كافية ! وغدا كاتبها اللعين أثقل ظلا من اي وقت مضي ، سيما وقد مضي يمزح

ويداعبنى قائلا اننى خليق بأن أجد حظا لدى السيدات! وكنت ارتجف كلما فكرت فى اننى ربما كنت قد ارتكبت حماقة . ولما كنت قبل ذلك أعتبران ثمة تفاهما بينى وبين مدام بازيل، فقد رغبت الآن فى أن أتكتم الميل الذى لم يكن بحاجة الى التكتم من قبل ، فجعلنى ذلك أزداد حذرا فى تحينى الفرص لارضاء هذا الميل . ومن فرط حرصى على ان تكون هذه الفرص مأمونة ، تعذر على ان اعثر عليها اطلاقا !

وكانت هذه نزوة غرامية أخرى ، لم يقدر لى قط أن أبرأ منها ، وقد استطاعت باقترانها بحيائى الطبيعى ان تكذب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب ! . . فقد كنت من الصدق فى حبى بدرجة اجرؤ معها على القول بأنها لم تكن لتمكننى من أن أسعد بسهولة . **فما كانت العواطف يوما أشد توثبا واطهر طبيعة مما كانت لدى ، ولا كان الحب يوما أرق ، واصدق ، وابعد عن المصلحة مما كان عندى !.. كنت على استعداد لأن اضحى بسعادتى ألف مرة من اجل سعادة المرأة التى احبها . كانت سمعتها أعز لدى من حياتى ، وما كنت لأرجو ألبتة ان اعرض طمأنينتها لحظة واحدة لأى خطر ، فى مقابل كل المباهج والمتع !** وقد حملنى هذا الشعور على ان أسرف فى الحذر والتكتم والحيطة فى مغامراتى ، الى الحد الذى لم يقدر عنده لأى منها ان تنجح !.. وما كانت حاجتى الى ان اوفق مع النساء الا ناجمة دائما عن حبى العارم لهن !

* * *

• **ولنعد** الآن الى ذلك الدميم، عازف القيثارة : كان الغريب فى أمر هذا الغادر انه كلما ازداد ثقل ظل ، بدا اكثر لطفا وايناسا !.. وكانت مخدومته ـ منذ اليوم الاول الذى مالت فيه الى ـ قد فكرت فى ان تجعلنى نافعا فى الحانوت . وكنت أجيد الحساب ، فاقترحت عليه ان يعلمنى كيف امسك

الدفاتر التجارية ، ولكن الجلف تلقى الاقتراح فى امتعاض،لعل مبعثـه انه خشى ان يزحـزح عن عمله ! ومن ثم فقد كان كل عملى ـ الى جانب حفر المعـادن ـ يقتصر على نسخ بضعـة حسابات ومذكرات ، وتصحيح بعض الدفاتر ، وترجمة بضع رسـائل تجارية من الايطـالية الى الفرنسية . وفجـأة ، عن لصاحبى ان يعود الىالاقتراح الذى سبقله ان رفضه،فتطوع لتعليمى القيد المزدوج (١) ، وقال انه بات راغبا فى ان يجعلنى كفئا لأن اتقدم بخدماتى الى السيد بازيل عند عودته . وكانفى صوته ومسلكه شىء من الزيف والحقد والسخرية،لم يوح الى بالطمأنينة ! ولم تنتظر مدام بازيل حتى أجيبـه ، بل قالت له فى برود اننى شاكر له تطوعه ، وانها تأمل ان يجازينى القدر فى النهاية عن طيب صفائى ، وانه لأمر جدير بأعظم الرثاء لو اننى لم أغد ـ رغم كل مواهبى ـ اكثر من «كاتب» مثله !

وكانت السـيدة قد اخبرتنى ، فى عـدة مناسبات ، بأنها راغبة فى ان تقدمنى الى شخص قد يستطيع ان يسـاعدنى . **وكانت منالحكمة بحيث ادركت انالوقت قد حان كى نفترق، اذ ان اعترافاتنا الصامتة بالحب وقعت فى يوم الخميس ، فلما كان يوم الاحد التالى، اقامت مأدبةعشاء كنت ممن حضروها.** وكان بين الضـيوف راهب من المذهب « اليعقوبى » ، حسن الطلعة ، قدمتنى اليه السيدة ، فعاملنى بحفاوة بالغة، وهنأنى بانضوائى تحت لواء الكثلكة ، وحدثنى عن حياتى بطريقة نمت لى عن ان السيدة قد أفضت اليه بتفصيلاتها . ثم نصحنى ـ وهو يربت على خـدى بظهر يده فى ود ـ بأن أتصرف بمـا يليق بكرامتى ، وبأن اكون قوى الجلد وشجاعا ، وبأن اذهب لزيارته ليتاح لنا ان نتبسـط فى الحديث معـا . وادركت من الاحترام الذى كان كل امرىء يبديه له ، انه رجل ذو مكانة .

(١) طريقة قيد الحسابات التجارية ، بتسجيل كل عملية فى الجانب الدائن والجانب المدين : « منه » و « له »

كما ادركت من اللهجة الابوية التى كان يوجه بها حديثه الى مدام بازيل ، انه الراهب الذى تفضى اليه باعترافاتها ! كذلك اذكر ان الالفة البالغة التى كان يبديها نحو تائبته (١) كانت مشوبة بمظاهر التقدير، بل والاحترام، الأمرالذى لم يدهشنى اذ ذاك قدر ما يدهشنى الآن . **ولو اننى كنت أذكى مما كنت اذ ذاك ، لكنت خليقا بأن أتيه فخرا لمجرد التفكير فى اننى استطعت أن أمس احاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذى كان يتلقى اعترافاتها !**

ولم تتسع المائدة لنا جميعا ، فرؤى اضافة مائدة اخرى صغيرة ، كان من حظى ان جلست اليها ، مواجها للكاتب .. ولم أخسر بهذا التنظيم شيئا من الرعاية أو التلطف ، فقد نقلت عدة صحاف من الطعام الى المائدة الصغيرة ، لم يكن صاحبى هو المقصود بها بالتأكيد! وكان كل شىء يسير كما ينبغى حتى ذلك الوقت ، فكانت السيدات جد طروبات ، والرجال مرهفى الانتباه . وكانت مدام بازيل تدعو الى الأنخاب فى مهابة فاتنة . وفى منتصف العشاء ، وقفت عربة بالباب ، واقبل شخص يصعد السلم .. وكان القادم هو السيد بازيل . وانى لأتمثله الآن بنفس صورته حين دخل علينا ، مرتديا معطفا قرمزيا ذا ازرار مذهبة ، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم ان انفر منه ! وكان طويلا ، مليحا ، حسن المظهر . وأقبل فى جلبة، شأن الرجل الذى يفاجىء ضيوفه ، رغم ان الحضور جميعا كانوا أصدقاء له . **وألقت زوجته ذراعيها حول عنقه، وراحت تضغط يديه ، وتضفى عليه ألوان الغزل والملاطفة ، فتقبلها جميعا دون ان يلتفت ، وحيا الجماعة، وجلس ليتناول الطعام**

ولم يكد الضيوف يشرعون فى الحديث عن رحلته ، حتى

---

(١) تقضى التقاليد الدينية لدى الكاثوليك بان يعترف الشخص الى قس الكنيسة التى يتبعها ، فيعظه القس ويصلى من اجله ، ويكون اعترافه دليل التوبة ، فهو بهذا الوضع تائب

وجه عينيه نحو المائدة الصغيرة، وتساءل فى صوت جاف عمن يكون الفتى اليافع الذى رآه جالسا اليها ، فروت له مدام بازيل كل شىء فى بساطة ساذجة . فتساءل عما اذا كنت اقيم فى الدار ، فأجبت بالنفى ، واذ ذاك قال بصوت اجش ! **«ولم لا؟.. مادام يقضى سحابة النهار هنا ، فمن المستحسن ان يمكث خلال الليل »** . وأمسك الراهب بزمام الحديث ، وبعد ان تحدث عن مدام بازيل بعبارات الاطراء المخلص الصادق ، ذكر بضع كلمات فى امتداحى ، واضاف قائلا للزوج ان من الجدير به أن يتوق الى المساهمة فى العمل الخيرى الذى ادته زوجته الصالحة، بدلا من ان يلومها عليه، فليس فى هذا العمل مايجاوز حدود الحكمة والكرامة . وأجاب السيد بازيل فى لهجة غاضبة حاول اخفاءها بعض الشىء ، احتراما لوجود الراهب ، ولكنها كانت كافية لأن تجعلنى أشعر بأنه تلقى أنباء عنى ، وان الكاتب قد دس لى لديه !

وما ان انتهت المأدبة ، حتى اقبل الكاتب مزهوا ، وقد اوفده مخدومه ليدعونى ـ بأمره ـ الى ان ابارح البيت فورا ، فلا أضع فيه قدمى بعد ذلك! وحشا رسالته بكل ماكان كفيلا بأن يجعلها قاسية مهينة . فانصرفت بدون ان انبس بكلمة ، ولكن بقلب طعين، لم تكن تعذبه فكرة مفارقة تلك المرأة اللطيفة، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجها المتوحش!.. **ولا مراء فى انه كان على حق فى رغبته ان لاتخونه زوجته، ولكنها كانت ـ رغم ذكائها وحسن تربيتها ـ ايطالية الأصل ، اعنى انها كانت مفطورة على الحس المرهف وحب الثأر . ويلوح لى انه كان مخطئا اذ عاملها بأكثر الطرق قابلية لأن تجلب عليه ماكان يخشاه من نحس !**

هكذا كانت نتيجة مغامرتى الغرامية الاولى . ولم اغفل ان امر بالشارع مرتين او ثلاثا ، على امل ان ارى ـ على الأقل ـ المرأة التى لم يكن قلبى يكف عن التحسر عليها . ولكنى رايت

ـ بدلا منها ـ الزوج والكاتب المتربص الذى لم يكد يلمحنى حتى اشار نحوى بالشريط الخشبى الذى يستخدم لقياس الياردة ، اشارة كانت تنطوى على اكثر من مجرد التهديد! واذ تبينت ان الرقابة شديدة ، فترت عزيمتى ، ولم امر بالحانوت مرة اخرى . ولقد رغبت فى ان اسعى الى الراهب الذى كانت مدام بازيل قد هدتنى اليه ، ولكنى لم اكن اعرف اسمه ، لسوء الحظ ، فطوفت عدة مرات بالدير آملا فى أن أصادفه ، ولكن دون ماتوفيق . **وأخيرا، عدت احداث اخرى على ذكريات مدام بازيل البهيجة ، فلم البث ان نسيتها تماما بعد وقت قصير .. بل اننى ـ لسذاجتى وحداثتى ـ لم اعد أحس بميل الى الجميلات !**

على ان كرم مدام بازيل زود صوان ثيابى الى حد ما ، وان كانت قد راعت التواضع وبعد النظر الذى تتصف به المرأة العاقلة التى تفكر فى نظافة الملبس اكثر مما تفكر فى زينته ، مما نم عن انها كانت تبغى ان تصوننى من الهوان ، لا ان تزيننى . وكانت الثياب التى حملتها معى من جنيف لاتزال صالحة للارتداء، ومن ثم فانها لم تضف اليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية . ولم تكن عندى قفازات ، ولكنها ابت ان تمنحنى شيئا منها ، رغم اننى كنت جد تواق لذلك ، فقد كانت قانعة

بأن تجعلنى فى وضع يمكننى من ان احتفظ بنفسى نظيف الملبس والمظهر ، وهو امر لم تكن بحاجة الى ان توصينى بالاهتمام به، عندما كنت معها !

وبعد ايام قلائل من طردى من الحانوت ، أنبأتنى صاحبة البيت الذى كنت أقيم فيه — وقد ذكرت انها مالت الى — بأن من المحتمل ان تكون قد وجدت لى عملا، **فان سيدة ذات مكانة قد رغبت فى ان ترانى. وعندهذه الكلمات، ظننت اننى أصبحت فعلا وسط مغامرات راقية ، اذ كان ذهنى يدور دائما حول ذلك. على ان المغامرة فى هذه المرة لم تكن من البهاء كما صورتها لنفسى، فقد ذهبت لمقابلة السيدة مع الخادم الذى حدثها عنى، فسألتنى وامتحنتنى ، ولم أخيب رجاءها ، فالتحقت بخدمتها لفورى ، لا فى مركز مقرب لديها ، وانما كخادم يرتدى الزى الخاص بخدمها !** وكان الفارق الوحيد بينى وبين هؤلاء انهم كانوا يلبسون انشوطات على اكتافهم (١) ، اما أنا فلم اكن افعل .. ولما كانت ثياب خدمها لاتزدان بشىء من الوشى ، فانها كانت تبدو كالأزياء العادية.. وهكذا كانت النهاية غير المرتقبة لآمالى العظام !

وكانت « الكونتة دى فيرسيللى » — التى التحقت اذ ذاك بخدمتها — ارملة بلا ولد، وقد كان زوجها من ابناء (بييمونت). وكنت دائما اخالها من اقليم (سافوا) ، فما كنت لأصدق ان بين اهل (بييمونت) من يجيد الفرنسية الى درجة الكلام بلهجة خالية من اية لكنة . وكانت فى اوسط العمر، ذات منظر ممتاز، وقد اوتيت ذهنا مثقفا . وكانت مولعة بالأدب الفرنسى الذى كانت على دراية واسعة به . كما كانت تكثر من الكتابة ، وبالفرنسية دائما.. وكانت لرسائلها روح، بل وروعة، رسائل « مدام دى سيفينييه » ، حتى ان بعضها يخاله المرء من قلم هذه الأخيرة . وكان عملى الرئيسى من نوع لم اكن اكرهه ، اذ

---

(١) حبال بجدولة (اسبلايت) او شارات مما يوجد على اكتاف بعض السعاة

كنت اكتب لها ما تمليه على من هذه الرسائل ، فقد كانت مصابة بسرطان فى المعدة ، يكبدها آلاما عظيمة تجعل من المستحيل عليها ان تكتب بنفسها !

ولم تكن مدام دى فيرسيللى ذات ذكاء عظيم، ولكنها اوتيت روحا قوية عالية . وكنت معها اثناء مرضها الأخير، فشهدتها تتعذب وتموت دون أن تبدى بادرة من بوادر الضعف ، ولو لحظة واحدة، ودون ان تبذل أقل جهد فى السيطرة على نفسها، أو تفعل شيئا لايليق بامرأة، بل ودون ان يخطر ببالها ان مسلكها كان مثالا للفلسفة ، وهى كلمة لم تكن قد أصبحت شائعة، ولم تكن السيدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم

وكانت قوة شخصيتها هذه ، تطغى فى بعض الاحيان حتى تصبح برودا !.. كانت تبدو لى دائما وكأنها لاتكن من المشاعر لسواها قدر ما تكن لنفسها . وعندما كانت تبدى كرما لأى تعس، فانما كانت تصدر فى ذلك عن رغبة فى اتيان الخير والعمل الصالح ، اكثر منها عن شعور حقيقى بالصدقة . ولقد خبرت هذا القصور فى شعورها — الى حد ما — خلال الأشهر الثلاثة التى قضيتها معها. ولقد كان الامر يبدو طبيعيا لو انها قدرت شابا ذا مواهب ، كانت تراه أمامها باستمرار ، فاذا ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت فى انه قد يصبح بعدها فى حاجة الى المعونة والمساعدة.. ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك، اما لانها لم تعتبرنى أهلا لرعاية خاصة ، او لأن الذين كانوا يحيطون بها لم يتيحوا لها ان تفكر فى سواهم !

على اننى اتذكر جيدا انها ابدت بعض فضول الى تعرف قصتى ، فكانت احيانا توجه الى أسئلة ، وتحب ان اريها الخطابات التى كنت اكتبها الى مدام دى فاران ، واصف لها مشاعرى . على انها لم تسلك — بالتأكيد — الطريق الصحيحة للتعرف على هذه المشاعر ، اذ انها لم تبح لى قط بشىء من مشاعرها الخاصة ! وكان قلبى يحب ان يكشف عن دخيلته

على شريطة ان يطمئن الى انه انما يفضى بسريرته الى قلب آخر. اما الاسئلة الباردة الجافة ، التى لاتنطوى على بادرة من رضاء او لوم ازاء اجاباتى، فلم تكن توحى الى بشىء من الثقة. وعندما كنت لا ارى ما ينم عما اذا كان حديثى يرضيها او يضايقها ، كنت اشعر دائما بجزع! .. **على اننى لاحظت، منذ ذلك الحين، ان هذه الطريقة الجافة فى توجيه الاسئلة الى الناس للتعرف على شخصيتهم، حيلة كثيرا ماتعمد اليها النساء اللواتى يرغبن فى ان يبدون ذكيات بارعات. فهن يخلن انهن باخفاء مشاعرهن يكن اكثر توفيقا فى الكشف عن مشاعرك انت ! ولكنهن يخفقن فى ان يرين انهن بهذا العمل يجردنك من الجرأة على هذا الكشف!** .. والرجل اذا ما سئل ، بادر الى التحفظ من اجل ذلك السبب وحده ، واذا اعتقد ان سائله انما يريد ان يحمله على الكلام فحسب ، دون اى اهتمام حقيقى بأمره، فانه اما ان يعمد الى الكذب ، او الى حبس لسانه ، أو يضاعف من حيطته ، مفضلا ان يظن انه احمق عن ان يكون تسلية للفضول ! وقصارى القول ، ان المرء اذا رغب فى قراءة قلوب الآخرين ، فان من سوء السياسة ان يظهر انه يخفى ما فى قلبه !

ولم يحدث لمدام دى فيرسيللى ان باحت لى قط بكلمة تعبر عن ود ، أو شفقة ، أو عطف . وانما كانت توجه الى اسئلة بلهجة باردة ، فأجيب عليها بتحفظ . ولا بد ان اجاباتى كانت تبدو لها تافهة مضجرة . وما لبثت فى النهاية ان كفت عن الاسئلة ، ولم تعد تكلمنى الا لتصدر لى اوامرها ! كانت تحكم على فى ضوء ما دفعتنى اليه بمسلكها ، وليس فى ضوء ماكنته .. وما رات فى قط سوى مجرد خادم، فكانت تمنعنى من أن ابدو فى غير شخصية الخادم !.. وأعتقد اننى منذ ذلك الوقت اعانى من خبث هواية التآمر فى الخفاء التى تدفعنى الى الانحراف، والتى اوحت الى بنفور طبيعى جدا من الاوضاع التى خلقت هذه الهواية . وكان وريث مدام دي فيرسيللي ــ التي كانت

بلا ولد ـ هو ابن اخيها الكونت « ديلا روك » الذى كان مثابرا على التقرب اليها. وفضلا عن ذلك، فان رؤساء خدمها ـ الذين راوا نهايتها تدنو ـ لم يغفلوا مصالحهم، ومن ثم فقد كان يحيط بها كثيرون ممن يظهرون الوفاء لخدمتها ، فكان من العسير عليها ان تفكر فى شخصى . وكان على راس قصرها رجل ماهر يدعى السيد لورنزى ، استطاعت زوجته ـ التى كانت تفوقه ذكاء ـ ان تتملق مولاتها وان تكسب رضاها الى درجة انها صارت منها بمثابة الصديقة اكثر منها الخادم الأجيرة . وقد استطاعت بذلك ان تظفر لابنة اخيها بمنصب وصيفة السيدة! وكانت ابنة الأخ مخلوقة ماكرة ، تدعى الآنسة بونتال ، تجيد الظهور بمظهر وصيفة الشرف ، وبذلك وفقت الى مساعدة عمتها فى التقرب الى السيدة ، فلم تعد هذه ترى الا بعيون الاثنتين ، او تعمل الا بأيديهما ! **ولم يكن لى حظ ارضاء هؤلاء الاشخاص الثلاثة ـ السيد لورنزى وزوجته وابنة اخيها ـ فقد كنت اطيعهم ولكنى لم اخدمهم، اذ لم افطن الى اننى ـ بجانب خدمة مخدومتنا المشتركة ـ كنت مضطرا الى ان اكون خادما لخدمها !** .. فضلا عن اننى كنت من ذلك النوع من الخدم الذى يثير قلقهم ، اذ راوا بوضوح اننى كنت فى غير المكان الذى استحقه ، فكانوا يخشون ان ترى السيدة ذلك بدورها ، وان تعمد ـ كى تضعنى فى المركز اللائق بى ـ الى اجراء قد يقلل من حظهم من مالها !.. ذلك ان ابناء هذه الطبقة هم فى العادة أشد جشعا من ان يكونوا منصفين ، وتراهم ينظرون الى اية منحة لسواهم وكأنها حق استلب من مالهم الخاص ! ومن ثم فانهم تآمروا على اقصائى عن بصر السيدة . ولما كان غرامها بكتابة الرسائل قد صار بمثابة تسلية لها فى ضعفها الصحى ، فانهم أوحوا اليها بما جعلها تكره هذه الهواية ، وصرفوها عن المضى فيها مستعينين بنصح طبيبها ، وبالتثبيط من عزيمتها بزعم انها عملية جد مرهقة لها !.. ثم صوروا لها اننى لم اكن

افهم واجبى ، وبذلك اقنعوها بأن تعين فى مكانى خادمين لئيمين، كى يحملا مقعدها! وبايجاز ، فانهم تعمدوا ببراعة ان لا الج غرفتها طوال ثمانية أيام، هى الفترة التى كانت اثناءها تعد وصيتها ! ومن الصحيح اننى بعد هذه المدة عدت ادخل غرفتها كعهدى من قبل ، واخذت ابدى لها من الاهتمام فوق ما كان يبديه أى شخص سواى، اذ ان الآلام التى كانت تعانيها المسكينة اخذت تمزق قلبى ، والجلد الذى كانت تتحملها به اوحى الى بأن اوقرها واعطف عليها الى اقصى درجة .. حتى انى كثيرا ما كنت اذرف دموع الأسى صادقا فى غرفتى ، دون ان يرانى أحد !

واخيرا فقدناها . ورأيتها تجود بآخر انفاسها . وكما عاشت حياة امرأة موهوبة ذكية، فانها ماتت ميتة الفلاسفة . وبوسعى ان أقول انها الهمتنى تقديرا عاليا للعقيدة الكاثوليكية ، بفضل ما كانت تبديه من اقبال على اتباع تعاليمها ، دون اهمال او تصنع . كانت فى الواقع ذات طبع حاد ، وقد اخذت تبدى ــ فى نهاية مرضها ــ نوعا من الانشراح الذى كان انتظامه يوحى بأنه غير حقيقى ، فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة ، وسوى ثمرة من ثمار العقل . ومع انها لم تلزم فراشها الا فى اليومين الأخيرين ، الا انها ظلت تتحدث فى هدوء مع كل امرىء حتى النهاية . واخيرا، لم تعد تتكلم، ولكنها فى نزعات الموت صاحت بصوت مرتفع : « حسنا !.. ان المرأة التى تستطيع ان تطلق الغازات من امعائها ، لاتموت » .. وتقلبت فى فراشها، وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها !

.. ولقد تركت لصغار خدمها أجور عام كامل ، اما أنا فلم اتلق شيئا ، لاننى لم اكن فى قائمتهم ! على ان الكونت ديلا روك أمر باعطائى ثلاثين ليرة (١) ، كما ترك لى السترة الجديدة التى

---

(١) الليرة عملة قديمة كانت قيمتها تتباين بتباين الأزمان والأماكن ، وقد اطلق الاسم على « الفرنك » فى بعض الاوقات

كنت ارتديها ، والتى اراد السيد لورنزى ان يأخذها منى ! بل ان الكونت تكرم فوعد بأن يحاول ايجاد عمل لى ، واذن لى بأن اذهب لأراه ، وقد ذهبت مرتين أو ثلاثا ، دون ان اتمكن من التحدث اليه . ولما كنت سريع القنوط ، فاننى لم اذهب بعد ذلك . ولسوف يتبدى ـ بعد قليل ـ اننى كنت مخطئا .

وليتنى كنت استطيع ان انهى، عند هذا القدر، كل ما لدى من قول عن فترة اقامتى لدى مدام دى فيرسيللى !.. لكن الواقع اننى لم ابرح الدار كما دخلتها، وان ظلت حالى كما كانت. لقد حملت معى من الدار ذكريات باقية للجريمة، وعبئا لا يطاق من الندم ، لايزال يثقل ضميرى رغم مرور اربعين عاما ! وبدلا من ان تزداد مرارته ضعفا ووهنا ، اذا بها تقوى وتشتد كلما تقدمت بى السنون : **فمنذا يصدق ان غلطة صبيانية تؤدى الى مثل هذه التبعات القاسية ؟ التبعات التى كانت أفدح مما يخطر بالبال ، والتى لايجد قلبى عزاء من اجلها ؟.. ذلك اننى تسببت فى دمار فتاة لطيفة ، شريفة ، جديرة بالتقدير ـ بل كان من المؤكد انها تفوقنى جدارة ـ اذ دفعت بها الى الخزى والتعاسة !**

واليك القصة : ان من الأمور التى لا مناص منها ، ان تغير نظام بيت من البيوت خليق بأن يحدث شيئا من الفوضى فى البيت، فتضيع أشياء عديدة. ومع ذلك فان الخدم فى دار تلك السيدة كانوا من الامانة ـ كما كان لورنزى من اليقظة ـ بحيث ان شيئا لم يفتقد من دار مدام دى فيرسيللى عندما أحصى ما كان فيها . ولكن حدث ان الآنسة «بونتال» فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الاحمر والفضى . ولقد كانت تحت يدى اشياء كثيرة تفوق تلك القطعة فى القيمة ، غير ان هذه وحدها هى التى اغرتنى ، فسرقتها ! ولما كنت لم اجشم نفسى عناء اخفائها ، فانها سرعان ما وجدت .. وشاءوا ان يعرفوا كيف آلت الى حوزتى ، فاذا بى ارتبك ، وأتلعثم ، واذا بوجهى

يتفرج .. ثم قلت ــ فى النهــاية ــ ان « ماريون » اعطتنيها !
وكانت «ماريون» شابة من (مورين) اتخذتها مدام دى فيرسيللى طاهية لها عندما كفت عن اقامة الولائم فسرحت طاهيها واصبحت تكتفى بالحساء الجيد عن الاطعمة الشهية. ولم تكن «ماريون» هذه رشيقة فحسب ، بل كانت ذات لون حاضر ، لايوجد الا لدى اهل الجبال ، كما كانت تتصف ــ فوق كل شيء ــ بنوع من اللطف والتواضع، يستحيل معه على من يراها ان لايحبها!..
ثم انها كانت فتاة طيبة ، ورعة ، لا جــدال فى امانتها . لذلك دهش الجميع عندما ذكرت اسمها! وكان كل منا موضع ثقة ، لذلك كان من المهم ان يتبينوا من منا اللص الحقيقى ؟ ومن ثم استدعيت ، واجتمع نفر من القوم ، بينهم الكونت ديلا روك .
وعندما قدمت ، عرض عليها الشريط .. **واتهمتهــا فى جرأة ،**

فبهتت ، ولم تقو على ان تنبس ببنت شفة ، وانما اكتفت بأن رمقتنى بنظرة كانت كفيلة بأن تجرد ابليس ذاته من اسلحته، ولكن قلبى البهيمى كان منيعا دونها ! واخــيرا ، انكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة، ولكن دون غضب، وخاطبتنى فناشدتنى ان افكر، وان لا أشوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بى أى اذى. ولــكنى اصررت على قصتى ، فى قحة شيطــانية ، واعلنت فى وجهها انها هى التى اعطتنى الشريط ! . فشرعت المسكينة

تبكى، ولم تقل سوى : « آه ! كنت أظنك رجلا طيبا ياروسو. انك تشقينى كل الشقاء ، ولكنى لا أتمنى أن أكون فى موقفك!» .. وكان هذا كل ما عندها لى ، فقد راحت تدافع عن نفسها فى بساطة وحزم ، دون ان تسمح لنفسها بأن توجه الى أقل تأنيب أو لوم ! وادى هذا الاعتدال - بالقياس الى لهجتى الجازمة - الى ضررها ، فما كان من الطبيعى ان تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبى ، بوداعة ملائكية من جانبها ! ومع ان المسألة لم تسو نهائيا، الا انه بدا انهم جميعا مالوا الى جانبى، ولكنهم لم يضيعوا وقتهم فى التعمق فى المسألة، فى غمرة الفوضى التى كانت تسود الدار ، واكتفى الكونت ديلا روك - وهو يفصلنا معا من الخدمة - بأن قال ان ضمير المذنب خليق بأن يثأر للبرىء !.. ولقد تحققت نبوءته ، بل انها لتتحقق فى كل يوم !

ولست ادرى ما جرى لضحية اتهامى الزائف، ولكن من غير المحتمل انها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك ، فقد حملت معها وصمة لطخت شرفها بقسوة من كل النواحى . لقد كانت السرقة طفيفة تافهة ، ولكنها كانت - رغم ذلك - سرقة ! ومما زاد الطين بلة انها ارتكبت لاغواء شاب .. ثم ان الكذب والعناد لم يخلفا شيئا يرتجى من شخص اجتمعت فى نفسه كل هذه الرذائل ! بل اننى لا أظن ان التعاسة والنبذ هما اعظم الأخطار التى تسببت بفعلتى فى تعريض الفتاة لها ، فان المرء لا يستطيع ان يدرى مدى ما قد يدفع اليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة، فتاة فى مثل سنها!.. اواه ! اذا كان شعورى بالندم لا يطاق ، لمجرد احتمال اننى جعلتها تعسة ، ففى وسع المرء ان يقدر ما يخالجنى من شعور اذ اتصور اننى قد اكون دفعت الفتاة الى اسوأ من هذا المصير !

ان هذه الذكرى تقض راحتى وتمضنى فى بعض الأوقات ، الى درجة تجعلنى اخال - فى ساعات السهاد - ان الفتاة المسكينة

مقبلة لتلومني على جرمي ، وكأنني ارتكبت هذا الجرم بالأمس القريب ! ويخف عذاب هذه الذكرى طالما كنت اعيش فى هدوء ودعة ، ولكنها فى غمرة الحيـاة الصاخبة تسلبنى لذة العزاء ، وتجعلنى احس بما أذكر اننى قلته فى احد كتبى من ان « الندم يهجع عندما تكون حظوظنا فى ازدهار ، ويجعل عذابه محسوسا فى أوقات النوائب » ! .. ومع ذلك فاننى لم اقو البتة على ان احمل نفسى على ان افضفض عن صدرى ، بأن اعترف بالقصة لأحد من اصدقائى .. فان اوثق الود لم يصل بى يوما الى هذا الحد مع اى امرىء ، حتى مع مدام دى فاران . كل ما استطعته هو ان اعترفت بأن على ان الوم نفسى على عمل فظيع ، ولكنى لم افصح اطلاقا عن كنهـه ! . . ولقد ظل هـذا العبء يثقل ضميرى الى اليوم ، دون ان تخف وطأته ، وانى لأذهب الى حد التأكيد بأن الرغبة فى الخلاص منـه ـ الى حـد ما ـ ساهمت بدور كبير فى اقدامى على كتابة هذه « الاعترافات » !

لقد كنت صريحا أمينا فى الاعتراف الذى ذكرته ، ولسوف يتضح بالتأكيد اننى لم احاول أن أخفف قتامة جرمى . ولكنى لا احقق الهدف المرجو من هذا الكتاب اذا انا لم اعرض ـ فى الوقت ذاته ـ اعمق مشاعرى الدفينة ، واذا انا ترددت فى ان ابرر نفسى ، بحقائق محضة صادقة : فما كانت النية الخبيثة بمنأى عنى فى أية لحظة ، بقدر ماكانت فى تلك اللحظة القاسية .

ولقـد كان من الغريب ـ ولـكن من الصحيح ايضا فى الوقت نفسه ـ ان صداقتى للفتاة التعسة كانت هى السبب فى اننى اتهمتها !.. ذلك انها كانت ماثلة فى خاطرى ، فلم ار بدا من أن القى اللوم على أول شـخص قفز الى فكرى ، فاتهمتهـا بفعل ماكنت اعتزم فعله .. اتهمتها بأنها اعطتنى الشريط ، لأنى كنت اعتزم ان اعطيها اياه ! فلمـا رأيتها امامى ـ بعد ذلك ـ تمزق قلبى ، لكن وجود كل ذلك العدد من الناس كان أقوى تأثيرا على نفسى من التوبة ! . . وما كنت خائفا من العقاب ، وانما كنت

خائفا من العار ، فقد كنت ارهبه اكثر من الموت ، واكثر من الجريمة، واكثر من اى شىء آخر فى الدنيا !.. وكم كنت اغتبط لو ان الارض انشقت فجأة فابتلعتنى وخنقتنى ! وهكذا تغلب الخوف الطاغى من العار على كل شىء ، فلم يزدنى الا قحة .. اذ ان ازدياد اجرامى ، وازدياد نفورى من الاعتراف ، اديا الى انعدام خوفى من الافتراء ، فما عدت ارى امامى ــ اذ ذاك ــ سوى بشاعة الفضيحة ، وهتك سترى للملأ ، فى حضورى ، باعتبار اننى لص.. وكاذب.. ومفتر !.. ذلك ما كان الارتباك الشامل يجردنى من كل شعور سواه. ولو انهم اتاحوا لى فرصة استرد فيها رباطة جأشى، لما كان ثمة ريب فى اننى كنت اعترف اذ ذاك بكل شىء !.. لو ان السيد ديلا روك انتحى بى جانبا ، وقال لى : « لاتفسد على هذه الفتاة المسكينة حياتها .. اذا كنت مذنبا فاعترف لى »، لالقيت بنفسى فى الحال على قدميه. انى لموقن تماما من ذلك ! ولكننى حين افتقدت التشجيع ، لم الق منهم سوى الارهاب !

ثم ان الانصاف يدعو الى النظر بعين الاعتبار الى سنى ، فقد كنت يومئذ اقرب الى الطفولة منى الى الرجولة. والجرائم الحقيقية تكون فى الصغر اكثر اتصافا بالاجرام منها فى الكبر ، اما الجرائم التى لاتعدو ان تكون نزوات مبعثها الضعف ، فلا تكون فى الواقع ناجمة ــ لدى الصغار ــ عن روح اجرامية . ومن ثم فان العمل الذى ارتكبته لم يكن ــ فى جوهره ــ اكثر من «مخالفة» !.. وهكذا فان ذكراها لاتكربنى لما فيها من شر، بقدر ما تكربنى بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة . **على انها أحسنت فى الواقع ، اذ صانتنى بقية عمرى من كل عمل يميل الى الاجرام .. واحسنت الى بالأثر الرهيب الذى انطبع فى نفسى من جراء الذنب الوحيد الذى ارتكبته . وانى لأؤمن بأن استشناعى الكذب انما يرجع بدرجة كبيرة الى ندمى على اننى استطعت ان اقدم على مثل تلك الاكذوبة المخزية!**.. انه جرم

يمكن التكفير عنه ، بل انني لأجرؤ على القول بأنني قد كفرت عنه بكل الشقاءالذى طغى على السنوات الأخيرة من حياتى.. بأربعين عاما من الاستقامة فى اوعر الظروف !.. وان «ماريون» المسكينة لتجد فى الدنيا كثيرا من المنتقمين لها ، بل انهم لمن الكثرة بحيث اننى ـ مهما يكن عظم ذنبى ضدها ـ لم أعد أخاف ان اموت غير مستمتع بالغفران !

وهذا كل ما اود ان اقوله بهذا الصدد ، فاسمحوا لى بأن لا اعود الى الحديث قط فى هذا الموضوع !

الكراسة الثالثة

٥ – من سنة ١٧٢٨ الى سنة ١٧٣١

• **واذ تركت** دار مدام دى فيرسيللى فى حال قريبة من تلك التى كنت فيها حين دخلتها ، عدت الى صاحبة النزل التى كنت اقيم عندها من قبل ، فقضيت معها خمسة أسابيع أو ستة ، عادت خلالها الصحة والشباب والكسل الى اشاعة الاضطراب فى طباعى ، فأصبحت قلقا ، شارد الفكر ، حالما.. صرت أبكى ، واتنهد ، واتوق الى سعادة لم تكن لدى عنها اية فكرة ، ولكنى – مع ذلك – كنت أشعر بأننى راغب فيها ! ولا سبيل الى وصف هذه الحال ، بل ان الذين يستطيعون تصورها قليلون بين الناس ، يصبو معظمهم الى حياة تجمع بين العذاب والعذوبة ، وتخلق الشعور باللذة فى عنفوان الشوق . **وكان دمى الفائر يملأ مخى دائما بالنساء والفتيات . ولما كنت جاهلا بالعلاقات الجنسية ، فقد رحت استغل تلك الرؤى وفقا لأفكارى المتخبطة ، دون ان ادرى طريقة اخرى للافادة منها !**

•• **وقد استبقت هذه الأفكار مشاعرى فى حالة نشاط ممض، دون ان ترشدنى – لحسن الحظ – الى طريق الخلاص من**

هذه الحال .. ولقد كنت اذ ذاك على استعداد لأن اجود بكل حياتى مقابل العثور على ((آنســة دى جوتون)) اخرى ، ولو لربع ساعة ! ولكن الوقت الذى كان لهو الطفولة يتخذ فيه هذا الاتجاه ـ باعتباره الاتجاه الطبيعى ـ كان قــد ولى ! .. كان الشعور بالعار ـ وهو رفيق الضمير السىء ـ قد شرع يزداد ظهورا كلما تقدمت بى السنون ، مما ضاعف من خجلى الفطرى الى الدرجة التى لم اعد عندها أقوى على مغالبة هذا الخجل .. فما عدت اقوى اذ ذاك ـ ولا فيما بعد ـ على ان احمل نفسى على محاولة غــير بريئة ، اللهم الا اذا كانت تلك التى احاولهـا معها ، هى التى تضطرنى ـ بطريقة ما ـ الى الاقدام ، مهمـا اعرف انها متهتكة ، ومهما اشعر عن شبه يقــين بأنها ستتلقى محاولتى بالقبول !

ولقد اشتد اضطرابى حتى اننى ، لعجزى عن اشباع رغباتى ، اخذت استثير هذه الرغبات باكثر التصرفات شذوذا .. فكنت أهيم فى الأزقة المظلمة والدروب المستخفية ، حيث يحتمل ان يتاح لى ان اعرض نفسى على النسوة بالشكل الذى كنت ارجو أن أكون عليه معهن ! .. **على ان ما كن يرينه منى لم يكن منكرا مستقبحا ، فما خطر ببالى قط مثل هذا ، وانما كان ما يرينه سخفا ونزقا . ولا سبيل الى وصف السرور الأرعن الذى كنت استشعره من جراء عرضه عليهن !** .. ولم يكن باقيــا امامى سوى خطوة ضرورية اخرى ، ثم اكتسب خبرة واقعية بالمعاملة التى كنت أشتهيها . ولو اننى اوتيت جلدا على الانتظار ، لما كان ثمة شك فى ان يمر بى شــخص لديه من الجراة ما يكفى لأن ينيلنى المتعة المنشودة ! .. ولقد أفضت بى حماقتى الى ورطة كانت خليقة بأن تكون مضحكة لولا انها لم تكن مما يلائمنى !

ففى ذات يوم ، اتخذت مكانى فى مؤخرة ساحة قصر ، كانت بها بئر اعتادت بنات الدار ان ينقلن منها المـاء . وكان فى تلك البقعة منحدر بسيط يقود الى مخزن (كرار) خـلال مداخل

عدة ، ففحصت – فى الظلام – هـذه الدروب الممتـدة تحت مستوى الارض ، حتى اذا وجدتها طويلة ومعتمة ، استنتجت عدم وجود منفذ منها الى الخارج ، وان بوسعى ان أجـد فيها مخبأ امينا اذا انا شوهدت وطوردت . **واذ اطمأننت ، اخذت اعرض على الفتيات – اللاتى كن يفدن الى البئر – منظرا ادعى الى الضحك منه الى الاغواء ، فكان اكثرهن احتشاما يتظاهرن بأنهن لم يرين شيئا ، بينما شرعت بعض الفتيات فى الضحك، واستاءت اخريات فأحدثن جلبة** .. وهرعت الى مخبأى ،واذا بى اشعر بمن يتبعنى ، وسمعت صوت رجـل – وهو امر لم اكن اتوقعه ، وقد افزعنى – فاندفعت فى المسارب الممتدة تحت الارض ، معرضا نفسى لأن اضل السبيل ، ولـكن الضجيج ، والاصوات ، وصوت الرجل بالذات ، ظلت تتبعنى .. وكنت أعول باستمرار على الظلمة ، واذا بى ارى ضوءا ، فارتجفت ، وامعنت فى الايغال فى الظلام ، واذا بجـدار يستوقفنى ، حتى اذا عجزت عن التقدم ، اضطررت الى ان اقبع فى انتظار مصيرى . وان هى الا لحظة حتى امسك بى رجل طويل ذو شاربين كثين وقبعة كبيـرة وسيف طويل ، تحف به اربع او خمس نسوة عجوزات ، تسلحت كل منهن بيد مكنسة ، وبينهم جميعا لمحت الشقية الصغيرة التى كشفت امرى ، والتى كانت تبغى – دون ريب – ان تتشفى فى وجها لوجه !

وسألنى الرجل ذو السيف بخشونة ،وهو ممسك بذراعى ، عما كنت افعل فى ذلك المكان . ومن اليسير تصور اننى لم أجد جوابا حاضرا ، على اننى ما لبثت ان تمالكت جأشى ، وفى غمرة اليأس الذى الم بى فى تلك اللحظـة الحرجة ، انتحلت عـذرا خياليا لقى نجاحا ، فقد توسلت الى الرجل فى لهجة ضارعة ان يرحم سنى وحالى ، وقلت اننى كنت شابا غريبا ، من اصـل طيب ، وقـد أصبت بلوثة ، واضطررت الى الفـرار من اهلى لأنهم ارادوا ان يحبسونى ، وانتى ضائع لا محالة اذا هو وشى

بى .. اما اذا تركنى انصرف ، فقد استطيع يوما ان أجزيه لقاء كرمه . **وعلى النقيض من كل ما توقعت ، أحدثت كلماتى ولهجتى أثرها ، فاذا بقلب الرجل الرهيب يلين ، وبعد ان وجه الى توبيخا قصيرا ، تركنى أنصرف فى سلام ، دون ان يمضى فى سؤالى !** وادركت من مسلك الفتاة والعجوزات — حين رأيننى انصرف — ان الرجل الذى خفت منه كل ذلك الخوف ، كان عظيم النفع لى ، واننى ما كنت لأفلت بهذه السهولة لو تركت للنسوة وحدهن ! فقد سمعتهن يتمتمن بحديث لم اكد القى اليه بالا ، فقد كنت اشعر — ما دام الرجل وسيفه لم يتدخلا فى الامر — باعتداد ، ونشاط ، وقوة تمكننى من الافلات منهن ومن هراواتهن !

وبعد أيام قلائل ، بينما كنت أسير فى احدى الطرقات ، مع رئيس احد الاديرة المجاورة ، كدت أصطدم بالرجل ذى السيف !.. وعرفنى الرجل ، فقال يقلدنى بلهجة ساخرة : « اننى أمير ، اننى أمير ، وانى لجبان . . ولكن ، حذار من ان يعود صاحب السمو مرة اخرى ! » . ولم يزد على ذلك،بينما نكست انا رأسى ومضيت فى طريقى دون ان أجسر على التطلع اليه ، وانا أحمد له — فى قرارة قلبى — حكمته وتسامحه . وحدست ان العجوزات اللعينات قد عيرنه بسذاجته اذ صدق روايتى ! وكيفما كان الامر ، فانه كان رجلا طيبا ، رغم انه من (بييمونت) ، وما تذكرته قط الا وشكرت له صنيعه ، لأن قصتى كانت ساذجة ، وكان اى امرىء فى مكانه خليقا بأن يعيرنى بها ، ولو رغبة فى اثارة الضحك. ومع ان هذه المغامرة لم تنته الى العواقب التى كنت اخشاها ، الا انها جعلتنى ألزم الحذر وقتا طويلا !

وكانت اقامتى لدى مدام دى فيرسيللى قد أكسبتنى بعض المعارف الذين وثقت صلاتى بهم أملا فى ان يستطيعوا لى نفعا. وكان بين الذين اخذت ازورهم منهم ، راهب من ابناء (سافوا)

رسم بريشة الفنان « مورو » المعاصر لروسو ، أعده لتزيين الفصل الذى كتبه الأديب عن « أسقف سافوا »

يدعى السيد «جايم»، كان معلما لأبناء «الكونت دى ميللاريد».
وكان لايزال شابا ، وقد اعتاد ان يختلط قليلا بالمجتمع، ولكنه كان مفعما بالادراك السليم ، والأمانة ، والذكاء ، كما كان من اشرف الرجال الذين عرفتهم . ولم يكن ذا نفع لى فى الغرض الذى حملنى على زيارته، اذ لم يكن لديه اى اهتمام يدفعه الى ان يبحث لى عن منصب . بيد اننى اكتسبت منه منافع اكثر قيمة من ذلك ، اذ ظل نفعها يلازمنى طيلة حياتى .. اكتسبت منه دروسا فى الاخلاق القويمة ومبادىء الادراك السليم . فلقد كنت ، فى ميولى وافكارى المتقلبة، اسرف فى الارتفاع أو اسف فى الانحدار .. فأنا اما «أخيل» او « ثيرسايتز » (١) .. كنت بطلا فى بعض الاحيان ، وتافها ـ امعة ـ فى احيان اخرى، وقد آلى السيد «جايم» على نفسه ان يردنى الى مكانى اللائق بى، وان يطلعنى على نفسى فى الوانها الحقيقية ، دون ما اسراف أو تثبيط . كان يحدثنى عن مواهبى فيوليها ما كانت جديرة به من تقدير ، ولكنه كان يضيف الى ذلك انه كان يرى عقبات تنبعث منها وتحول بينى وبين الافادة منها على خير وجوه الافادة ، ومن ثم فانها خليقة بأن تكون اقل نفعا لى ، كسلم ارقى عليها الى الثروة والحظ ، منها كأداة تغنينى عن هذا الحظ وهذه الثروة !.. وبسط الراهب امامى صورة صادقة للحياة الانسانية ، التى لم تكن لدى عنها سوى أفكار زائفة ،

---

(١) « اخيل » بطل اغريقى ، هو الشخصية الرئيسية فى « الياذة » هوميروس . وكان من اشجع واجمل ابطال الاغريق ، وقد اشترك فى حرب طروادة . اما « ثيرسايتز » فكان اقبح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجدالا ، وقد قتله أخيل . والذى يقصده « روسو » من عبارته هنا انه كان لا يعرف اعتدالا فى تلك الفترة من حياته ، فهو اما مسرف فى الشجاعة ونبل النفس ، واما مسرف فى بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة فى الجدال عن حق او عن باطل !

فأرانى كيف يستطيع الرجل العاقل ان يكافح من اجل السعادة ـ وسط تيارات القدر المعاكسة ـ وان يدفع زورق حياته رغم الرياح المضادة ، لكى يصل اليها . وبين لى كيف انه لا وجود للسعادة الحقة بدون الفطنة والدراية، وان هذه الفطنة أو الدراية تتعلق بكل ظروف الحياة . وبدد محدثى اعجابى بالعظمة والابهة الظاهريتين ، اذ أثبت لى ان اولئك الذين يتبوأون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا اوفر حكمة وعقلا من المحكومين .. **كذلك انبأنى بشىء، كثيرا ما تذكرته منذ ذلك الحين : لو اتيح لكل امرىء ان يطلع على قلوب غيره من البشر جميعا، لاتضح ان عدد الراغبين فى الهبوط يفوق عدد الراغبين فى الصعود فى هذه الحياة !** وهذا الخاطر ـ الذى يذهل صدقه العقل ، والذى لاينطوى على مغالاة ـ ظل ذا نفع كبير لى خلال مجرى حياتى ، اذ ساعدنى على ان أعيش راضيا بمكانى فى الحياة!.. لقد اطلعنى هذا الراهب على اول الافكار الصحيحة عما هو مشرف ، مما لم يتح لذكائى المتضخم ان يلم به الا فى اكثر صوره مغالاة ومبالغة . فجعلنى أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرا ما يرى فى المجتمع .. وان المرء اذ يحاول ان يسرف فى العلو ، يغدو معرضا لخطر السقوط .. وان تعود أداء الواجبات الضئيلة باستمرار ، وعلى خير وجه ، لايتطلب مجهودا اقل من ذاك الذى تتطلبه اعمال البطولة ، ولكن المرء يكسب من الاولى تبجيلا وهناء يفوقان ما يكسبه من الأخيرة.. وان استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته فى جميع الأوقات، يفوق على طول الخط استمتاعه باعجابهم فى مناسبات عابرة !

وفى سبيل تحديد واجبات الانسان ، كان لابد من العودة الى اصول تلك الواجبات .. كما ان الخطوة التى اتخذتها قبل ذلك مباشرة ، والتى كانت حالى الراهنة من نتائجها ، أفضت بنا الى الحديث فى الدين . ومن الممكن ان يتصور القارىء عند هذا الحد ان السيد جايم الفاضل، هو ـ الى حد كبير على الأقل

ـ الأصل الذى قبست عنه شخصية « اسقف سافوا » (١) ولم يكن يقتصد فى صراحته وانطلاقه فى الحديث ، الا فى نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون اكثر تحفظا فى كلامه . وفيما عدا ذلك ، كانت عظاته واحاسيسه واراؤه هى هى لاتتبدل ، وكان كل شىء ـ حتى نصحه لى بالعودة الى اهلى ـ يتسم بما صورته به للرأى العام منذ ذلك الحين . لذلك ، فلا حاجة الى التوسع فى سرد محادثاتنا ، اذ ان مادتها فى متناول كل امرىء، **وانما أكتفى بأن اقول ان دروسه ـ التى لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره فى البداية ـ أصبحت من بذور الفضيلة والدين التى لم تذو قط فى فؤادى ، والتى لم تحتج الى اكثر من رعاية يد أخرى عزيزة حبيبة ، كى تثمر وتزدهر!**

ومع ان تحولى الى العقيدة الكاثوليكية لم يكن ـ فى ذلك الحين ـ تحولا كاملا ، الا ان هذا لم يحرجنى فى شىء . وبدلا من ان اشعر بالملل من احاديث السيد جايم ، وجدتنى أشغف بها لوضوحها وبساطتها ، ولذلك القدر من حرارة القلب التى كنت أحس انها تزخر بها . . ولقد أوتيت طبعا ودودا ، وكان تعلقى بالناس دائما ، بسبب الخير الذى أدوه لى ، أقل من تعلقى بهم من جراء الخير الذى كانوا يرجونه لى . ونادرا ما اخطأ شعورى تقدير هذا الأخير . وكذلك كنت صادق الميل للسيد جايم ، فكنت فى الواقع تلميذه الثانى ، وكان لهذا الامر ـ فى تلك الفترة ـ فائدة لاتقدر ، اذ حال بينى وبين الميل الى الرذيلة التى كان تعطلى عن العمل يجتذبنى اليها !

وفى ذات يوم ، تلقيت استدعاء من الكونت ديلا روك، وكان هذا آخر ما اتوقعه . فان الزيارات العديدة التى قمت بها دون ان اتمكن من الحديث اليه ايأستنى منه . فكففت عن

---

(١) اسقف سافوا هو احد شخصيات كتاب روسو المعروف : « اميل »

الذهاب الى داره ، وظننت انه نسينى ، أو انه احتفظ بفكرة سيئة عنى . ولكنى كنت مخطئا ، فانه كان قد شهد ــ اكثر من مرة ــ السرور الذى كنت أؤدى به واجباتى لعمته .. بل انه ذهب الى حد ان حدثها عن هذا السرور، كما انه تكلم معى بشأنه فى وقت كنت قد نسيته فيه !.. ولقد تلقانى فى رفق، وانبأنى بأنه رأى ان يدبر لى بالفعل منصبا ــ بدلا من ان يمنينى بوعود لاتقترن بتنفيذ ــ وانه قد وفق فى مسعاه ، وسيعيننى فى منصب يمكننى من ان اغدو انسانا ذا قيمــة ، وان ما بقى بعد ذلك رهن باجتهادى . **فان الأسرة التى سعى لى عندها كانت ذات نفوذ ومكانة ، ولن احتاج الى وساطة اخرى لديها. ثم أضاف اننى ــ وان كنت سأعامل فى البداية كخادم ، كما كان شأنى من قبــل ــ الا اننى خليق بأن اطمئن الى انهم على اتم استعداد لأن لايستبقونى فى هذا المركز اذا ما استطاع خلقى وسلوكى ان يحملاهم على ان يروا اننى أصلح لعمل أفضل .**

وخيبت خاتمــة الحديث بقسوة ما أوحت الى به بدايتــه من آمال مشرقة ، فقلت لنفسى : « ماذا ؟.. أظل خادما دائما ؟!»، وخامرنى احساس بسخط مرير ، لم تلبث الثقــة ان محته ، فقد شعرت باننى اقل صلاحية لمثل هذا المركز من ان أخشى ان اظل فيه ! (١) .

واصطحبنى محدثى الى الكونت دى جوفون، رئيس ركائب الملكة ، وكبير بيت « سولار » الباذخ ، فاذا الروح الشماء التى اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من اثر حفاوته. وسألنى فى اهتمام ، فأجبته فى اخلاص صادق. وقال للكونت ديلاروك ان لى ملامح تروق للعين ، وتبشر بالذكاء ، وانه ــ فى الواقع ــ

---

(١) يقصد ان قلة صلاحيته لمنصب الخادم كانت كفيلة بأن لا يتقن مهامه اتقانا يرضى مخدوميه ، وهذا يؤدى الى احدى نتيجتين : اما ان يسرحوه ، واما ان يقدروا ان مواهبه تؤهله لمنصب ارقى .

لايرى اننى تنقصنى هذه الموهبة، ولكنها ليست كل شىء،ومن ثم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليـه فى كافة النواحى الاخرى . ثم التفت نحوى وقال : « ان البـداية شاقة فى كل الأمور تقريبا ياصغيرى،على انمشقتها لن تذهب ـ فى حالتك ـ الى مدى بعيد . كن أريبا ، واسع الى ارضاء كل واحد هنا ، وهذا كل ما عليك ان تفعله فىالوقت الحاضر. وفيما عدا هذا، كن مقداما ، تجد رعاية ! » .. **وذهب بعـد ذلك مباشرة الى المركيزة « دى بريى » ـ زوجة ابنـه ـ فقـدمنى اليها ، ثم قدمنى الى الأب دى جوفون ، ابنه.. ولاحت لى هذه البداية مؤذنة بالخير ، فقد كنت من التجـربة بحيث أدرك أن الخدم لايلقون كل هذه الحفاوة** . والواقع اننى لم أعامل كواحـد من الخدم ، بل كنتأتناول وجباتى علىمائدة وكيل اعمالالكونت، ولم اكن ارتدى الزى المخصص للخدم . وعندما ارادنى الكونت دى فافريا ـ وهو شاب احمق خاوى الرأس ـ على ان اركب فى مؤخرة عربته ، حرم جـده ركوبى خلف عربة أى فرد ، أو قيامى بخدمة احد خارج الدار ! على اننى كنت ـ فى الدار ـ اتكفل بالخدمة على المـائدة ، وأمارس كافة واجبـات الخدم تقريبا ، بيد اننى كنت اقوم بذلك متطوعا الى حد كبير ، دون ان اكون ملحقا بخدمة فرد معـين . وفيما عـدا كتابة بعض الخطـابات التى كانت تملى على ، وتسجيل بعض الحسـابات للكونت دى فافريا ، فاننى كنت حـر التصرف فى وقتى طيلة اليوم تقريبا . وكان هذا (الامتحان) الذى لم افطن اليه، عظيم الخطورة فى الحقيقة ، بل انه كان بعيدا عن الرحمة ، لأن هذا الفراغ الطويل كان خليقـا بأن يقودنى الى رذائل ما كان لى ان أقارفها . على ان هذا لم يحدث ، لحسن حظى، اذ ان دروس السيد جايم كانت قـد خلفت أثرا مطبوعا على قلبى ، وقـد تولانى ميل اليهـا كان يدفعنى ـ فى بعض الأوقات ـ الى ان أتسلل فأذهب للاصغاء اليها ثانية . واعتقـد ان اولئك الذين

كانوا يروننى ابارح الدار سرا ، لم تكن لتخطر ببالهم اقل فكرة عن المكان الذى كنت اذهب اليه . وما كان ثمة ما هو احكم من النصيحة التى ازجاها الراهب الى بصدد مسلكى : فلقد بدات عملى بداية تدعو الى الاعجاب ، وابديت من الاجتهاد ، واليقظة والتحمس ، ماسحر كل امرىء . **فنصحنى الراهب — عن فطنة — بان اخفف من اندفاع الشباب ، خشية ان يخف من تلقاء نفسه تدريجا ، مما قد يسترعى الانتباه . وقال : « ان القاعدة بأن يقاس تصرفك بالقدر الذى بدأت به ، فحاول ان تدبر امرك بحيث يزداد جهدك بمضى الزمن ، ولكن حذار من ان يقل مجهودك يوما عنه فى اليوم الذى سبقه ! »**

واذ لم يتجشم احد عناء اكتشاف مواهبى المسكينة ، ولما لم اكن قد أعتبرت ذا مواهب سوى تلك التى اضفتها على الطبيعة ، لذلك لم يبد لى ان احدا قد فكر فى ان يفيد منى ، رغم ما كان السيد جوفون قد انبأنى به . وما لبثت ان جدت امور جعلتنى منسيا تقريبا .. وفى ذلك الحين كان « المركيز دى بريى » ، ابن « الكونت دى جوفون » ، سفيرا فى فيينا . وقد وقعت احداث فى البلاط تركت آثارا محسوسة فى الاسرة ، فاذا بكل فرد يظل فى حالة انفعال لبضعة اسابيع ، مما لم يدع لأحد وقتا لأن يفكر فى شأنى . على اننى لم اكن قد خففت من حميتى فى العمل — حتى ذلك الحين — الا قليلا .. وكان ثمة أمر افادنى وأضر بى فى آن واحد : افادنى فى انه حفظنى من المغريات الخارجية .. وأضر بى فى انه جعلنى أقل انتباها الى واجباتى بعض الشىء !

كانت الآنسة « دى بريى » شابة فى مثل سنى ، بديعة التكوين ، مليحة المنظر الى حد كبير ، نضرة المحيا ، ذات شعر حالك السواد .. ومع انها كانت سمراء ، الا انها اوتيت مظهرا رقيقا تمتاز به الشقراوات عادة ، ولم يكن قلبى يقوى على مقاومته اطلاقا ! وكان الزى الذى ترتديه كعضو فى البلاط

الملكى يلائم الشباب تمـاما ، ويبدى قوامهـا الجميل فى أبهى مظاهره ، ويترك صدرها وكتفيها عارية، ويجعل بشرتها اكثر فتنة ، نظرا للحداد الذى كانت تتسم به ثياب الحاشية فى ذلك الوقت . وقد يقال انه ليس من شأن الخادم ان يلاحظ هذه الأشياء ، وقد كنت مخطئا بلا ريب ، ولـكنى لاحظتها جميعا مع ذلك ، ولم اكن الوحيد الذى لاحظها. فقد كان كبير الخدم، والوصفاء ، يتحدثون عنها على المائدة احيانا ، فى لهجة خشنة كانت تؤذى شعورى بدرجة قاسية . ومع ذلك فان عقلى لم يفقد اتزانه فيوقعنى فى الحب بكل سهولة ، بل اننى لم أنس نفسى ، ولم أنس مكانى ومركزى ، كما ان رغباتى لم تكن تلقى من الحرية اكثرمما ينبغى!.. **وانما كنت أحب أن أرى الآنسة دى بريى ، وان اسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن ذكائها وحسن ادراكها وتواضعها . ولقد اقتصر طموحى على متعـة القيام بخدمتها ، فلم اتجاوز حدودى .** وكنت انتهـز الفرص دائما ــ عنـدما تجتمع الأسرة حول المـائدة ــ لتعزيز هـذه الحدود ، فاذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة، بادرت لفورى الى شغل مكانه . وفيما عـدا ذلك كنت اتخذ موقفى فى مواجهتها ، واحدق فى عينيهـا لأرى ما توشك ان تطلبه، وارقب اللحظة المناسبة لابدال طبقها.. وأى شىء كنت احجم عن اتيانه لو انها تنازلت فألقت على امرا، او نظرت الى، او وجهت الى كلمة واحدة ؟ ! .. ولكن ، لا ! كان مقضيا على بأن لا اكون شيئا يذكر لديها ! بل انها لم تكن تلاحظ وجودى! ومع ذلك فقد حدث فى احدى المناسبات ان وجه أخوها ــ الذى اعتاد ان يكلمنى احيـانا وهو جالس الى المـائدة ــ عبارة غير مهذبة الى ، فرددت عليه بكلمات منتقاة ، دقيقة التعبير ، **الى درجة جعلت الآنسة تنتبـه فتحول بصرها نحوى . ومع ان هذه النظرة كانت خاطفة ، الا انها سحرتنى !.. وفى اليوم التالى، سنحت فرصة للفوز بنظرة ثانية ، فسارعت الى استغلالها :**

فلقد اقيمت وليمة عشاء كبرى لمناسبة معينة، فرأيت اثناءها ـ لأول مرة ـ ان رئيس الخدم كان يرتدى قبعته على رأسه، وسيفه الى جانبه ، مما أدهشنى ! وتحول الحديث مصادفة الى العبارة التى كان بيت « سولار » يتخذها شعارا ، والتى كانت منقوشة على الرسم الذى تألف منه رمز الأسرة ، وهى عبارة : Tel fiert qui ne tue pas . ولما كان أهل (بييمونت) غير متفقهين فى اللغة الفرنسية ، فقد اشار واحد من الحضور الى وجود غلطة هجائية فى الشعار ، واعلن انه يجب ان لايكون ثمة (T) فى كلمة fiert . وهم كونت دى جوفون الشيخ بأن يجيب، لولا ان لاحتمنه نظرة نحوى، فرآنى أبتسم دون ان أجسر على ان أقول شيئا ، فأمرنى بأن اتكلم . ومن ثم قلت اننى لا اعتقد ان حرف (T) لم يكن ضروريا ، اذ أن الكلمة من الفرنسية القديمة ، وليست مشتقة من ferus ، (ومعناها متكبر أو متوعد)، وانماكانت مشتقة من ferit ، ومعناها يضرب أو يجرح . ومن ثم فان معنى الشعار ـ كما بدا لى ـ لم يكن : كم من رجال توعدوا ، وانما .. كم من رجال ضربوا ولم يقتلوا !

والتفت افراد الجماعة بأسرهم نحوى ، ثم التفتوا الى انفسهم ، دون ان ينبسوا ببنت شفة . أبدا مارأيت فى حياتى مثل هذه الدهشة ! **ولكن اكثر ما استخف زهوى ، هو انى رأيت من اسارير الآنسة «دى بريى» انها كانت جد مسرورة. وتنازلت هذه السيدة الشابة المترفعة فرمتنى بنظرة ثانية كانت مساوية ـ على الأقل ـ للأولى ، ثم ادارت عينيها نحو جدها.** وبدا انها كانت تنتظر، فى شىء من عدم الصبر، المجاملة التى كنت استحقها، والتى قدمها الجد الى ـ فى الحق ـ كاملة وافية ، وفى مظهر من الرضى جعل الحضور يسارعون جميعا الى الانضمام اليه . وكانت اللحظة وجيزة ، ولكنها كانت من اعذب اللحظات من جميع الاعتبارات . كانت من تلك اللحظات

التى لاتسنح الا نادرا جـدا ، والتى تضـع الأمور فى نصابهـا الطبيعي وتعوض اهانات القدر ، وتثأر للـكفاءة التي لم تـكن تلقى تقديرا . وبعد دقائق معدودة ، سألتنى الآنسة دى بريي فى صـوت واهن مستحيى ـ وهى ترفع عينيهـا نحوى مرة اخرى ـ أن أناولها بعض الشراب. ولست بحاجة الى انأقول اننى لم ادعها تنتظر ، **ولكنى ارتجفت بعنف وانا اقترب منها ، حتى اننى ارقت بعض الماء على طبقها ، بل وعليها . وسألنى**

شقيقها ـ فى غبـاء ـ عن السر فى ارتجـافى . ولم يفلح هـذا السؤال فىان يرد الى جلدى، بينما تضرجوجه الآنسة دىبريى حتى طفى الاحمرار على بياض عينيها !

وعند هذا انتهت هذه المغامرة الغراميـة التى يلاحظ منها ـ كما كان الأمر فى حالة مدام بازيل وخلال بقية حياتى ـ اننى لم اكن سعيدا فىختام غرامياتى !..وعبثا صرت ابدى اهتماما بالحجرة الملحقةبمخدع مدام دى بريى ـ الام ـ فاننى لم احظ بأية بادرة اخرىتنم عن انتباه ابنتها الى! فقدكانت تلجالحجرة وتغادرها دون ان تنظر الى .. كما اننى ـ من ناحيتى ـ كنت لا اكاد اجسر على ان اتجه بعينى نحوها. بللقد بلغ من غبائى وارتباكى اننى عندما وقع منها قفازها وهى تمر بى ذات يوم، لم اجسر على مبارحة مكانى ، بدلا من ان اندفع لالتقاط هذا

القفاز الذى كنت أتمنى ان أكسوه بقبلاتى ، وتركت وصيفا فضوليا ـ كنت على استعداد لأن أخنقه بكل سرور ـ يلتقطه!.. ومما ضاعف انفعالى ، أن تبينت اننى لم احظ بارضاء مدام دى بريى ، فلم تقتصر على عدم اصدار اوامر الى ، بل انها لم تعد تتقبل خدماتى البتة ، وسألتنى بلهجة فاترة اذ وجدتنى فى الحجرة الملحقة بمخدعها ـ فى مناسبتين ـ عما اذا كنت لا اجد عملا آخر يشغلنى ؟ ومن ثم اضطررت الى تجنب هذه الحجرة . وقد تحسرت على ذلك فى البداية ، ولكن الشواغل تدخلت فسرعان ما كففت عن التفكير فيها !

وسرى عنى برود « مدام دى بريى » كرم حميها ، الذى انتبه اخيرا الى وجودى : ففى ليلة المأدبة التى ذكرتها ، تبادل معى حديثا عقب العشاء لنصف ساعة . وبدا ان الحديث ارضاه ، فطربت لذلك . كان هذا الشيخ الطيب أرق قلبا من مدام دى فيرسيللى ـ وان لم يكن موهوبا مثلها ـ وقد كنت معه أحسن حالا مما كنت معها ، وقد طلب الى أن أكون خادما خاصا للأب دى جوفون ـ الذى كان يولينى بعض الاعتبار ـ عسى ان يفيدنى ذلك اذا أنا احسنت استغلاله ، فيساعدنى على اكتساب ماكان ينقصنى حتى يهيئنى لما كانوا يعتزمونه لى . ومن ثم أسرعت ـ فى الصباح التالى ـ الى الراهب ، فلم يستقبلنى كخادم ، وانما حملنى على الجلوس الى جانب المدفأة ، واخذ يسألنى بأعظم لطف ، فسرعان ما تبين ان تعلمى ـ الذى كنت قد بدأته فى كثير من الأمور ـ لم يكن مكتملا فى اى شىء . وحين وجد اننى كنت ـ بوجه خاص ـ على المام قليل باللغة اللاتينية ، تكفل بتلقينى مزيدا منها . واتفقنا على ان اذهب اليه فى كل صباح ، فبدأت من الصباح التالى مباشرة . **وهكذا كنت ـ باحدى تلك المصادفات الغريبة التى ستظهر كثيرا فى مجرى حياتى ـ فوق مكانتى وتحتها فى آن واحد ! كنت تلميذا ووصيفا فى بيت واحد ! وبينما ظللت خادما ، حظيت بمدرس كان نبل**

محتده خليقا بأن يجعله استاذا لأبناء الملوك ، ولا أقل منهم !

كان الاب دي جوفون ابنا اصغر فى اسرته ، أعده اهله ليكون اسقفا ، ولهذا السبب فان دراساته لم تذهب الى ابعد من القدر المعتاد لدى ابناء علية القوم . فقد اوفد الى جامعة (سيينا) ، حيث مكث عدة سنوات ، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ ، ومن ثم فانه كان يؤدى فى (تورين) نفس الدور الذى كان يؤديه الأب دى دانجو (١) فى باريس . وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت الى دراسة الآداب ، وهو أمر جد مألوف فى ايطاليا لدى اولئك الذين يتعلمون ليشغلوا مناصب دينية . وقد قرأ انتاج الشعراء فى اهتمام ووعى ، وكتب أشعارا لاتينية وايطالية مقبولة . وبايجاز ، كان لديه ذوق كاف لأن يشكل ذوقى ، ويدخل شيئا من التنظيم على الركام المهوشى الذى كان رأسى محشوا به . على انه ــ اما لأن ثرثرتى اعطته فكرة زائفة عن درايتى ، او لأنه لم يكن يطيق مبادىء اللاتينية المضجرة ــ قد جعلنى ابدأ بداية تفوق المستوى الذى كنت فيه بكثير ، وما ان جعلنى اترجم بضع اساطير عن « فيدروس » ، حتى زج بى فى اشعار «فيرجيل» التى لم أكد افقه منها شيئا ! ولقد كان مقدورا على دائما ــ كما سيتجلى فيما بعد ــ ان اشرع فى تعلم اللاتينية من جديد ، اكثر من مرة ، دون ان اسير فى الشوط الى غايته . على اننى ، فى هذه المرة ، اجتهدت فى حمية ، فأخذ الراهب يسبغ اهتمامه على فى عطف لا استطيع ــ حتى اليوم ــ ان اذكره دون ان يخفق قلبى تأثرا ! .. صرت اقضى شطرا كبيرا من فترة الصباح معه ، لأتلقى العلم ولأؤدى للسيد الخدمات . ولم تكن هذه الخدمات

---

(١) الأب دى دانجو كان من اعضاء المجمع اللغوى الفرنسى ـ الاكاديمى فرانسيز ـ فى منتصف القرن السابق على تلك الفترة ، وقد الف رسائل فى قواعد اللغة الفرنسية

شخصية ، فما سمح لى البتة بأن اؤدى هذا النوع ، وانما كنت اكتب ما يمليه على وانسخ ما يعهد به الى ، **فكانت واجباتى كسكرتير اكثر نفعا لى من دراساتى كتلميذ ! .. فاننى — بهذه الطريقة — لم اتعلم الايطالية فى أرقى اساليب بلاغتها فحسب، وانما اقتبست ذوقا ادبيا ، واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التى كان من المستحيل الحصول عليها من مكتبة « لاتربيو » ، والتى كانت عظيمة النفع لى فيما بعد ، عندما شرعت فى الاعتماد على نفسي فى التأليف !**

تلك كانت الفترة الوحيدة فى حياتى التى كان من المعقول ان اطمع فيها فى النجاح ، دون ما مشروعات خيالية ! .. واخذ الراهب — الذى كان جد راض عنى — يحدث كل شخص عن ذكائى . وأولانى ابوه تقديرا خاصا ، حتى لقد ذكر لى الكونت دى فافريا انه تحدث عنى الى الملك ! .. حتى «مدام دى بريى» تخلت عن مسلكها المهين نحوى . وبايجاز ، أصبحت ذا حظوة فى الدار ، مما أثار غيرة الخدم الآخرين ، الذين ادركوا — اذ رأونى اتشرف بتلقى الدروس على يدى ابن مولاهم — انه لم يعد مقدرا لى أن أبقى واحدا منهم !

وبقدر ما امكننى ان أحدس عن وجهات النظر التى كانت تعالج امرى — من بضع كلمات كانت تلقى الى فى عجلة ، ولم افكر فيها مليا الا فيما بعد — يبدو لى ان آل « سولار » كانوا تواقين الى مناصب السفارات ، وربما الى المناصب الوزارية فى المستقبل ، ومن ثم فقد كانوا على استعداد لأن يتولوا — بكل سرور — تعليم شخص موهوب ، جدير بالثقة ، يصبح فيما بعد — لاعتماده المطلق على أسرتهم فى معاشه — مستودع ثقتها ، ويستطيع ان يخدمها باخلاص . وكان هذا المشروع من الكونت دى جوفون مشروعا نبيلا حكيما كريما ، جديرا حقا بأن يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر . وغنى عن الذكر اننى — اذ ذاك — لم استطع ان أحيط بكل نطاقه ، فقد كان فوق

مستوى ادراكى ، كما انه كان يتطلب فترة طويلة من التبعية والانصياع . وكان طموحى الأرعن لا يرى الحظ الحسن الا فى وسط المغامرات ! **ولما لم يكن لأية امرأة شأن بهذا المشروع ، فقد بدت لى هذه الوسيلة من وسائل النجاح بطيئة ، ومضنية ، وكئيبة .. فى حين انه كان خليقا بى ان أعتبرها آمن واشرف من اية وسيلة اخرى ، لنفس السبب الذى ذكرته ، عن عدم تدخل النساء فيها ، فان ذلك النوع من الجدارة الذى تقبل النساء على بسط حمايتهن عليه ، لا يتسم بالطابع الشريف الرفيع الذى يتسم به النوع الذى كان مفترضا اننى امتلكه !**

ومضى كل شىء على ابدع حال ، فاكتسبت احترام الجميع ، او بالأحرى انتزعته تقريبا ! وانقضت فترة الاختبار ، واصبحت مرموقا فى الدار — بوجه عام — كشاب يبشر مستقبله بخير عظيم . ولئن كان قد قدر له ان لا يشغل المركز الجدير به ، فان كل امرىء كان يتوقع ان يرقى الى هذا المركز . بيد ان مكانى لم يكن ذاك الذى قدره لى الجميع ، وقد كتب على ان لا ابلغه الا عن طريق جد وعرة .. وهذا يفضى بى الى خلة من تلك الخلال الشخصية التى امتزت بها ، والتى لا احتاج الى اكثر من ان ابسطها للقارىء دون مزيد من الاسهاب :

ذلك انه بالرغم من ان (تورين) كانت تضم كثيرين سواى ممن اعتنقوا الكثلكة حديثا ، الا أننى لم أكن أميل اليهم ، ولم اسع قط الى لقاء أحد منهم . على اننى كنت قد عرفت — فيمن تعرفت اليهم — شخصا من اهل (جنيف) يدعى السيد « موسار » ، ويلقب ب « ذى الفم الأعوج » ، وكان من رسامى التحف الدقيقة ، وذا صلة بى . وقد تبين اننى كنت أقيم لدى الكونت دى جوفون ، فجاء ليرانى مع شخص آخر من (جنيف) يدعى «باكل» ، كنت زميلا له حين كنت اتدرب على الحرفة . وكان « باكل » هذا مسليا ، شديد المرح ، راوية للفكاهات والنوادر التى كانت تبدو مستملحة لمن فى مثل سنه . ومن ثم ،

فان لكم ان تتصوروا كيف افتتنت فجأة بالسيد باكل الى درجة لم اعد معها اقوى على ان افارقه ! .. وكان قد اعتزم الرحيل عائدا الى (جنيف) بعد وقت قصير ، فيا للخسارة التى خيل الى اننى سأمنى بها ! .. واذ تبينت مداها ، رايت ان أفيد الى اقصى حد ـ على الاقل ـ من الوقت الباقى قبل رحيله ، فلم اكن افارق جواره اطلاقا ، او بالاحرى انه هو الذى لم يكن يفارقنى ، لأننى ـ فى البداية ـ لم ابلغ من الطيش الحد الذى كان يجعلنى اقضى اليوم كله معه خارج القصر دون اذن.

على انهم سرعان ما تبينوا انه كان يشغل كل وقتى ، فحرموا عليه ولوج الدار ، مما أثار حنقى فنسيت كل شىء عدا صديقى باكل ، ولم أعد أقترب من الراهب أو الكونت ، ولم أعد أشاهد فى الدار ! بل اننى لم أكترث للوم والتأنيب ، فأنذرت بالطرد.. وكان فى ذلك دمارى ، اذ اغرانى بأن من الممكن ان لا يرحل ((باكل)) دون رفيق ! ومنذ تلك اللحظة لم اعد ارى مسرة ، ولا مصيرا ، ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة ! ومما ضاعف هناءتى المرتقبة ، ان مدام دى فاران لاحت لى فى نهايتها ، ولكن .. على بعد سحيق ، اذ لم يكن ليخطر ببالى قط ان أعود الى جنيف بالذات ! .. واخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تمر امام ناظرى فى تتابع لا نهاية له ، وقد تجددت مفاتنها ! .. وبدا ان هذه الرحلة قد ابتلعت كل حياتى ، فرحت اتذكر فى ابتهاج كيف سحرتنى هذه الرحلة وانا قادم الى (تورين) ، فما بالك اذا ما استمتعت ـ الى جانب كل سحر الاستقلال ـ ببهجة جديدة ، تتمثل فى صحبة صديق فى مثل سنى وميولى ، اوتى روحا طروبا .. لا سيما وانه لن تكون ثمة قيود ، ولا واجبات ، ولا رقابة ، ولا اضطرار الى الذهاب او البقاء فى اى مكان ، ما لم يرق لنا ذلك ! .. وخيل الى ان المرء يكون احمق ولا ريب اذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من اجل خطط طموحة ، بطيئة ، شاقة ، غير مؤكدة التحقق! ..

خطط لم تكن ـ حتى اذا سلمنا بأنها قد تتحقق يوما ما ، ورغم كل اشراقها ووميضها ـ لتعادل ربع ساعة من السرور الحقيقى ومن حرية الشباب !

واذ تملكتنى هذه الفكرة الحكيمة (!) ، أقبلت على التصرف بطريقة أفلحت فى حمل القوم على فصلى من خدمتهم ، وان كان هذا لم يتم فى الواقع دون كثير من العناء . وهكذا ، ذات مساء ، أسلمنى رئيس الخدم عند عودتى الى الدار أمرا من الكونت بفصلى ، وكان هذا هو عين ما رجوت ! .. غير اننى كنت ـ بالرغم من نفسى ـ ادرك جموح مسلكى ، وقد اضفت اليه جورا وعقوقا حين خيل الى اننى بحمل القوم على طردى ، استطيع ان ألقى اللوم على سواى ، وان انصف نفسى وابرر مصيرى ، وكأننى كنت مضطرا ـ بالرغم منى ـ الى انتهاج المسلك الذى كنت فى الواقع المسئول الوحيد عنه !

وقبل ان ارحل فى الصباح التالى ، أرسل « الكونت دى فافريا » يدعونى لمقابلته . ولما كانوا يرون اننى فقدت كل تعقل ، واننى قد لا ألبى الدعوة ، فقد ذكر لى رئيس الخدم انه سيعطينى بعد تلك المقابلة مبلغا من المال خصص لى ، رغم اننى كنت لا استحقه بالتأكيد ، وذلك لانهم لم يكونوا قد قرروا لى اجرا ، نظرا لأنهم لم يكونوا يعتزمون استبقائى فى منصب الخادم !

ومع ما كان عليه الكونت دى فافريا من صغر السن وضآلة التفكير ، فانه تحدث الى فى هذه المناسبة بما ينم عن وعى وعطف ، بل اننى لأكاد اقول انه تحدث بحنان بالغ ، واخلاص صادق ، وفى تلطف يهفو بالقلب ، فاطلعنى على عطف عمه الراهب على ، وعلى نوايا جده بشأنى . وأخيرا .. وبعد أن عرض على بأوضح ما كان فى وسعه ، كل الميزات التى كنت اضحى بها لأندفع نحو هلاكى ، عرض ان يتوسط لى فى البقاء على شريطة ان اتخلى عن ذلك الشاب الشقى الذى أفسدنى . وكان من

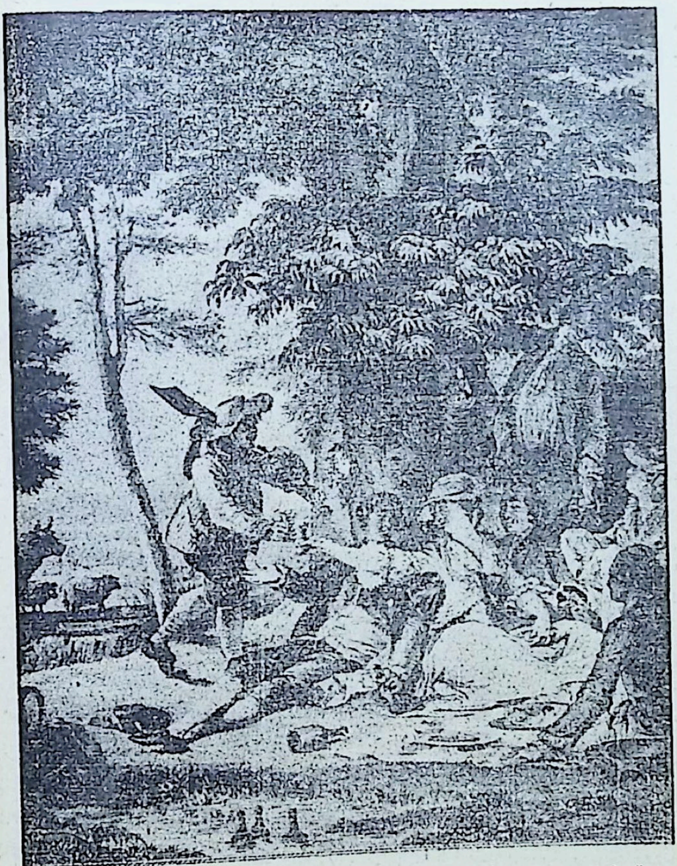

وجبة طعام بين احضان الطبيعة ، (معشوقة روسو) : رسم للفنان « مورو » يوضح احد مشاهد كتاب روسو المشهور « اميل »

الجلى انه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه ، فقد كنت ــ رغم حماقتى العمياء ــ شديد الشعور بكل ما كان مخدومى الشيخ يكنه لى من اشفاق ، وقد تأثرت به ، **ولكن رحلتى الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالى ، فلم يكن فى وسع أية مغريات ان تمحوها ! كنت قد فقدت رشدى تماما ، فاشتد عنادى وصلابة رأيى ، وتذرعت بكرامتى ، وأجبت ــ فى صلف ــ بأننى قد تلقيت امر فصلى من الخدمة ، وانى تقبلته وان أوان سحبه قد فات ، واننى قد عقدت العزم على ان لا أسمح لنفسى بأن اطرد مرتين من بيت واحد ، مهما تكن العواقب !** . واذ ذاك رمانى الشاب بما استحق من القاب ، وقد ثار عن حق ، وأمسك بكتفى فألقى بى خارج غرفته وأوصد الباب خلفى ! .. فانطلقت مزهوا وكأننى أحرزت نصرا باهرا ! وخوفا من ان اضطر الى احتمال صراع ثان ، تركت للخسة ان تحملنى على الرحيل بدون ان اشكر للراهب كرمه !

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنونى يسوقنى اليه فى تلك اللحظة ، يجدر بالمرء ان يعرف الى اية درجة يثور فؤادى بسبب التفاهات البسيطة ، وبأى عنف يندفع وراء الشىء الذى يستهويه ، مهما يكن هذا الشىء خلوا من اية قيمة ! .. ذلك ان أغرب الخطط ، وأكثرها طيشا صبيانيا ، وأشدها حماقة ، تتمشى مع الفكرة التى تحلو لى وتعززها ، حتى أقتنع بحكمة الاقبال على تنفيذها ! .. أفهناك من يصدق ان انسانا ما ــ لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره ــ يستطيع ان يشيد آماله فى العيش ، ما بقى من عمره ، على زجاجة فارغة ؟ .. اذن ، فاسمعوا : كان الأب دى جوفون قد أهدانى ــ قبل ذلك بأسابيع قلائل ــ نافورة صغيرة من نافورات هيرو (١) ، اغتبطت بها . واذ كنا لا نكف عن اللعب بهذه النافورة ، اثناء حديثنا عن

(١) نافورات صغيرة الحجم ، كاللعب ، اخترعها مهندس من ابناء الاسكندرية يدعى « هيرو »

رحلتنا ، خطر لباكل العاقل ، ولى ، ان فى وسع النافورة ان تنفعنا فى اطالة الرحلة ، فأى شىء فى الدنيا أغرب وادعى لاثارة الفضول من نافورة هيرو ؟ .. **وكانت هذه الفكرة هى الأساس الذى بنينا عليه صرح خطتنا المقبلة ، فلم يبق علينا سوى ان نجمع فلاحى كل قرية حول نافورتنا ، فينهال علينا الطعام وكل المشتهيات فى وفرة عارمة ــ فقد كنا نوقن بأن المؤن لا تكلف منتجيها شيئا ، وان عدم تزويدهم المرتحلين بها ليس سوى شر من ناحيتهم !** ــ ومن ثم رحنا نتوقع ان نجد اعراسا ومهرجانات فى كل مكان ، مما يمكننا ــ دون ان ننفق شيئا اللهم الا انفاسنا ومياه نافورتنا ــ من ان نكسب نفقات رحلتنا خلال (بييمونت) و (سافوا) وفرنسا .. بل العالم كله فى الواقع ! .. وعلى اثر ذلك اخذنا نرسم خططا لا حصر لها لرحلتنا ، ثم رأينا ان نتجه اولا نحو الشمال ، للاستمتاع بعبور الألب !

٦ ــ من سنة ١٧٣١ الى سنة ١٧٣٢

• **هكذا** كانت الخطة التى شرعت فيها ، هاجرا ــ دون ما ندم ــ راعى ، واستاذى ، ودراساتى ، وآمالى ، ومستقبلا كان شبه مؤكد ، لأبدأ حياة التشرد المنتظم ! .. وودعت العاصمة (١) ، والقصر الملكى ، والطموح ، والزهو ، والحب ، والنساء الحسان ، وكل المغامرات المثيرة التى حملنى الأمل فى العثور عليها الى (تورين) قبل ذلك بعام .. وانطلقت مع نافورتى وصديقى «باكل» ، بكيس خفيف ، ولكن بقلب ملىء بالغبطة ، وبال لا يفكر فى شىء سوى استمرار سعادة التجوال التى قصرت عليها بغتة مشروعاتى البراقة . ولقد جعلت هذه الرحلة الشاذة ملائمة بالقدر الذى كنت أتوقعه ، وان لم يكن ذلك

---

(١) كانت (تورين) يومئذ عاصمة امارة (بييمونت)

بنفس الطريقة التى اردتها تماما ، ذلك لانه بالرغم من ان نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات الفنادق الريفية وخدمهن لبضع لحظات، الا اننا كنا نضطر ـ مع ذلك ـ الى ان ندفع نفقات اقامتنا اذا ما هممنا باستئناف الرحيل . بيد ان هذا لم يزعجنا الا قليلا ، ولم نفكر فى استغلال النافورة كمورد جدى للدخل ، الا عندما بدأت نقودنا تنفد . على ان ثمة حادثا أعفانا من العناء ، فقد انكسرت النافورة ونحن على مقربة من (برامان) ، **والواقع ان الوقت كان قد حان ، اذ كنا قد شعرنا ـ دون ان نجرؤ على المصارحة ـ بأن التعب قد بدأ يدب فينا . وقد جعلنا هذا النحس اكثر ابتهاجا من ذى قبل ، فضحكنا كثيرا من غبائنا ، اذ نسينا ان ثيابنا واحذيتنا لن تلبث ان تبلى ، واذ اعتقدنا ان بوسعنا ان نبتاع جديدا غيرها بعرض نافورتنا على الانظار !.. وهكذا تابعنا رحلتنا ونحن فى مثل ما بدأناها فيه من حبور ، وان يممنا ـ فى اتجاه مباشر اكثر من ذى قبل ـ شطر الغاية التى كانت مواردنا المطردة النضوب تحتم علينا بلوغها .**

وفى (شامبيرى) بدأت أطيل التفكير ، لا بسبب الطيش الذى أقدمت عليه ـ فليس من انسان اقدر منى على تعزية نفسه سريعا ، وبشكل كامل ، فيما يتعلق بالماضى ـ وانما بسبب الاستقبال الذى كان يرتقبنى لدى مدام دى فاران ، فقد كنت اتطلع الى منزلها كما لو كان منزلى الخاص . وكنت قد كتبت اليها انبئها بالتحاقى بالخدمة فى دار الكونت دى جوفون، وقد عرفت مركزى هناك ، وعندما هنأتنى ازجت الى بعض النصائح الجليلة فيما يتعلق بالسلوك الذى يجب ان انتهجه جزاء الكرم الذى أبدى نحوى . ولقد اعتبرت السيدة ان مستقبلى بات مضمونا ، اللهم الا اذا أفسدته انا بخطأ منى .. ترى ما الذى ستقوله حين ترانى عند وصولى ! .. أبدا لم يخطر ببالى احتمال انها قد توصد الباب دونى ، **ولكننى كنت ارهب الحزن الذى كنت موشكا على ان اسببه لها ، وكنت فى خوف من تأنيباتها،**

التى كانت أقسى على نفسى من اعظم شقاء ! فاعتزمت ان اتحمل كل هذا فى صمت ، وان ابذل كل ما فى وسعى لأهدىء من اساها، فما كنت ارى لى فى الحياة ملاذا سواها، وكان احتمال العيش فى خزى منها امرا مستحيلا !

على ان الشطر الاكبر من قلقى كان بسبب زميلى فى السفر، فما كنت راغبا فى ان اثقل كاهلها به الى جانبى ، كما كنت أخشى ان لا يسهل على التخلص منه ! وقد هيأته للفراق بأن أخذت أعامله ـ فى اليوم الأخير ـ بشىء من الفتور ، ففهم الوغد أمرى ـ فقد كان طائشا اكثر منه غبيا ! ـ وقد ظننت ان تقلبى سيخز قلبه ، فاذا بى مخطىء ، اذ كان اللعين لا يسمح لشىء بأن يتغلغل الى قلبه . . فما أن أرسينا أقدامنا على ارض (أنيسى) ، حتى قال لى : « ها أنتذا فى بلدك » ، وعانقنى مودعا، ثم نكص على قدميه ، واختفى . . فلم اسمع عنه بعد ذلك البتة ! وقد دام تعارفنا وصداقتنا ستة اشهر فى مجموعهما ، ولكن تبعاتهما ستبقى ما حييت !

* * *

◆ **لشد ما** يخفق قلبى وانا اقترب من دارها ! . . لقد اخذت ساقاى ترتجفان تحتى ، ورانت غشاوة على عينى ، فلم أر شيئا ، ولا سمعت شيئا ، وما كان بوسعى ان اعرف شخصا ! . . واضطررت الى أن أتوقف عدة مرات لأتمالك انفاسى وأسيطر على نفسى . أفكان الخوف من أن لا أحظى بالمعونة التى كنت بحاجة اليها هو الذى أزعجنى بهذا القدر ؟. . وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع فى شخص فى مثل سنى ؟. . لا ! هذا ما أعلنه فى صدق وكبرياء ، فما استطاع الاهتمام بالنفس ولا استطاعت الحاجة قط ـ فى اية لحظة من حياتى ـ ان يفتحا قلبى او يغلقاه ! . . ففى مجرى حياتى ـ غير المستقيم، والذى تقترن ذكراه بكثرة تعرجاته وانحناءاته ، وبكثرة ماكنت

خلاله بلا مأوى ولا خبز ــ ظللت دائما انظر الى الثراء والفقر نظرة سواء ! **ولقد كان بوسعى فى اوقات الحاجة أن أتسول أو أسرق ــ كما يفعل أى امرىء آخر ــ ولكنى لم اكرب نفسى قط من جراء انحدارى الى هذا الدرك . واعتقد ان قليلين هم الذين صعدوا من الزفرات قدر ماصعدت ، وذرفوا من الدموع فى حياتهم مقدار ما ذرفت ، ولكن الفقر أو خوف الانحطاط اليه لم يقويا قط على ان يحملانى على أن أنفث زفرة ، او اذرف دمعة !** .. ان نفسى ــ التى خلقت فى حصانة ضد الحظ ، فهى لا تتأثر به ــ لم تعرف قط استكانة الى نعمة .. وعند ما لا افتقر الى شىء يمكن ان تمس اليه الحاجة ، فذلك هو الوقت الذى اشعر فيه بأننى اشقى المخلوقات ! ؛

* * *

. **ما أن** مثلت امام مدام دى فاران ، حتى طمأننى مسلكها ! وقد ارتجفت لأول نبرة من صوتها ، وارتميت على قدميها . وفى اختلاجات تنم عن أقوى غبطة جياشة ، ألصقت شفتى بيدها ! ولست أدرى هل كانت قد سمعت أى نبأ عنى ، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة او استياء ، بل قالت فى صوت حنون : « يا صغيرى المسكين ! أهذا أنت مرة أخرى ؟ كنت أعرف أنك أصغر من ان تقوم بهذه الرحلة . اننى مغتبطة على أية حال لأنها لم تنته الى ما كنت اخشاه ! » .. ثم حملتنى على ان أروى لها قصتى ، التى لم تكن طويلة ، والتى رويتها بأمانة ، وان كتمت بعض تفصيلات قليلة ، دون أن أتستر على نفسى أو أستميح لها الاعذار !

وكان تدبير المكان الذى أنام فيه مشكلة ، فاستشارت وصيفتها . ولم اجسر على أن أنبس ببنت شفة خلال الحديث ، ولكنى لم اكد أسمع أن بوسعى أن أنام فى الدار ، حتى كدت أعجز عن تمالك نفسى ! .. ورأيت متاعى القليل يحمل الى

الغرفة التى عينت لى ، بمثل المشاعر التىرأى بها «سان برو» محفته تنقل الى مأوى عربات مدام « دى ولمار » (١) . ومما ضاعف اغتباطى اننى علمت ان هذه الخطوة لم تكن أمرا عابرا ، ففى اللحظة التى كان يبدو على فيها اننى افكر فى شىء آخر ، سمعت السيدة تقول : «دعيهم يقولون مايشاءون ،فقد عقدت العزم ـ مذ ردته العناية الالهية الى ـ على أن لا أفارقه ! »

وهكذا استقر بى المقام أخيرا فى دارها. على ان هذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذى اتخذه بداية لتاريخ الأيام السعيدة فى حياتى ، ولكنه ساعد على تعبيد الطريق الى ذلك اليوم . فبالرغم من ان هذا الشعور المرهف فى القلب ـ الذى يجعلنا نغتبط بأنفسنا غبطة صادقة ـ هو من صنع الطبيعة ، وربما كان من نتاج نظامها ، فانه يتطلب مواقف معينة تنميه . وبدون الأسباب التى تحدث هذه التنمية ، فان الرجل الذى ولد بحساسية قوية قد لا يشعر أو يحس بشىء ، وربما مات دون ان يعرف قط حقيقة نفسه ! .. ولقد كان هـذا هو الشأن معى ـ أو ما يقرب منه ـ حتى ذلك الحين . وربما كنت مسوقا الى ان أبقى كذلك دائما ، لو لم يقدر لى ان اعرف مدام دى فاران ، أو لو اننى ـ بعد ان عرفتها ـ لم اقم معها وقتا كافيا لأن استمرىء حلاوة المشاعر الرقيقة الحانية التى ألهمتنيها .

بل اننى لأجرؤ على القول بأن ذاك الذى لا يشعر بغير الحب وحده ، لا يحس بأحلى ما فى الحياة . فأنا أعرف شعورا آخر ربما كان أقل سورة وحرارة ، ولكنه اكثر من الحب متعة الف مرة ! .. وهو قد يقترن أحيانا بالحب ، ولكنه كثيرا ما يكون منفصلا عنه . وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة ، وانما هو أشد منها عنفا فى غوايته، واكثر حنانا فى رقته . ولست اعتقد ان من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك ..

---

(١) « سان برو » و « مدام دى ولمار » من شخصيات قصة روسو الطويلة : « هيلويز الجديدة »

وعلى كل حال ، فاننى عرفت الصداقة كما لم يعرفها أى رجل آخر ، ومع ذلك فاننى لم أحس بهذا الشعور فى حضور أى شخص من أصدقائى . وهو شعور غامض خفى الى حد ما ، ولكنه لا يلبث ان يتضح فيما بعد ، وفيما ينجم عنه ــ فالواقع انه ليس من سبيل الى وصف المشاعر بدرجة مرضية ، الا عن طريق آثارها ونتائجها !

كانت مدام دى فاران تقيم فى بيت عتيق ، بالغ الاتساع بحيث يحتوى على غرفة بديعة تزيد عن حاجة السيدة ، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس . وفى هذه الحجرة انزلتنى . وكانت تفضى الى الدرب الذى سبق ان تكلمت عنه ، والذى تم فيه اول لقاء بيننا . وعلى ضفة الجدول المقابلة ، كانت البساتين والريف تبدو للعين . ولم يكن هذا المنظر قليل الشأن بالنسبة للشاب الذى شغل الحجرة ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى ــ منذ كنت أقيم فى (بوسى) ــ التى رأيت فيها أية خضرة امام نافذتى ! كنت دائما محوطا بالجدران ، وليس امام عينى سوى سقوف الدور ، او سمرة الطرقات الكالحة .. فبأى طرب شعرت بسحر التجديد الذى عزز ميلى الى المشاعر الرقيقة الحانية ! .. **لقد اعتبرت هذا المنظر الفاتن كلون آخر من الوان كرم ربة نعمتى العزيزة ، ولاح لى انها هى التى وضعت كل شىء هناك ، خصيصا من اجلى ، فغرست نفسى هناك الى جوارها ، وقد امتلأت بهناءة وادعة .. وصرت ارى راعيتى فى كل مكان ، وسط الزهور والخضرة . كانت مفاتنها تمتزج بمفاتن الربيع امام عينى بطريقة لا يلم بها ادراكى ! .. وانتفخ قلبى ــ الذى كان مكبوتا حتى ذلك الحين ــ وامتد فى هذا الفضاء غير المحدود ، وأصبحت زفراتى تجد متنفسا طليقا وسط البساتين !**

ولم أجد لدى مدام دى فاران الابهة التى رأيتها فى (تورين)، ولكنى وجدت نظافة ، واناقة ، وخيرا فياضا ، لا تقترن بها

الغطرسة والكبرياء قط ! .. كانت تمتلك أطباقا قليله العدد ، فلا صينى ولا خزف ، ولا لحوم فى مخزن المئونة ، ولا خمور اجنبية فى اقبية القصر ! .. ولكن المطبخ وقبو الدار كانا مزودين بما يكفى أى امرىء ، وكانت السيدة تقدم فى الاقداح الدلفية (١) قهوة رائعة . وكان كل من يزورها يدعى الى العشاء على مائدتها . وما من عامل ، أو رسول ، أو عابر طريق مر بالدار دون أن يأكل ويشرب . وكان خدمها يتألفون من وصيفة ـ على قسط من الجمال ـ من بلدة (فريبور) تدعى «ميرسيريه» ، ووصيف من وطنها يدعى « كلود آنيه » ـ سأذكر عنه مزيدا فيما بعد ـ وطاهية ، واثنين من الحمالين كانا يستأجران لحمل المحفة « السيدان » (٢) فى المناسبات النادرة التى كانت السيدة تؤدى فيها الزيارات . وكان هذا العدد من الخدم عبئا على معاش سنوى قدره ألفا « ليبرة » ، لولا ان دخل السيدة الضئيل كان ـ اذا أحسن تدبير انفاقه ـ كافيا فى بلد كانت الأرض فيه سخية جدا ، والنقود شحيحة جدا ! **ولكن الاقتصاد لم يكن لسوء الحظ من الصفات الحبيبة لدى السيدة ، فكانت تستدين ، ثم تدفع بقدر ما تستطيع . كانت النقود تذهب فى كل ناحية ، والأمور تسير على خير ما يمكن أن تسير !**

وكانت الطريقة التى نظمت بها دارها هى عين ما كنت أوثره لو عهد الى باختيار هذا التنظيم ، ومن ثم فمن الميسور تصور مبلغ سرورى بالحياة معها ، والافادة منها . أما الأمر الذى كان أقل مدعاة للسرور ، فهو اننى كنت مضطرا الى ان ابقى جالسا الى المائدة وقتا طويلا ، فقد كانت السيدة لاتكاد تحتمل ان تشم العبير المتصاعد من الحساء وأصناف الطعام الاخرى

---

(١) الاقداح الدلفية : اقداح من خزف مصنوع فى هولندا

(٢) « السيدان » هى محفة مؤلفة من مقعد ذى مظلة ، يحمله رجلان ، وكانت من مركبات ذلك العصر

عندما تحمل الى المائدة ، اذ كانت الرائحة تسلمها الى الاغماء ! وقد دام هذا النفور بعض الوقت ، ولكنها لم تلبث ان تمالكت نفسها تدريجا . **وكانت اذا جلست الى المائدة انصرفت الى الكلام ، دون أن تأكل شيئا ، فلم يكن ينقضى أقل من نصف ساعة قبل ان تتناول قطعة لحم ! وكان بوسعى - فى هذه الفترة - أن أتناول ثلاث وجبات ، ومن ثم فاننى كنت دائما أفرغ من طعامى قبل ان تشرع هى فى الاكل بوقت طويل . وقد اعتدت - لكى أؤنسها - أن أشرع فى الأكل مرة أخرى !** وبهذا الوضع كنت اتناول غذاء شخصين ، وما شعرت اطلاقا بضير من ذلك . وبعبارة موجزة : اسلمت نفسى للذة الشعور بالراحة ، التى كانت تخامرنى عندما أكون معها ، لا سيما وان هذه اللذة التى كنت استمرئها كانت خلوا من اى قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها ! .. ولما لم أكن قد أشركت بعد - بثقة تامة - فى شئون السيدة ، فقد رحت اتصور ان الحال الراهنة قد تستمر على الدوام . ولقد وجدت نفسى هذه الرفاهية فى دارها فى أوقات أخرى بعد ذلك ، ولكنى كنت قد ألممت بحقيقة وضعها ، وتبينت انها كانت تستنفد معاشها قبل ان تتسلمه ، ومن ثم فلم أكن اشعر بعين الغبطة التى شعرت بها فى ذلك الوقت ! .. أن التطلع الى المستقبل يفسد دائما هناءتى . فليس من المفيد لى فى شىء أن أتنبأ بالمستقبل ، اذ اننى لم اعرف البتة كيف اتفاداه !

ولقد توطد بينى وبين مدام دى فاران - منذ اليوم الأول - أكمل ود وألفة ، وقد داما خلال ما بقى من عمرها . كان اسمى لديها ((الصغير)) ، وكان اسمها عندى ((ماما)) ، وقد ظللنا دائما ((الصغير)) و ((ماما)) ، حتى عندما محت السنون كل فارق بيننا تقريبا . وانى لأرى ان هذين الأسمين يعطيان فكرة جد رائعة عن لهجة احاديثنا ، وعن بساطة الاسلوب الذى كان مرعيا فى سلوكنا ، وعن العلاقة المتبادلة بين قلبينا قبل

كل شىء آخر ! .. كانت ـ بالنسبة لى ـ أرق أم ، فلم تسع قط الى ما فيه سرورها ، وانما كانت تسعى دائما الى ما فيه الخير لى . واذا كانت الشهوة قد خالطت يوما تعلقها بى ، فانها لم تبدل من طابع هـذا التعلق ، وانما جعلته اكثر فتنـة .. واسكرتنى ببهجة الظفر بأم شابة حسناء كنت اجد غبطـة فى ان الاطفها (١) .. « الاطفها » بأدق ما فى الكلمة من معنى ، فما خطر لها قط ان تقتصد فى قبلات الأم ، أو فى عناقاتها الرقيقة وملاطفاتها ، ومن المؤكـد انه لم يخطر ببالى اطـلاقا ان اسىء استغلال ذلك . وقد يقال اننا ـ فى النهاية ـ ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف ، وانى لأقر بهذا ، ولـكنى أرى أن أتريث قليلا ، فليس فى وسعى أن أروى كل شىء فى التو !

كانت لحظة لقائنا الأول ، هى اللحظة الوحيدة التى جعلتنى اشعر بها مليئة بالانفعال العـاطفى الحقيقى . على ان هـذه اللحظة كانت من نتائج المفاجأة .. ولم تجسر نظراتى قط على ان تتسلل مستخفية الى ما تحت المنـديل الذى كان يحيـط بعنق السيدة ، رغم ان سوء التستر على بدانة هذا العنق كان خليقا بأن يجتذب النظر . ولم اكن أشـعر فى حضورها بأية نزوات أو شهوات ، بل كنت فى حالة استجمام فاتن واستمتاع ، وان لم ادر فيم كان هـذا الاستمتاع ! .. **وكان بوسـعى ان اقضى فى هذه الحال كل حياتى الدنيوية ، بل وحياتى الأخرى ، دون ما لحظة من الملل والسـأم ، فان مـدام دى فاران هى الشخص الوحيد الذى لم اشعر معـه بذلك الفتور والنضوب اللذين يتطرقان الى الحديث فيجعلان الاضطرار الى المضى فيه ضربا من التضحية والاستشهاد !** .. ولم يكن كلامنا الهامس فى خلواتنا حديثا بقدر ما كان ثرثرة لا ينضب لها معـين ، ولا تحين لها نهاية اللهم الا اذا طرأ ما يقطع استرسالها ! ولم تكن ثمة حاجة بها الى ان تدعونى للكلام ، بل كانت الحاجـة الى

---

(١) الملاطفة هنا يقصد بها التحسس والقبلات والغزل

فرض السكوت على اكثر لزوما . وكانت كثيرا ما تستغرق فى شرود حالم لفرط تفكيرها المستمر فى مشروعاتها ، فكنت اتركها لأفكارها ، وأمسك لسانى ، وانظر اليها .. واذ ذاك كنت اسعد الرجال ! .. وكنت لا ازال احتفظ بخيال فذ ، فكنت اسعى دائما الى مسامرتها دون من ولا تظاهر بصنيع ، فقد كنت استمرىء هذه الخلوات بشغف يتطور الى جنون عندما كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها ! فما ان يفد أحد — سواء كان رجلا او امرأة — حتى أغادر الحجرة وأنا أزمجر ، عاجزا عن ان أبقى فى حضور طرف ثالث ! وكنت اقبع فى حجرتها الداخلية ، أعد الدقائق ، والعن هؤلاء الضيوف — الذين يأبون الانصراف — ألف مرة ، وانا لا اقوى على ان أتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت .. فقد كان لدى ما يفوقه !

ولم اكن أشعر بقوة تعلقى بالسيدة الا عندما كنت لا اراها .. ولا كنت هانىء البال الا حين أراها ، فاذا غابت كان قلقى يصبح اليما . كانت حاجتى الى العيش معها تسبب لى نوبات عاطفية كثيرا ما انتهت بالدموع ! ولن انسى مطلقا اننى فى يوم عيد من الاعياد مضيت للنزهة خارج المدينة ، بينما كانت هى فى قداس المساء .. وشعرت ان قلبى قد امتلأ بصورتها ، وبرغبة متأججة فى ان أقضى حياتى معها ، وكنت من الادراك والعقل بحيث ارى ان هذا كان مستحيلا فى وقتى الراهن ، وان السعادة التى كنت استمتع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد .. ولقد بعث هذا فى خواطرى مسحة من الأسى ، لم يكن فيها — مع ذلك — اى اكتئاب ، بل كانت تخفف منها آمال مراودة .. كان صوت الأجراس — الذى كان يهزنى دائما بوجه خاص — وشدو الطيور ، وبهاء ضوء النهار ، والمناظر الطبيعية الساحرة ، والمساكن القروية المتناثرة التى كان خيالى يتخذ منها مقاما لنا .. **كل هذه كانت تخلق فى نفسى تأثيرا قويا ،**

عاطفيا ، حزينا ، يهز اوتار قلبي الى درجة ارى معها انني انتقل في غيبوبة حالمة الى ذينك الوقت والمكان السعيدين، اللذين كان قلبي فيهما يمتلك كل ما كان يصبو اليه من سعادة ، فيقبل على تذوقها في انتشاء لا سبيل الى وصفه ، دون ادنى تفكير في لذة شهوية . وما اذكر البتة انني اوغلت يوما في التفكير في المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرني في تلك المناسبة . وكان أعظم ما أدهشني من ذكرى هذا الحلم بعد ان تسنى له ان يتحقق ، هو انني ألفيت الأمور تطابق تماما ما تصورته في الخيال . واذا قدر يوما لأحد احلام اليقظة التي تراود ذهن انسان ما ان يكون شبيها برؤى النبوة، فهو حلمي هذا بالتأكيد.

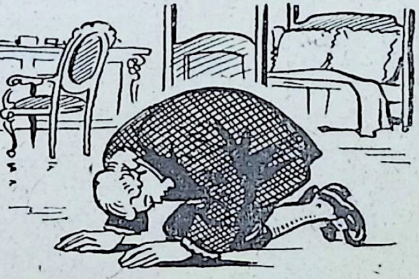

فما خدعني خيالي الا في الأمد الذي تصورته ، فقد تمثلت في الحلم ان حياتنا معا امتدت اياما واعواما في سكينة صافية سامية لايعكرها شيء .. في حين ان هذه الحال لم تدم - في واقع الحياة سوى لحظة .. ويا لحسرتي !.. فان أبقى سعادة ظفرت بها ، انما كانت حلما لم تلبث اليقظة ان اعقبت تحققه في الحال !

ولن افرغ من مهمتي اذا انا خضت في تفصيلات كل الحماقات التي كان تذكري لهذه الأم العزيزة يحملني على ارتكابها عندما

لا اكون فى حضرتها : **فكم كنت أقبل سريرى لانهـا نامت فيه يوما ، وستائرى وكل اثاث حجرتى لأنها كانت ملكا لها ، ولأن يدها الجميلة كانت تمسها !.. حتى الأرض كنت اتقلب عليها ما دامت هى قد خطرت فوقها ! .. وكنت أحيانا ارتكب ـ فى وجودها ـ نزوات ماكان ليوحى بها سوى أعنف ألوان الحب !**
وقد حدث ذات يوم ان كنا نجلس الى المائدة ، وما ان وضعت قطعة من اللحم فى فمها ، حتى هتفت قائلا اننى لمحت شعرة فيها ، فردت القطعة الى طبقها ، واذ ذاك انقضضت عليها فى لهفة وابتلعتها ! وبايجاز : لم يكن بينى وبين أشد العشاق تدلها سوى فارق واحد ـ ولكنه جوهرى ـ يجعل حالتى فوق كل تصور وادراك !

كنت قد عدت من ايطاليا على غير ما ذهبت اليها، بل لعلنى عدت منها كما لم يعد قط أى امرىء فى سنى ، فقد حملت معى ـ فى عودتى ـ طهرى الجسدى ، وان لم احتفظ بطهرى العقلى والخلقى ! ولقد شعرت بحكم السنين ، وقدر أخيرا لطباعى القلقة غير المستقرة ان تغدو ملموسة محسوسة، وقد سبب لى تجليها لأول مرة ـ على غير ارادة منى ـ انزعاجا بشأن صحتى ، بدرجة تبين اكثر من أى شىء آخر مدى البراءة التى كنت اعيش فيها حتى ذلك الحين . وما ان اطمأننت ، حتى تعلمت تلك الوسائل الخطرة التى تعاون تلك الطباع ، والتى تغرر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين اوتوا مثل مزاجى ، كثيرا من الاضطرابات وألوان الافراط ، على حساب صحتهم وقوتهم و .. حياتهم أحيانا ! ولهذه الرذيلة ـ التى يرتاح اليها الخجل والجبن ـ اغراء عظيم يجتذب التخيلات : ذلك هو ـ كما ينبغى ان يقال ـ حشد الجنس بأسره لارضائها، واستغلال الجمال لملذاتها ، دون ما حاجة الى الحصول على موافقته أو رضاه ! .. وتحت اغراء هذه الخلة المهلكة ، جهدت فى تدمير البنية البديعة التى منحتنيها الطبيعة ، والتى اتحت

لها الوقت لتتسق فى تشكلها . **أضف الى هـذه العادة ظروف مركزى الحـالى ، اذ كنت أقيم فى دار امـرأة جميلة ، أداعب طيفها فى قرارة قلبى ، وأراها باستمرار طوال النهار ، وأحاط فى الليل بأشياء تذكرنى بها ، وأنام فى سرير عرفت انهـا كانت تنام فيه !** .. فأية مثيرات هـذه ! ان القـارىء الذى يتمثلها لنفسه يرى ولا ريب اننى كنت فى منتصف الطريق الى الموت بالفعل ! ولـكن الأمر كان على نقيض ذلك تمـاما ، فان الشىء الذى كان خليقا بأن يقضى على ، كان عين ما أنقذنى ، ولو الى حين : ففى انتشائى بسحر الاقامة معها ، وبالرغبة الجامحة فى ان اقضى أيامى بقربها ، كنت أرى فيهـا دائما ــ سواء كانت غائبة أو حاضرة ــ أما حنونا ، واختا حبيبة ، وصديقة لطيفة .. ولا اكثر من هذا ! .. هكذا كنت اراها دائمـا ، وهكذا كانت دائما ، فلم اكن ارى سواها قط ! **وكانت صورتها الماثلة فى قلبى دائما لاتدع مكانا لأحد البتـة ! .. كانت لى المرأة الوحيدة فى العالم ، وكانت العذوبة البالغة التى اتسم بها ما كانت تلهمنى من مشاعر ، لاتدع لحواسى وقتا تستيقظ فيه على غيرها ، بل كانت تعصمنى منها ومن كل جنسها ! ومجمل القول اننى كنت عفيفا ، لأننى كنت أحبها !** .. فليقل من يستطع ــ على ضوء هذه النتائج التى لم احسن وصفها ــ اى نوع كان تعلقى بها ! .. اما أنا ، فكل ما املك ان اقول عنه هو انه اذا كان يبدو جـد غريب ، فانه سيبدو فى عواقبه أغرب !

وكنت اقضى وقتى على خير وجه ، وان شغلت بأقل ماكان يروق لى من اشياء . كانت ثمة مشروعات تدبر ، ومذكرات تنسخ مصححة ، ووصفات تنقل ، وأعشاب تنتقى ، وعقاقير تصحن وتسحق ، وأنابيق (اجهزة للتقطير) تراقب . وفى غمرة هـذا كله ، كان عابرو السبيل والمتسولون والزائرون ــ من كافة الطبقات ــ لايكفون عن الوفود زرافات ، فكنا نضطر الى ان نستضيف جنـديا وصيدليا وكاهنـا وسيدة راقية

وطالب مأوى .. فى آن واحد ! وكنت أسب، وازمجر، وألعن، واتمنى ان يتخطف الشيطان كل هـذه الشرذمة اللعينة . أما مدام دى فاران ـ التى كانت تتقبل ذلك بحسن نية ـ فكانت غضباتى تضحكهـا حتى تدمع عينـاها ، وكان يضـاعف من ضحكهـا ان ترانى أزداد سخطا لأننى لم أكن أملك ان أصـد نفسى عن الضحك ! .. **كانت الفترات القصار التى كنت أحظى فيها بالزمجرة ، لحظات ساحرة !.. ولو ان قادما جديدا من هؤلاء الضيوف الثقلاء أقبل خلال الجدال ، فان السيدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسلية ، وذلك بأن تطيل الزيارة فى تخابث ، وهى ترمينى بنظرات أود معها لو أضربها !** وكانت تتمالك نفسها بعناء حتى لاتنفجر مقهقهـة ، اذ ترانى اتجلد وأكظم مشاعرى تأدبا، وأرمقها كشخص مسلوب النهى، فى حين اننى كنت فى قرارة فؤادى ـ بل ورغمـا عن نفسى ـ ارى الأمر كله داعيا للضحك !

ولئن لم يكن كل هـذا يسرنى ، الا انه كان يروق لى ، لأنه كان يؤلف جزءا من نوع من الوجود كان يبهجنى . ولم يكن فى كل ماكان يجرى حولى ـ ولا فى كل ما كنت مضطرا الى عمله ـ شىء يلائم ذوقى ، ومع ذلك فقد كان كل شىء يروق لفؤادى . وأعتقد اننى كنت قمينـا بأن أميل الى الطب ، لولا ان نفورى منه سبب تلك المناظر المضحكة التى اطربتنـا كثيرا . . ولعل هذه هى المرة الأولى التى يخلق فيها هذا الفن اثرا كهذا . كنت ازعم ان بوسعى ان اعرف أى مركب طبى من رائحته ، وكان الطريف فى الأمر اننى نادرا ما كنت أخطىء ! ولقد حملتنى مدام دى فاران على ان اتذوق افظع العقاقير ، ولم تكن ثمة جدوى من الفرار أو محاولة الدفاع عن نفسى ، فبالرغم من مقاومتى ومن عبوسى، وبالرغم من اصطكاك اسنانى ، كنت أضطر أخيرا الى ان افتح فمى عنـد ما ارى اصابعها الجميلة ـ ملطخة بالعقار ـ بالقرب منـه ، فأمتصها !.. **وعنـدما كان كل أهل**

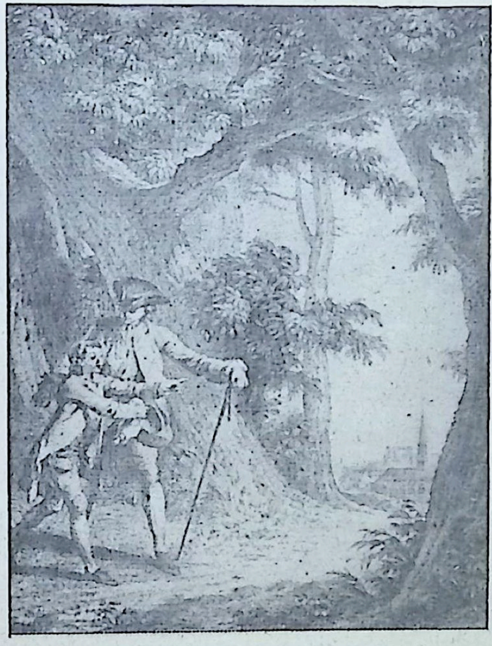

« اميـــل » يتحسس طريقه الى الحـق •• والحقيقـة •• بارشاد معلمه! : لوحـة رائعـة للرسام «مورو» أعدها خصيصا للطبعـة الأولى لـكتاب روسو المشـهور فى التربية: «اميل» (وترى الرسم نفسـه مكبرا وملونا على غلاف هـذا العـدد)

دارها يجتمعون فى حجرة واحـدة ، يسمعون جرينا وصراخنا وضحكنا ، كان اى امرىء خليقا بأن يظن اننا كنا نمثل احدى المسرحيات ، بدلا من تحضير البلاسم والأكاسير !

على ان وقتى لم يكن وقفا على هذه الحماقات. فقد وجدت فى الغـرفة التى كنت أشغلهـا بضعـة كتب : « المتفـرج » ، و « بيفنـدورف » ، و « بسـانت ايفريموند » ، والقصيـدة «الهنرية» . ومع اننى لم اكن أحتفظ بجنونى القديم بالقراءة، الا اننى كنت اقرأ قليلا عند ما لا أجد شيئا آخر أفعله. وكان

كتاب « المتفرج » يلذ لى بوجه خاص ، وقد اثبت انه كان ذا نفع لى . وكان الأب دى جوفون قد علمنى ان اقرأ فى غير اسراع ، وبمزيد من التأمل ، ولهذا اصبحت المطالعة أكثر فائدة لى . وعودت نفسى ان افكر فى اللغة والاسلوب وبلاغة تركيب العبارات ، كما دربت نفسى على ان اميز الفرنسية الفصحى من التعبيرات الاقليمية. وتعلمت كيف أصحح الكثير من الاخطاء الهجائية التى كان يشاركنى فى ارتكابها جميع اهل (جنيف) !

وكنت اتحدث الى « ماما » أحيانا عن مطالعاتى ، كما كنت اقرأ لها أحيانا ، فأحظى بسرور عظيم ، وأحاول ان أتقن القراءة ، وكان هذا ـ بدوره ـ مفيدا لى . ولقد ذكرت انها كانت ذات عقل مصقول، كان فى ذلك الوقت بالذات فى عنفوانه. وقد أبدى عدد من رجال الأدب شوقا الى الظفر بالحظوة لديها، فعلموها كيف تحكم على المؤلفات التى تنم عن عبقرية . وكان لها ذوق « بروتستانتى » بعض الشىء ـ اذا جاز لى ان اقول هذا ـ فلم تكن تتكلم الا عن « بايل » ، وكانت تقدر القديس « ايفريموند » الذى مات فى فرنسا قبل ذلك بوقت قصير . ولكن هذا لم يعقها عن ان تتعرف الى أى أدب طيب ، وان تناقشه فى فطنة . وكانت قد نشأت فى مجتمع رفيع، ووفدت على (سافوا) وهى بعد صغيرة . وفى الوسط البهيج الذى يعيش فيه علية القوم فى هذه البلاد ، فقدت طريقة اهل اقليم (فود) فى الحديث،حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة ، ولا يعرفن الكلام الا بالطرائف والحكم الشعرية !

ومع انها لم تحظ الا بمعرفة عابرة بالبلاط الملكى ، الا انها ألقت عليه نظرة سريعة ، كانت كافية لأن تعرفه بها . وكانت تحتفظ لنفسها دائما باصدقاء فيه ، وعلى الرغم من الدسائس الخفية المنبعثة عن الغيرة ، وبالرغم من الاستياء الذى كان مسلكها وديونها تثيره ، الا انها لم تفقد قط معاشها . ولقد

اوتيت خبرة بالدنيا ، ومقدرة فكرية على الافادة من هذه الخبرة ، فكانت تؤلف أفضل موضوع فى أحاديثها . وكان هذا بالذات هو الموضوع الذى أجدنى فى حاجة ماسة الى الالمام به ، بالنسبة الى آرائى الخيالية .. ولقد قرأنا كتاب «لابروبير» ، فأعجبها اكثر من كتب « لاروشفوكو » الذى كان اديبا كئيبا ممضا ، لا سيما للشباب الذين لايكترثون لرؤية الناس على حقيقتهم . وكانت اذا وعظت استغرقت أحيانا فى خطب طويلة ، ولكنى كنت اتزود لاحتمالها بتقبيل فمها ويديها من وقت الى آخر ، فلا يعود اسهابها يضجرنى !

* * *

• **وكانت** هذه الحياة أبهج من ان تدوم . وكنت أشعر بذلك ، فكان اغتمامى بالاشفاق من أن أراها تنتهى هو الشىء الوحيد الذى عكر استمتاعى بها ! وكانت « ماما » فى وسط مداعباتها تدرسنى ، وتراقبنى ، وتسألنى ، وترسم ـ من أجل تقدمى ـ مشروعات كنت اتجاوزها بسهولة . ولحسن الحظ انه لم يكن كافيا ان تعلم ميولى واذواقى وامكانياتى ، بل كان من الضرورى البحث عن فرص لاستخدامها على وجه نافع ، أو «خلق» هذه الفرص . ولم يكن هذا بالعمل الذى يتم فى يوم واحد . بل ان الأحكام الصادرة عن الهوى ، والتى كانت المسكينة تتخذها ازاء مواهبى ، كانت ـ فى الوقت ذاته ـ سببا فى تأجيل لحظات تطبيقها بالذات ، اذ كانت تجعلها تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل . **وبالايجاز : سار كل شىء وفق رغباتى بفضل حسن رأيها فى . ولكن هذه الحياة كانت مسوقة الى نهاية ، ان عاجلا او آجلا . واذ ذاك ، وداعا لكل أمل فى الطمأنينة !** .. فقد جاء لزيارة مدام دى فاران قريب لها ـ يدعى السيد «دوبون» ـ كان رجلا عظيم الدهاء ، يجيد الدس ، وذا عبقرية ـ مثل قريبته ـ فى رسم المشروعات ،

ولكنه كان أبرع من ان يدع مشروعاته تقضى عليــه . كان من المغامرين ! وكان قــد اقترح على الــكاردينال « دى فليرى » مشروعا لتنظيم «يانصيب» ، بلغ من تعقده انه لم يلق قبولا. فجاء بعرضه على بلاط (تورين)، حيث قبل ونفذ. **وقد مكث هذا الرجل بعض الوقت فى (أنيسى)، حيث عشق زوجة وكيل الحكومة ! وكانت امرأة جد لطيفة ، قريبــة الى ذوقى ، حتى انها كانت الوحيــدة التى كنت أسر برؤيتها فى دار « ماما » .** ولقد رآنى السيد « دوبون » ، وحدثته قريبته عنى ، فتكفل بامتحانى ليرى ما أصلح له، فاذا ما وجدنى أهلا لشىء، بحث لى عن منصب !

وارسلتنى مدام دى فاران اليه فى صباحين أو ثلاثة متعاقبة، بحجة بعض مهام لها ، دون ان تبصرنى بشىء . وأفلح الرجل فى حملى على الكلام ، وابدى لى الود ، وتبسط معى الى اقصى ما امكنه ، وتحــدث معى فى مســائل غير ذات بال ، وفى كافه الموضوعات . . كل ذلك دون ان يشعرنى بأنه كان يراقبنى ، ودون أدنى كلفــة ، وكأنه وجــد فى صحبتى مسرة فرغب فى التسامر معى دون ما قيــود . واعجبت به .. **وكانت نتيجة ملاحظاته اننى ــ برغم مظهرى الجــذاب وملامحى الدالة على الفطنة ــ كنت فتى قليل الذكاء ، عديم الأفكار ، عديم المعرفة تقريبا ، ان لم اكن غبيــا !.. وبعبارة موجزة ، كنت محدود العقــل من كل الاعتبــارات ، وكان ارفع منصب يحق لى ان اصبو اليه ، هو ان أصبح يوما راعيا لكنيسة احــدى القرى !** هكذا كانت النتيجة التى قدمها عنى لمدام دى فاران ، وكانت هذه هى المرة الثانية او الثالثة التى يحكم على فيها بمثل ذلك. بل انها لم تكن المرة الأخيرة، فكم من مرة عزز فيها رأى السيد « ماسيرون .»

وكانت أسباب هــذه الاحكام ترتبط بخلقى ارتبــاطا وثيقا لا داعى معه الى أى ايضاح هنا. ذلك لأنه من المفهوم ــ صراحة ــ

اننى لا استطيع ان اقر هذه الآراء دون تحفظ ، واننى ـ بكل حيدة وتجرد عن الهوى ـ لا أستطيع أن اتقبل كل ما قاله السيدان «ماسيرون» و «دوبون» وغيرهما على علاته !.. فلقد اتحد فى نفسى شيئان متنافران تقريبا، بطريقة لا أملك ادراكها: طباع حادة ، وعواطف محتدمة صاخبة .. وفى الوقت ذاته ، أفكار بطيئة النمو ، مهوشة ، لاتكشف قط عن نفسها الا بعد فوات الأوان . ومن الممكن ان يقال ان قلبى وعقلى لا يمتان الى فرد واحد . فان الشعور يستحوذ على نفسى بأسرع من البرق الخاطف ، ولكنه يكوينى ويعشى بصرى ، بدلا من ان ينيرنى . فاذا بى أحس بكل شىء دون أن أرى شيئا ! **ان العواطف تجرفنى، ولكنى بطىء التفكير ، لابد لى من أن أسرى عن نفسى حدة الانفعالات لكى أستطيع ان أفكر . والعجيب فى الأمر هو اننى ـ رغم ذلك ـ أوتيت رأيا مؤكد الصواب، وبصيرة نفاذة، ودقة فى الحكم ، اذا ما اتيح لى الوقت الكافى ..** واننى لأصدر آراء عاجلة اذا تركت وشأنى ، ولكنى لم أفه يوما بشىء ذى قيمة فى اللحظة التى طلب الى فيها ذلك ! وبوسعى ان أجيد النقاش عن طريق التراسل ، بنفس النهج الذى يقال عن الاسبان انهم ينتهجونه فى لعب الشطرنج . وعندما قرأت عن احد دوقات (سافوا) انه قطع رحلته وعاد ليصيح : « سأنقض على عنقك ايها التاجر الباريسى » ، لم اتمالك ان اقول : « هكذا أنا » !

هذا البطء فى التفكير مع فورة الشعور ،لايلازماننى فى الحديث فحسب ، وانما هما معى حتى فى وحدتى ، وعندما اعمل !.. فان افكارى تنسق نفسها فى رأسى بعناء لا يكاد يصدق ، اذ انها تدور فيه على غير هدى ، ثم تتخمر وتفور حتى تحركنى وتبعث الحرارة فى كيانى ، فيتسارع خفقان قلبى. وفى غمرة هذا الانفعال ، لا اعود ارى أى شىء بوضوح ، ولا اقوى على ان اكتب كلمة واحدة ، واضطر الى الانتظار والتريث ..

ولا يلبث الانفعال العظيم ان يخف بطريقة لا أفقهها ، فينقشع الاضطراب ، ويستقر كل شيء في مكانه ، ولكن . . في بطء ، وبعد انفعال طويل مربك . **أفما قدر لك يوما ان تشهد «الأوبرا» في ايطاليا ؟.. ففي خلال تبديل المناظر، تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة ، تمتد فترات طويلة . اذ تختلط كافة الزخارف (الديكورات) بعضها ببعض ، وترى الأشياء تجذب في كل ناحية بشكل مؤلم، حتى ليخال للمرء ان كل شيء قد انقلب رأسا على عقب ! ثم لايلبث كل شيء ان ينتظم شيئا فشيئا ، ولا يبقى أى نقص ، ويدهش المرء اذ يرى منظرا رائعا عقب هذه الفوضى الطويلة !** هذه العملية تقرب من تلك التي تجرى في مخى عندما أرغب في الكتابة . ولو انني تعلمت ان أتريث اولا ، ثم أجنى الأشياء التي ارتسمت في ذهني ، صاقلا جمالها ، لما تفوق على سوى قليل من الكتاب !

من هنا كانت الصعوبة البالغة التي أجدها في الكتابة . وان مخطوطاتي بما فيها من كشط ومحو وسطور متداخلة، وكتابة لاتكاد تقرأ ، لتشهد بالعناء الذي تكبدنيه . فليس بينها ما لم اضطر الى نسخه اربع أو خمس مرات قبل ان استطيع ان ادفع به الى المطبعة ! وما استطعت قط أن أنتج وانا جالس الى منضدتي واوراقي والقلم في يدى ، وانما اعتدت أن أكتب على صفحة ذهني بينما اتمشى وسط الصخور والغابات ، أو في الليل وانا مستلق في فراشي مستيقظا . وفي وسع المرء ان يقدر ذلك البطء ، سيما لدى انسان حرم تماما من ذاكرة تحفظ الكلام ، وما قدر له في حياته ان يحفظ ستة أبيات من الشعر عن ظهر قلب !.. بل ان من عباراتي وجملي ما ظللت أقلبه واديره في راسي خمس او ست ليال ، قبل ان يغدو صالحا لأن يسجل على الورق ! وهنا أيضا السر في أنني اكثر توفيقا في أعمالي التي تتطلب جهدا ، مني في تلك التي تتطلب خفة اسلوب معينة ، كالرسائل .. وهي خفة لم يقدر لي قط ان

اتمكن من الالمام بها، ومن ثم فان هذه المهمة ترهقنى . **فلست أكتب رسالة فى أتفه موضوع ، الا وتكبدنى ساعات من الضنى .. كما اننى اذا حاولت أن أكتب فورا مايعن لى ، لاأدرى كيف أبدأ ولا كيف أنتهى . ومن ثم تكون رسالتى لغوا طويلا مهوشا، يلقى المرء عناء فى فهمه اذا ما قرأها !**

ولا تكبدنى الأفكار عناء فى تسجيلها فحسب، وانما تكبدنى العناء ذاته فى تلقيها . لقد درست الناس ، وأعتقد اننى قوى الملاحظة ، ومع ذلك فاننى لا أملك أن أرى بوضوح شيئا مما أشهده ، وانما أتمثل بوضوح ما أذكره ، ولا أبدى الفطنة الا فى ذكرياتى .. فمن كل ما يقال ، ومن كل ما يعمل ، ومن كل مايجرى فى حضورى ، لا أشعر بشىء ولا أتغلغل ببصيرتى فى شىء . وانما الذى يؤثر فى هو الظاهر وحده ! . . بيد ان كل شىء لايلبث ان يرتد الى ذهنى فيما بعد، فأذكر المكان، والزمان، والحال ، والنظرة ، والاشارة ، والظروف . . لايفوتنى منها شىء. وعندئذ، أتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيه ، ونادرا ما أخطىء ! . . ولو اننى سيطرت على طاقتى الذهنية قليلا ، فيما بينى وبين نفسى ، ففى وسع المرء ان يحدس ما كنت أصبح عليه من براعة فى الحديث، حيث يجب — من اجل الكلام فى الموضوع — ان أفكر فى ألف شىء فى نفس الوقت والمكان . ولكن مجرد التفكير فى التوفيق بين هذه الأشياء — التى اوقن من اننى لابد ان أنسى شيئا واحدا منها على الأقل — يكفى لكى يبث الخوف فى نفسى ! **بل اننى لا أفهم كيف يجد أى امرىء الجرأة على الكلام فى جماعة ، حيث لا غنى له عن ان يطوف ببصره مستعرضا الحاضرين ، مع كل كلمة .. وحيث لابد له من ان يلم بشخصياتهم وسيرهم ، حتى يستوثق من تجنبه ذكر أى شىء قد يجرح شعور أحد منهم .** ومن هذه الناحية ، يمتاز الذين يعيشون فى الدنيا (١)

(١) يقصد الذين يختلطون بالناس ويغشون المجتمعات

بميزة كبرى ، هى انهم يكونون اكثر من سواهم دراية بما لاينبغى ان يصمتوا عنه ، وأشد اطمئنانا الى ما يقولون .. ومع ذلك ، فكثيرا ما تفلت منهم هفوات ، و هنات . فما بالك بمن يسقط فى وسطهم من بين السحب ؟! (١) .. انه ليستحيل عليه تقريبا ان يتكلم لدقيقة دون خوف من الزلل ! .. وهناك مضايقة اخرى فى المساررة - اى عندما اتحدث مع شخص ما فى خلوة - أجدها انكى مما سبق : تلك هى ضرورة الكلام باستمرار . فاذا وجه اليك الحديث، كان عليك ان تجيب .. واذا لم توجد كلمة تقال ، كان عليك ان تحيى الحديث من جديد . هذا الاضطرار الذى لايطاق ، هو وحده الذى ينفرنى من المجتمع . ولست أجد ضيقا افظع من الاضطرار الى الحديث عفو الخاطر وباسترسال . ولا أدرى ما اذا كان لهذا اى شأن من كراهيتى المميتة لكل قهر ، من اى نوع . بيد انه يكفينى ان اكون مضطرا الى الكلام ، لكى انطلق فى لغو لا محيص منه

أما ما يفوق هذا شناعة ، فهو اننى بدلا من ان أستطيع أن أمسك لسانى عندما لا أجد شيئا يقال ، اذا بى أجد نفسى - فى هذا الوقت بالذات - أكاد أجن شوقا الى الكلام، لأرد الدين بأسرع ما استطيع!.. فأبادر الى اطلاق عبارات متلعثمة خالية من أية فكرة ، وتشتد سعادتى اذا كانت لا تعنى شيئا على الاطلاق . واذ أحاول ان أغالب أو أن أخفى غبائى ، فاننى نادرا ما اخفق فى اظهاره ! ومن الف مثال استطيع ذكرها ، اختار واحدا لا يمت الى أيام الصبا ، وانما الى وقت كان خليقا بى ان اكون قد اكتسبت عنده يسرا فى القول - ان كان هذا ممكنا - بعد ان عشت سنوات عديدة بين الناس . ففى ذات مساء ، كنت اجلس بين سيدتين عظيمتين ورجل يحق لى ان

(١) يقصد الذى يعيش بعيدا عن المجتمع ، فى احلامه الخاصة ، ثم يقدر له ان يتكلم وسط الناس

اذكر اسمه ، وهو السيد الدوق «دى جونتو» . ولم يكن ثمة سوانا فى الحجرة ، وقـد رحت أجاهد فى سـبيل ذكر بضع كلمـات ــ يعلم الله ماذا كانت ــ خلال حديث كان يدور بين أربعة أشخاص ، كان بينهم ثلاثة فى غير حاجة ــ بالتأكيد ــ الى تعقيبى . وأمرت ربة البيت باحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوميا لعلاج معدتها . واذ رأت السيدة الأخرى وجهها يتغضن ــ اشمئزازا من الدواء ــ قالت ضاحكة : «أهذا الدواء من لدن السيد ترونشان » . فأجابتها الأولى بنفس اللهجة : « لا اظنه!» .. وهنـا عقب روسو الذكى فى تأدب : « اظن انه لايفوقه فى شىء ! » (١) . وبقى الجميع واجمين، فلم يفه احد بأتفه كلمة او بأضأل ابتسامة. وبعد لحظة، اتخذ الحديث اتجاها آخر. وما كانت هـذه الفلتة لتبـدو ــ فى أى مجلس آخر ــ سوى فكاهة، أما وقد وجهت الى امرأة كانت من رقة الشعور بحيث لاتحب ان تجعل نفسها مادة للحديث ، ولم تكن لدى ــ بكل تأكيد ــ اية رغبة فى مس شعورها ، فقد بدت شنيعة، واعتقد ان الشاهدين ــ الرجل والمرأة ــ عانيا كثيرا لكى يكبحا الضحك. هذا مثال لفلتات الذكاء التى تمنعنى من الرغبة فى الكلام عندما لا أجـد شيئا يقال .. ولن أنسى بسهولة هـذا الحـادث ، لا لأنه ــ فى حد ذاته ــ مما يعلق بالذاكرة ، وانمـا لانه يجول بخاطرى انه كانت له عواقب تدفعه الى ذاكرتى كثيرا

واعتقد ان هذا يكفى لبيان كيف اننى وان لم اكن غبيا ، الا اننى كثيرا ما ظن بى ذلك، حتى من جانب أناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح . وممـا يضاعف سوء حظى ان ملامحى وعينى توحى بفكرة أفضل، وان خيبة هذا الحدس تبدى هذا

(١) كان الدواء حبوبا لتليين المعدة . ومن هنا ندرك انه لم يكن من اللياقة ان يتدخل رجـل فى حديث السـيدتين اللتين لم تكونا سـوى : مدام دى لوكسمبورج ــ وهى ربة البيت ــ ومدام دى ميربوا ، اللتين سيرد ذكرهمـا فى الكراسة العاشرة

الغباء للغير بشكل أبشع ! .. وهذا الاسهاب فى شرح الفكرة ، الذى تولد عن مناسبة خاصة ، ليس خاليا من النفع بالنسبة لما سيأتى فيما بعد . فهو يتضمن ما يجلى غوامض كثير من الأمور الشاذة التى شوهدت منى ، والتى تعزى الى طباع وحشية غير اجتماعية ، ليس لدى فى الواقع شىء منها ! فلقد كنت خليقا بأن أحب المجتمع كأى فرد آخر، لو لم اكن متأكدا من ان ظهورى فيه ليس فى صالحي ، فضلا عن اننى أبدى نفسى شخصا آخر غير ما أنا حقيقة . ومن ثم فان الوضع الذى اتخذته وأنا أكتب واعيش فى عزلة، هو عين الوضع الذى يناسبنى تماما. وأينما اكون حاضرا لا سبيل اطلاقا الى تقدير قيمتى ، ولو تخمينا . وهذا ماجرى لمدام «دوبان» ، رغم انها كانت امرأة ذكية ، ورغم اننى كنت اعيش فى دارها لسنوات عدة . ولقد صارحتنى ــ هى نفسها ــ بذلك كثيرا منذ ذلك الحين . ومع ذلك ، فان لهذه القاعدة استثناءات ، سأعود اليها فيما بعد (١)

أما وقد استقر مجال مواهبى عند هذه الحدود ، فقد تعين الوضع المناسب لى واتضح للمرة الثانية ، ولم يبق من سؤال سوى : كيف املأ مكانى ؟ . . وكانت الصعوبة تتمثل فى اننى لم استكمل دراستى ، ولم أكن اعرف ــ كذلك ــ من اللاتينية ما يكفى لكى أصبح قسا . وكانت مدام دى فاران قد فكرت ــ فى بعض الاوقات ــ فى ان اتعلم فى المعهد الدينى ، وتحدثت الى رئيسه ، وكان راهبا لازاريا (٢) ــ يدعى السيد «جرو»ــ طيبا ، ضئيل الجسم ، أوشك ان يفقد ابصار احدى عينيه ، كما كان هزيلا ، اشيب الشعر . وكان اعظم لازارى عرفته ذكاء ، وأقلهم غطرسة . . وما هذا القول بكثير عليه فى الحقيقة !

---

(١) سنشهد احد هذه الاستثناءات فيما سيذكره روسو فى الكراسة الرابعة عن زيارته لمجلس الشيوخ فى (برن) مع كبير الأساقفة

(٢) من اتباع مذهب القديس لازار فى الرهبنة

وكان يتردد أحيانا على دار ((ماما)) ، فكانت تحتفي به ، وتداعبه ، وتعاكسه كذلك ، وتحمله احيانا على ان يربط لها مشداتها (الكورسيه) ، وهي مهمة كان يقبل عليها راضيا ! وبينما يكون منهمكا فيها ، تأخذ في الجري — في الغرفة — من جانب الى آخر ، لتفعل شيئا هنا ، وشيئا هناك ، والسيد الرئيس يتبعها — مشدودا الى الخيط — وهو يزمجر ولا ينفك يقول : ((ولكن ، اثبتي ياسيدتي !)) .. وكان هذا موضوعا طريفا جديرا بالتصوير !

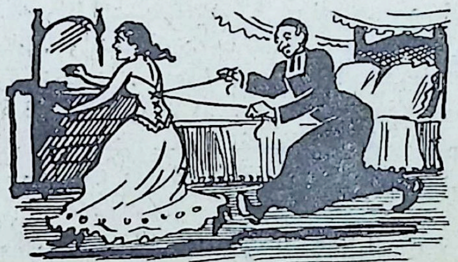

وتقبل السيد «جرو» مشروع «ماما» بتحمس قلبي ، فقنع بأجر متواضع لاقامتي ، وتكفل بتعليمي ، ولم يشترط سوى موافقة الاسقف ، الذي لم يمنح هذه الموافقة فحسب ، وانما رغب في دفع نفقات اقامتي ، كما سمح بأن اظل في زيي المدني الى ان يقضى لي بالنجاح المنشود ، بعد امتحان !

★ ★ ★

• أي تحول هذا ! .. وكنت مضطرا الى الانصياع ، فذهبت الى المعهد الديني وكأنني ذاهب الى عقوبة أليمة ! فيا للمعهد من مأوى حزين كئيب ، لا سيما لمن بارح لتوه دار امرأة حبيبة .. ولم احمل معي سوى كتاب واحد ، رجوت «ماما»

ان تعيرنيه ، وكان مصدر عزاء كبير لى . ولن يتصور أحد اى كتاب كان ذلك!. . لقد كان كتابا فى الموسيقى!. . فبين المواهب التى تعهدتها «ماما» فى نفسها ، لم تكن الموسيقى منسية . اذ كان لها صوت عذب ، وكانت تجيد الغناء ، وتعزف ــ الى حد ما ــ على «البيانو» ، وقد تفضلت بتلقينى بعض دروس فى الغناء ، وكان لابد لها من ان تبدأ من الأصول الأولى ، اذ اننى كنت لا اكاد ادرى شيئا من موسيقى مزاميرنا . وكانت ثمانية او عشرة دروس على يدى امرأة ــ وهى دروس لم يكن سبيل الى استمرارها دون ما يعكر جوها ويقطع استرسالها ــ أقل بكثير من ان تمكننى من السلم الموسيقى ، أومن الالمام بالعلامات الموسيقية. على اننى كنت من الشغف بهذا الفن بحيث رغبت فى ان احاول المران بنفسى . ولم يكن الكتاب الذى اصطحبته من الكتب السهلة ــ فى ذاته ــ فقد تضمن اغانى «كليرامبو». ومن الممكن تصور مدى اقبالى وعنادى ، عندما اقول اننى وفقت ــ دون دراية بوزن ولا تبديل ــ الى ان اترجم وأغنى ، دون خطأ، اللحن الأول من اغنية «ألفيه واريثيز»وكلماتها . . وان كان هذا اللحن ــ فى الواقع ــ موزونابحيث لايستلزم اكثر من القاء الشعر مع مراعاة المسافات والوحدة ، لكى يكتسب وقع اللحن !

وكان فى المعهد «لازارى» لعين تعهدنى ، فجعلنى اكره اللغة اللاتينية التى أراد ان يلقنيها . **وكان له شعر ناعم ، اسود ، ينضح بالدهن ، ووجه كرغيف من خبز الزنجبيل(١)، وصوت كصوت الجاموس ، ونظرة كنظرة البومة ، ولحية كذقن التيس ! . . وكانت ابتسامته ساخرة ، وأطرافه مخلخلة كأطراف الدمية !. . ولقد نسيت اسمه البغيض ، ولكن وجهه المخيف ، ذا اللطف المتكلف، ظل باقيا فى ذاكرتى، لا أكاد أذكره دون أن أرتجف** . ولا أزال أتصور أننى القاه فى الردهات، رافعا

(١) نوع من الخبز يخلط دقيقه بالزنجبيل

فى جلال قلنسوته المربعة المتسخة، مشيرا لى بدخول حجرته، التى كانت ابغض لدى من غرفة السجن ! . . فتصور ــ على سبيل المقارنة ــ استاذا كهذا لتلميذ راهب كان ينتمى الى البلاط الملكى !

ولو قدر لى أن أمكث شهرين تحت رحمة هذا الوحش ، فانى موقن من ان رأسى ما كان ليحتمل ذلك . ولكن السيد جرو الطيب لاحظ اننى كنت حزينا ، واننى لم أكن أقبل على الأكل ، بل كنت ممعنا فى الهزال ، فأدرك سر أساى ــ اذ لم يكن هذا بالأمر العسير ! ــ وانقذنى من براثن هذا الحيوان !.. وبتناقض آخر ، شديد الغرابة هو الآخر ، أسلمنى الى الطف الرجال : وكان راهبا شابا من (فوسيينى) (١) ، يدعى السيد « جاتييه » ، كان موشكا على الفراغ من الدراسة فى المعهد ، وقد شاء ــ بدافع من الرغبة فى ارضاء السيد جرو ، وبدافع من الانسانية على ما اعتقد ــ ان يسلب دراساته الوقت الذى وهبه لتلقينى دروسى. **والحق اننى أبدا ما رأيت أسارير أكثر تأثيرا فى النفس من اسارير السيد جاتييه ! ..فقد كان أشقر ،تميل لحيته الى الحمرة ، وله الهيئة المألوفة لدى أهل اقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم الثقيل ذكاء وافرا .على ان ما كان يميزه حقا هو روح لطيفة ، رحيمة ، مفعمة بالود . وكان فى عينيه الزرقاوين الواسعتين خليط من الرقة والحنان والأسى ، تجعل من المستحيل على اى شخص ان يراه دون ان يميل اليه ..** وكان من الممكن ان يقال ، من نظرات هذا الشاب المسكين ومسلكه ، انه كان على علم بمصيره ، وانه كان يشعر بأنه ولد ليكون شقيا !

ولم تكذب شخصيته مظهره ، فقد كان يتميز بالصبر وحب الارضاء ، مما جعله يبدو أقرب الى الاستذكار معى منه الى التدريس لى ! ..وكان هذا وحده أكثر من ان يكفى لأن يحملنى

(١) مقاطعة صغيرة فى دوقية (سافوا)

على حبه .. ومع ذلك ، فعلى الرغم من كل الوقت الذى منحنيه ، وعلى الرغم من كل التحمس القلبى الذى وجهه كل منا الى دراساتنا ، ومع انه سار على خير نهج ، فاننى لم أحظ من اجتهاده الجم الا بتقدم بسيط ! ومن الغريب اننى ، بما اوتيت من ادراك واسع ، لم أتعلم شيئا من الأساتذة ـ فيما عدا أبى والسيد لامبرسييه ـ أما القليل الذى عرفته فوق ما علمنيه هذان ، فقد حصلته بنفسى ، كما سيتجلى فيما بعد . فان روحى التى لا تصبر على اى نوع من النير، لا تقوى على الرضوخ لحكم اللحظة . بل ان الخوف من عدم التعلم يحول دون ان انتبه ، كما اننى ، خوفا من ان اجعل الشخص الذى يتحدث الى يفقد صبره ، أتظاهر بالفهم ، ومن ثم يمضى قدما فى حديثه ، دون أن أعى شيئا ! فلا بد لعقلى من ان يحدد الوقت الذى يروق له للعمل ، ولا يستطيع ان يخضع للوقت الذى يحدده له الغير !

وحان وقت تنصيب معلمى « شماسا » ، حسب الطقوس الدينية المألوفة ، فعاد الى اقليمه ، وحمل معه حسراتى ، ومحبتى ، وعرفانى . وقد قدمت من أجله نذورا لم تتقبل بأكثر مما تقبلت به النذور التى قدمتها من أجل نفسى . **ولقد علمت بعد ذلك ببضع سنوات ، انه بينما كان نائبا لأبرشية ، أنجب طفلا من فتاة كانت هى الوحيدة التى أحبها ، رغم قلبه المسرف الرقة . وكانت هذه فضيحة شنيعة فى أبرشية كانت تخضع لأنظمة شديدة . فان القساوسة ـ نظرا لخضوعهم لنظم طيبة ـ ينبغى لهم الا ينجبوا أطفالا الا من نساء متزوجات!! .. ومن ثم فان القس الشاب سجن لانتهاكه قانون العفة هذا، وفضح ، وجرد من رتبته .** ولست ادرى ماذا كان قد استرد مركزه فيما بعد ، ولكن الشعور بسوء حظه نقش بخطوط عميقة على قلبى ، وقد عاودتنى قصته عندما كتبت « اميل »، فمزجت شخصيتى السيد جاتييه والسيد جايم ، وجعلت

من هذين القسين الفاضلين الشخصية الاصلية لأسقف سافوا، وانى لأغبط نفسى لأن الشخصية التى خلقتها لم تنل من قدر الشخصيتين الاصليتين !

وفى اثناء وجودى فى المعهد الدينى ، كان السيد دوبون قد اضطر الى مبارحة (أنيسى).. **فقد خطر للسيد «كورفيزى» وكيل الحكومة ان يستاء من غرامه بزوجته ! وكأن هذا اشبه بما جرى لكلب البستانى (١) .. ذلك لأنه بالرغم من ان مدام كورفيزى كانت ذات جمال يهفو بالقلوب ، الا ان زوجها - الوكيل - كان يعيش معها على شقاق ، اذ ان الأهواء التى ورثها عن اهل الجبال النائية جعلت زوجته غير ذات نفع له ، فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما .** وكان السيد كورفيزى رجلا شريرا ، اسود كالفأر الجبلى ، خطافا كالحدأة ، وقد انتهى به استغلاله سلطاته الى طرده من منصبه . ويقال ان أهل الريف يتشفون فى أعدائهم بالأغانى ، أما السيد دوبون فقد تشفى بمسرحية هزلية . وقد أرسل هذه التمثيلية الى مدام دى فاران ، التى اطلعتنى عليها فأعجبت بها. ، وتولدت لدى نزوة تأليف مسرحية أخرى ، لأرى ما اذا كنت قد ظللت « بهيما » كما وصفنى يوما ! على اننى لم أحقق هذا المشروع الا فى (شامبيرى) ، حيث كتبت « عاشق نفسه » ! (ومن ثم فاننى عندما قلت فى مقدمة هذه المسرحية اننى كتبتها فى الثامنة عشرة من عمرى ، انما كنت أكذب ، اذ اننى تجاوزت عن بضع سنوات !)

* * *

• **وفى حوالى** ذلك الوقت ، وقع حادث كان قليل الأهمية فى حد ذاته ، ولكنه كان ذا عواقب بالنسبة لى ، كما انه أحدث

---

(١) الظاهر ان روسو يشير بهذا الى قصة كانت شائعة بين ابناء عصره

ضجة فى العالم عندما نسيته . فلقد كنت احرص على التماس الاذن بالخروج من المعهد مرة فى كل اسبوع ، ولست بحاجة الى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك . وفى يوم من ايام الآحاد ، كنت لدى «ماما» عندما شب حريق فى احدى بنايات «الرهبان السمر» ، وكان ملاصقا لدار مدام دى فاران . وكان هذا المبنى ــ الذى أقيم فيه فرن الرهبان ــ مليئا بالوقود الجاف ، فسرعان ما أصبح كله شعلة من النار ، وأصبحت دار السيدة فى خطر عظيم ، وقد لفها اللهب الذى حملته اليها الريح . وصار من الواجب نقل الاثاث بسرعة من الدار ، وحمله الى الحديقة التى كانت مواجهة لنوافذ حجرتى القديمة ، حيث كان يجرى خلفها الجدول الذى تحدثت عنه . وكنت من الاضطراب بحيث رحت ألقى من النافذة بدون وعى كل ما كان يقع تحت يدى ، ولو كان حجرا كبيرا من احجار الجدار كنت ــ فى الأوقات الأخرى ــ لا أكاد أقوى على رفعه . . بل اننى اوشكت ان القى كذلك بمرآة كبيرة ، لو لم يردنى شخص ما عن ذلك ! ولم يقبع الأسقف الطيب ــ الذى كان فى زيارة « ماما » فى ذلك

اليوم ــ خاملا ، بل انه انتقل بها الى الحديقة ، حيث شرع يصلى معها ، ومع كل من كانوا هناك . . حتى اذا وصلت الى

روسو اثناء اقامته فى انجلترا ، عام ١٧٦٦ : عن لوحة زيتية رسمها له الفنان الانجليزى « رامسى »

الحديقة بعد ذلك بقليل ، وجدت الجميع جاثين على ركبهم ، فحذوت حذوهم . **وفى أثناء صلاة الرجل النقى ، تغير اتجاه الريح فجأة ، وفى اللحظة المناسبة ، فاذا ألسنة اللهب التى كانت تحوط الدار والتى اخذت تسعى الى النوافذ ، تتجه الى الجانب الآخر من الفناء ، فلم يصب البيت بأى سوء !**

وبعد ذلك بعامين — وكان السيد دى برنيكس ، الأسقف ، قد توفى — شرع الرهبان الانطونيون ، وهم زملاؤه السابقون ، فى جمع الأنباء التى يمكن استغلالها فى تطويبه (١) . واستجابة لرجاء الأب « بوديه » أضفت الى تلك الأنباء شهادة بالواقعة التى ذكرتها ، والتى كنت فيها على صواب . ولكننى أخطأت اذ قدمتها على انها معجزة ! فلقد رأيت الاسقف وهو يصلى ، ورأيت الريح تتبدل اثناء صلاته ، وفى اللحظة المناسبة تماما .. وكان ينبغى ان اذكر هذا واشهد به . اما اى الامرين كان سببا للآخر ، فهذا ما لم يكن ينبغى لى أن أشهد به ، لاننى لم اكن املك ان اعرفه . ومع ذلك فاننى — بقدر ما استطيع ان اذكر آرائى يومئذ — كنت كاثوليكيا مخلصا ، ومن ثم فقد كنت صادق الايمان ، ولكن حب الغرائب الخارقة — وهو طبيعى فى فؤاد البشر — وتوقيرى لهذا الراهب الوقور ، **والزهو المستتر باننى ربما كنت قد ساهمت بنفسى فى المعجزة ، ساعدت على تضليلى . أما الشىء المؤكد فهو انه اذا كانت تلك المعجزة نتيجة للصلاة الحارة ، فقد كان من حقى ان اطالب لنفسى بنصيب فيها !**

وعند ما نشرت « رسائل الجبل » — بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما — نقب السيد « فريرون » بطريقة ما عن هذه الشهادة ، واستغلها فى تعليقاته . وجدير بى ان اعترف بأن هذا الكشف كان موفقا ، وقد بدا لى اذ ذاك ان اعلانه فى تلك

---

(١) التطويب فى المسيحية هو ان يعلن البابا — او البطريرك لدى الارثوذكس — بأن شخصا قد حظى بالتمجيد فى السماء ، فاصبح فى عداد القديسين — اذا كان ميتا — او اقترب من القداسة ، اذا كان على قيد الحياة

المناسبة كان امرا سارا

وكان مقدرا لى ان اكون طريد كل المهن . فمع ان السيد دى جاتييه رفع عن تقدمى فى الدراسة تقريرا اعتبرته اقل ما كان بوسعه ان يقدمه ، من حيث اساءته الى ، الا انه رؤى ان تقدمى لم يكن متناسبا مع مجهوداتى ، وان هذا لم يكن مشجعا على المضى فى دراستى . **ومن ثم فان الأسقف ورئيس المعهد فصلانى وردانى الى مدام دى فاران كشخص لا يصلح ولو لأن يكون مجرد قس ، وان كان – فيما عدا ذلك – فتى طيبا ، وخلوا من اية رذيلة ، كما قالا . وكان هذا هو السبب فى أنها لم تنبذنى ، رغم تعدد الأحكام المثبطة ضدى !**

واعدت اليها – مزهوا – كتابها الموسيقى الذى افدت منه. وكان لحن « الفيه واريثيز » هو كل ما تعلمت – تقريبا – فى المعهد الدينى . ولقد أوحى اليها ميلى الملحوظ الى هذا الفن، بأن تجعل منى موسيقيا ! وكانت الفرصة مواتية ، فقد كانت الموسيقى تعزف فى دارها مرة فى الاسبوع على الاقل . وكان رئيس فريق الكاتدرائية الموسيقى يدير هذه الحفلات الصغيرة، وقد اعتاد ان يتردد كثيرا على الدار . وكان باريسيا يدعى السيد «لوميتر» ،بارعا فى التلحين ، كثير النشاط ،مرحا جدا، لا يزال شابا ، على قسط كبير من الملاحة ، ونصيب قليل من الذكاء .. ولكنه كان – فى مجموعه – طيبا . وقد عرفتنى به «ماما» ، فملت اليه ، كما انه لم ينفر منى . وبحث امر الأجر ، وتم الاتفاق . وبايجاز ، ذهبت الى داره ، حيث قضيت أحب شتاء لدى ، اذ ان الدار لم تكن تبعد اكثر من عشرين ياردة عن منزل « ماما » ، فكان بوسعنا ان نكون الى جانبها فى اية لحظة ، وكثيرا ما تناولنا عشاءنا معها

ولا بد أنكم ادركتم ان الحياة فى دار « لوميتر » – بما فيها من غناء دائم ، ومن صحبة الموسيقيين والأطفال المنشدين «الكورس» – قد راقت لى اكثر من حياة المعهد الدينى مع رهبان

القديس لازار . على ان هذه الحياة ، وان كانت اكثر حرية ، الا انها لم تكن اقل نظاما . فقد روضت على حب الاستقلال دون ان اسيء استغلاله البتة . ففى ستة اشهر كاملة، لم اخرج مرة واحدة الا لأذهب الى بيت «ماما» أو الى الكنيسة ، ومع ذلك فاننى لم أشعر بشوق الى الخروج . كانت تلك احدى فترات حياتى التى عشت خلالها فى أعظم دعة ، والتى اذكرها بأعظم اغتباط . فمن بين الاوضاع المتباينة التى وجدت نفسى فيها ، أوضاع امتازت بشعور من السكينة والدعة يجعلنى — حين اذكرها — اتأثر بها وكأننى لا أزال فيها . فلست اذكر الاوقات والأماكن والاشخاص فحسب ، وانما اذكر كل الأشياء التى كانت تحيط بى ، وحرارة الجو ، وعبير الوسط، ولونه ، واى طابع محلى لايوجد الا هناك ، بحيث تردنى ذكراه الحية الى هناك من جديد ! .. مثال ذلك ان كل ما كان يتردد فى دار رئيس الفريق الموسيقى ، وكل ما كان الفريق يترنم به، وكل ما كان يحدث هناك ، وزى الشمامسة الجميل، ومسوح القساوسة، وتيجان المرتلين، ووجوه الموسيقيين، ونجار أعرج طاعن فى السن كان يعزف على الكمان الكبير « الكونترباس » ، وراهب صغير أشقر يعزف على الكمان العادى، والرداء الكنسى المهلهل الذى كان السيد «لوميتر» يرتديه فوق لباسه المدنى بعد ان ينزع عنه سيفه، والقميص الاكليروسى البديع، الرقيق النسيج ، الذى كان يستر به الرداء البالى عندما يسعى الى فرقة المرتلين ، والزهو الذى كنت أسير به — وانا ممسك بصافرتى الصغيرة — لأتخذ مكانى مع العازفين على المنصة ، لأشترك فى ختام مقطوعة صغيرة لحنها السيد « لوميتر » خصيصا من اجلى .. ثم الغداء الطيب الذى كان ينتظرنا بعد ذلك، والشهية الملحوظة التى كنا نقبل بها عليه .. هذا التتابع الحافل ، الذى اتمثله ، قد فتننى — فى ذكراه — اكثر مما فتننى فى الحقيقة مائة مرة ! ولقد احتفظت دائما بميل عاطفى للحن معين من

« كونديتور آلمى سيديرم » يرافق شعرا من بحر الغمب (١)، لاننى سمعته مرة ـ فى يوم أحد الصوم الكبير ـ وانا مستلق فى فراشى ، وكان يرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار، رفقا لعادات تلك الكنيسة . ولقد كانت الآنسة «ميرسيريه» ـ وصيفة «ماما» ـ على دراية بقسط من الموسيقى . ولن انسى البتة ارجوزة دينية صغيرة كان السيد «لوميتر» يحملنى على ان اغنيها معها ، فكانت سيدتها تصغى اليها فى طرب عظيم . وقصارى القول ان الجميع ، حتى الخادم الطيبة « بيرين » ـ وهى فتاة ساذجة اعتاد الفتية المرتلون ان يثيروا غيظها ـ هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين ذكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة ، التى كثيرا ما تتراءى لى لتطربنى وتحزننى !

وعشت فى (أنيسى) زهاء عام دون ما لوم ولا تثريب ، فقد كان الناس كلهم راضين عنى، فاننى ـ مذ غادرت تورين ـ لم ارتكب حماقة ، وما كان لى ان ارتكب ما دمت تحت بصر «ماما» ، فقد كانت ترشدنى ، وكانت دائما تحسن ارشادى ، واصبح تعلقى بها هو عاطفتى المشبوبة الوحيدة . ومما يدل على انها لم تكن عاطفة رعناء، ان قلبى كان يكون عقلى وادراكى. ومن الصحيح ان ثمة احساسا واحدا كان يبتلع ـ كما ينبغى ان يقال ـ كل مقدراتى وكفاءاتى ، فجعل فى غير استطاعتى أن أتعلم شيئا، حتى الموسيقى، بالرغم من اننى بذلت كل جهدى. على انه لم يكن ذنبى !.. فقد كانت العزيمة الطيبة متوفرة على أتم وجه ، كما كانت المثابرة موجودة . ولكنى كنت شارد الذهن ، حالما .. فكنت أتنهد : ما الذى أملك ان افعله ؟ لم يكن ينقص تقدمى شىء من الأشياء المتوقفة على أنا ، ولم أكن احتاج ـ لكى ارتكب حماقات جديدة ـ الى غير موضوع أو شخص «ملهم» يوحى الى بهذه الحماقات ! .. ولقد ظهر هذا

---

(١) بحر من الشعر الاعجمى تكون القافية فيه مؤلفة من كلمات ذات مقطعين

الموضوع ، اذ تولت المصادفة تدبير الأمور، وعرف راسى الفبى كيف يستغل ذلك ، كما سترى مما يلى :
ففى احدى أمسيات شهر فبراير الباردة ، سمعنا طرقا على الباب الخارجى ، بينما كنا نحيط بالمدفأة . وحملت «بيرين»مصباحها، وهبطت ففتحت الباب، واذا بشاب يدخل، ويصعد معها ، ويقدم نفسه فى غير كلفة ، ويوجه الى السيد «لوميتر» تحية قصيرة ، لبقة ، ويعلن انه موسيقى فرنسى دفعه سوء حالته المالية الى ان يعرض خدماته على كنائس الابرشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطلاق فى طريقه . **وازاء هذه الكلمات من ((الموسيقى الفرنسى)) ، خفق قلب ((لوميتر)) الطيب ، فقد كان يتدله فى حب بلده وفنه . واحتفى بالمسافر الشاب ، وعرض عليه مأوى لليلته ، وهو ما كان يبدو فى أمس الحاجة اليه، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة** . وأخذت اتفحصه وهو يتدفأ ويسمر فىانتظار العشاء. كان قصير القامة ، عريض المنكبين . وكان ثمة عيب ــ لم ادر كنهه ــ فى قوامه ، دون ما نقص معين أو تشويه محدد . كان ــ اذا صح التعبير ــ ذا ظهر محدودب ، مع استواء لوحى الكتفين ، كما أظن انه كان يعرج قليلا فى مشيته . وكان فى ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر أكثر مما أبلاه القدم ، فتهلهل .. وقميص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشى تزين صدره ، وطماقين (١) كان بوسعه انيدس ساقيه معا فى اى منهما !.. كما كانيتقى الصقيع بقبعة صغيرة يستطيع ان يدسها تحت ابطه !.. ومع هذا الزى المضحك، فانه كان على شىء منالنبل لم تكن هيئته تكذبه. كانت طلعته رقيقة بشوشة، وكان يتكلم بطلاقةولباقة، ولكن فى تواضع جم .. كان كل شىء فيه ينم عن شاب ماجن

---

(١) « الطماق » وقاء يعلو الحذاء وبعض الساق ، وقد اشتهر باسمه الأعجمى « جيتر » او « طزلك »

ـ وان كان طيب التربيةـ لم يكن يستجدى كالمتسولين، وانما كالمجانين ! ولقد أنبأنا بأنه يدعى « فينتور دى فيينيف » ، وقد وفد من باريس ، وضل الطريق .. وانه نسى ، الى حد ما ، دوره كموسيقى . وأضاف انه كان ذاهبا الى (جرينوبل) ليقابل قريبا له عضوا فى البرلمان

واثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقى ، فأجاد الكلام عنها . **كان يعرف كبار العازفين جميعا، وكافة المؤلفين الذائعى الصيت ، وكل الممثلين، وجميع الممثلات، وحسان النساء طرا، والسادة العظماء بأسرهم ! كان يبدو ملما بكل شىء يقال، ولكن ما ان يثار موضوع ، حتى يحول عنه الانتباه ببعض الفكاهات التى تبعث على الضحك وعلى نسيان ما يقال !** .. وكنا فى يوم السبت ، ومن المقرر ان نعزف فى الكاتدرائية فى اليوم التالى، فاقترح عليه السيد لوميتر ان يشترك فى الغناء هناك.. « عن طيب خاطر ! » .. فسأله عن طبقة الصوت .. «الطبقة العليا »، ثم مضى يتحدث عن شىء آخر !.. وقبل الذهاب الى الكنيسة ، قدم اليه دوره ليطلع عليه ، فلم يلق عليه نظرة . واذهل تصرفه هذا «لوميتر» ، فهمس فى أذنى : «لسوف ترى انه لايعرف علامة واحدة من العلامات الموسيقية! » . فأجبت: « شد ما أخشى ان يكون كذلك » . ورحت ارقبه فى قلق ، حتى اذا بدىء الغناء ، خفق قلبى فى قوة كبيرة ، فقد كنت شديد الاهتمام به. **وسرعان ما تبينت ما طمأننى ، اذ انه غنى قطعتيه بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما ، وفوق ذلك ، بصوت بالغ الجمال . أبدا لم ألق مثل هذه المفاجأة المستحبة !** وبعد القداس ، تلقى السيد فينتور التهانىء جزافا من الكهنة والموسيقيين ، فكان يجيب عنها متفكها ، ولكن فى كثير من الكياسة دائما . وعانقه السيد لوميتر بحرارة ، وكذلك فعلت انا ، وقد أبصر اننى كنت مغتبطا ، فبدا ان هذا سره !

وانى لواثق من ان القارىء سيقرنى على اننى وقد أولعت

بالسيد باكل ـ الذى لم يكن رغم كل شيء سوى قروى جلف ـ كنت حريا بأن أشغف بالسيد فينتور الذى أوتى ثقافة وتربية ومواهب وذكاء وخبرة بالدنيا ، والذى كان من الممكن ان يوصف بأنه ماجن مستحب ! .. وكان هذا عين ما حدث لى ، وما أظن انه كان حريا بأن يحدث لأى شاب آخر فى مكانى . بل ان سهولة حدوثه كانت خليقة بأن تزداد كلما كان المرء أسلم رأيا فى ادراك الكفاءة ، وكلما كان أشد استعدادا لأن يفتتن بها. فليس من شك فى ان « فينتورا » قد اوتى كفاءة ، وكفاءة نادرة فى مثل سنه ، تلك هى عدم الاندفاع الى الكشف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبرة . ومن الصحيح انه كان يتمشدق بأشياء كثيرة لم يكن على علم بها ، ولكنه لم يكن يقول شيئا عن الاشياء التى كان على المام طيب بها ، والتى كانت كثيرة العدد .. وانما كان ينتظر حتى تحين مناسبة لعرضها ، فاذا ما حانت ، انتهزها دون تلهف واندفاع ، فكان هذا يحدث أكبر الأثر . ولما كان يقف عقب كل موضوع ، فلا يتحدث عما عداه ، لذلك لم يكن من سبيل الى التكهن بالوقت الذى يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه .. كان فى حديثه مداعبا ، مرحا ، لا ينضب له معين ، ذا جاذبية خلابة .. يبتسم دائما ولا يضحك أبدا ، ويتكلم بأرق لهجة عن اشد الموضوعات جفافا ، فيجعلها مستساغة ! .. **حتى أشد النساء حياء كن يذهلن لما يتحملنه منه ، وكم شعرن بأن من الخليق بهن ان يظهرن له الغضب ، فلم يجدن القدرة على ذلك ! .. ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات . ولست اعتقد انه خلق ليكون ذا ثروة وجاه ، ولكنه خلق ليثير ايناسا ومرحا لا حد لهما فى مجالس أولئك الذين اوتوا الجاه والثراء !** وكان من العسير أن يبقى محصورا فى وسط الموسيقيين طويلا وهو الذى يملك مثل هذه المواهب المستحبة ، فى بلاد تقدرها وتحبها !

ولقد كان ميلي الي السيد « فينتور » اكثر رشدا في أسبابه ،

واقل انحرافا عن الصواب فى نتائجه ، بل واكثر حرارة واطول بقاء من حبى للسيد باكل ! .. فلقد أحببت أن أراه ، وأن أسمعه ، وكان كل مايفعله يبدو لى رائعا ، وكل مايقوله يبدو لى آيات منزلة ، ولكن افتتانى به لم يذهب الى الدرجة التى لا اطيق معها فراقه . فلقد كان لى فى الجيرة وقاء عاصم من هذا الشطط (١) . والى جانب ذلك شعرت بأن مبادئه ، وان كانت جد صالحة له ، الا انها لم تكن تصلح لى ، فلقد كنت أهفو الى نوع آخر من المتع لم تكن لديه اية فكرة عنه ، بل انه كان حريا بأن يسخر منى من اجله ! ومع ذلك ، فلقد وددت أن أربط هذا الود ، بذاك الذى كان يسيطر على . فتحدثت عنه الى « ماما » فى وجد وحرارة ، كما ان « لوميتر » حدثها عنه فى اطناب ، فرضيت بأن يحضر الى دارها . **ولكن هذا اللقاء لم يكن موفقا على الاطلاق ، اذ انه وجد «ماما» متحذلقة، بينما وجدته هى ماجنا ، وخشيت على من مثل هذه المعرفة السيئة ، فلم تكتف بأن حرمت على احضاره الى الدار مرة اخرى ، بل أنها راحت تبين لى - بوضوح قوى - الأخطار التى أتعرض لها مع هذا الشاب ، حتى اننى ازددت تحفظا فى اندفاعى نحوه ، ولحسن حظ أخلاقى وادراكى ، لم نلبث ان افترقنا بعد قليل !**

* * *

• **كان** للسيد « لوميتر » ما لأبناء فنه من ميول ، فكان يحب النبيذ .. على انه كان يزهده اذا ماجلس الى المائدة ، اما أثناء عكوفه على العمل فى مكتبه ، فقد كان لا بد له من ان يشرب . وكانت خادمته تعرف ذلك تماما ، فكان اذا ما أعد ورقه للتأليف ، وحمل كمانه ، لحقت به قنينة الشراب والكأس بعد لحظة ! .. وكانت تستبدل بها قنينة أخرى مليئة بين آن

---

(١) يقصد مدام دى فاران ، اذ كان بيتها مجاورا لدار السيد لوميتر

وآخر ، فقد كان يكثر من النبيذ دون ان يثمل . وكان هذا فى الحق شيئا يدعو للرثاء ، اذ ان « لوميتر » كان فتى طيبا بفطرته ، وطروبا ، حتى ان «ماما» لم تكن تدعوه الا ب « قطى الصغير » ! .. وكان ـ لسوء الحظ ـ مشغوفا بموهبته الموسيقية ، فكان يسرف فى العمل ، وبالتالى فى الشراب . وقد اثر هذا على صحته ، ثم على طباعه فى النهاية ، فكان فى بعض الاوقات كثير الهواجس ، سهل الاستثارة . وكان عاجزا عن اية خشونة او غلظة ، عاجزا عن ان يقصر فى منح كل انسان حقه من الاحترام ، فما قال يوما سبة ، ولو لصبى من المرتلين . وكذلك لم يكن أحد ليقصر فى احترامه وتقديره ، وكان هذا عدلا ! .. ولكن سوء حظه تمثل فى انه كان قليل الذكاء ، لا يميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات ، ومن ثم فكثيرا ما كان يتوهم الاساءة لغير ما سبب !

ولقد فقد مجمع اساقفة جنيف القديم ـ الذى كان كثير من الامراء والاساقفة يتشرفون بدخوله ـ بهاءه القديم ، فى مهجره ، ولكنه احتفظ بكرامته وكبريائه . فلا بد دائما ـ للانضمام اليه ـ من ان يكون المرء من السادة ، أو من حاملى درجة الدكتوراه من « السربون » ، واذا كان ثمة فخر مباح بعد ذاك المستمد من الكفاءة الشخصية ، فذاك هو الفخر المستمد من المولد . هذا الى جانب ان كل القساوسة الذين اوتوا رجالا مدنيين فى خدمتهم ، كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفع والتعالى . وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون «لوميتر» المسكين فى كثير من الاحيان ، لا سيما المرتل الذى كان يدعى السيد الأب دى فيدون ، والذى كان فى كافة النواحى الأخرى موفور الأدب ولكنه شديد الزهو بنبل أصله ، فقد كان لا يولى « لوميتر » دائما حقه من التقدير الذى تؤهله له مواهبه ، ولم يكن هذا ليحتمل راضيا الغض من شأنه . ولقد وقع بينهما فى « اسبوع الآلام » ـ من ذلك العام ـ نزاع اشد احتداما من

ذى قبل ، بسبب ترتيب الحضور فى مأدبةعشاء اعتاد الأسقف ان يقيمها لرجال الكنيسة ، وكان «لوميتر» يدعى اليها دواما. **فقد أبدى له المرتل بعض الازدراء الصريح ، ووجه له كلمات قاسية لم يستطع ان يتحملها . ومن ثم فقد عقد العزم لفوره على أن يفر فى الليلة التالية . ولم يستطع شىء أن يثنيه ، رغم ان مدام دى فاران ـ التى ذهب اليها ليودعها ـ بذلت قصارى جهدها لتحوله عن عزمه . فما كان بوسعه ان ينزل عن لذة الثأر لنفسه من طفاته** ، بأن يوقعهم فى مأزق فى عيد الفصح ، وهو الوقت الذى كانت تمس فيه الحاجة اليه . على ان الحانه كانت اشد بواعث حيرته ، فقد أراد ان يحملها معه ، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة ، لأن الالحان كانت تملأ صندوقا كبيرا وعظيم الثقل ، بحيث لا يمكن حمله تحت الذراع

ولقد فعلت « ماما » ما كان ينبغى ان تفعله ـ وما كنت أنا الآخر أفعله لو اننى كنت فى مكانها ـ فبعد كثير من الجهود غير المجدية لحمله على البقاء ، رات انه قد صمم على الرحيل مهما يحدث ، فتحولت الى التطوع لمساعدته فى كل ما يمكن ان يعتمد عليها فيه . وانى لأجرؤ على القول بأن هذا كان واجبا عليها نحوه ، اذ كان « لوميتر » قد وقف نفسه ـ كما ينبغى ان يقال ـ لخدمتها . وكان رهن اشارتها تماما ، سواء فيما يتعلق بفنه ، أو فيما يحتاج الى عنايته . وكان التحمس القلبى الذى اعتاد ان يبديه فى اداء رغباتها ، يضاعف من قيمة حرصه على ارضائها . ومن ثم فانها ـ بما ابدته من رغبة فى مساعدته ـ انما كانت تؤدى لصديق ، فى مناسبة حرجة ، ما يقابل كل ما فعله من اجلها فى مناسباب كثيرة متفرقة ـ خلال ثلاث او أربع سنوات ـ وان كانت قد اوتيت نفسا لا تحتاج ، لكى تؤدى مثل هذه الواجبات ، الى من يذكرها بأنها التزامات عليها. **لذلك استدعتنى ، وامرتنى بأن أرافق السيد «لوميتر» حتى (ليون) على الاقل ، وان أظل ملازما له أطول وقت يكون فيه**

بحاجة الى . ولقد اعترفت لى فيما بعد بأن الرغبة فى اقصائى عن ((فينتور)) كانت ذات شأن كبير فى هذا الاجراء . وتشاورت مع « كلود آنيه » ـ خادمها الأمين ـ بصدد نقل الصندوق ، فكان من رأيه اننا بدلا من ان نستأجر دابة لحمله من (انيسى) ـ مما قد يعرضنا للافتضاح ـ يجب ان نتولى نحن حمل الصندوق اذا ما جن الليل ، الى مسافة معينـــة ، ثم نستأجر حمارا من احدى القرى لنقله الى (سيسل) ، حيث نصبـــح على ارض فرنسيـــة فلا نكون معرضين لأى خطر . وقـــد اخذنا بهـــذه النصيحة ، فرحلنا فى الساعة السابعة من مساء اليوم ذاته ، واتخمت « ماما » كيس نقود « القــط الصغير » المســكين ، بمبلغ لم يكن عـــديم النفع له ، بحجة دفـــع نفقاتى . وحمل كلود آنيه والبستانى واياى الصندوق ـ بقدر ما استطعنا ـ حتى اول قرية ، حيث أعفانا منه حمار .. وبلغنا (سيسل) فى الليلة ذاتها

وأعتقد اننى اشرت من قبل الى ان ثمة أوقاتا لا أشبه فيها نفسى فى شىء ، حتى لأبدو شخصا آخر ، ذا شخصية مخالفة لشخصيتى . وها كم مثالا لذلك : فان السيد « زيديليه » ـ راعى كنيســة سيســل ـ كان من قساوسة كنيسة القــديس بطرس ، ومن ثم كان يعرف « لوميتر » ، كمـــا كان من الذين ينبغى على هذا ان يتوارى عنهم . ولكنى رأيت نقيض ذلك ، فنصحت بأن نذهب فنقدم نفسينا اليه بحجة ما ، ونســـأله مأوى لليلتنا ، وكأننا فى (سيسل) بموافقـــة من « المجمع » ! واستساغ « لوميتر » هذه الفــكرة التى تجعل ثاره ساخرا ، لاذعا ، ومن ثم سعينا متجلدين الى دار السيد « زيديليه » الذى احسن استقبالنا . وذكر له « لوميتر » انه كان فى طريقه الى (بيلاى) بناء على طلب من الأسقف ، ليدير موسيقاها فى عيد الفصح ، وانه يتوقع ان يعود بعد ايام قلائل . اما انا فقد كان على ـ لكى أدعم هذه الاكاذيب ـ ان اسكب مائة اكذوبة

اخرى ، بشــكل طبيعى ، حتى ان السيد « ريدليه » ــ اذ رآنى فتى جميلا ــ أبدى لى الود وعانقنى الف مرة . وحظينا بحفاوة طيبة،وبمضجعين مريحين. **ولم يدر السيد ((ريدليه)) الى اى حد رفع قدرنا ، وافترقنا كأحسن أصدقاء فى العالم ، بعد ان وعدناه بأن نمكث وقتا أطول فى عودتنا . ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو الى نفسينا لنطلق العنــان لقهقهتنا .** واصارحكم اننى لا ازال افعل الشىء ذاته كلما فــكرت فى تلك الحيلة ، فلست اتصور البتة حيلة ماكرة أكثر احكاما ولا أسعد مصيرا منها . وقد كانت جديرة بأن تنعش نفسينا طيلة الرحلة، لولا ان « لوميتر » ــ الذى لم يكف عن الشراب وعن التنقــل بين حانات الريف ــ أصيب مرتين أو ثلاثا بنوبات كادت تقضى عليه ، وكانت شــديدة الشبه بالصرع . **وقد زج بى هــذا فى مآزق افزعتنى ، وحملتنى على التفـكير فى الخروج من الأمر كله بقدر استطاعتى !**

وذهبنا الى (بيلاى) لنقضى عيد الفصح ، كما قلنا للسيد ريدليه . ومع ان احدا لم يكن يتوقع حضورنا ، الا اننا لقينا من رئيس موسيقيى الكنيسة ترحيبا ، كما احتفى بنا الجميع بسرور بالغ . فقد كان للسيد لوميتر صيت ذائع فى فنه ،وكان يستحقه عن جــدارة . ولقد تاه رئيس موسيقيى (بيــلاى) فخرا بعرض أبدع ألحانه عليه ، وســعى للحصول على تقريظ ناقد مثله ، فقد كان لوميتر خبــيرا ، وكان الى جــانب ذلك منصفا دائما ، متحررا من الغيرة ،بعيدا عن الرياء . كان أرفع مكانة من كل رؤساء فرق المرتلين الأقليمية ، وقد كانوا يدركون ذلك كل الادراك ، حتى انهم كانوا ينظرون اليه كرئيس لهم ، اكثر منه كزميل !

وبعد ان قضينا أربعة أو خمسة أيام ــ على خير حال ــ فى (بيــلاى) ، استأنفنا الرحيل ، ومضينا فى طريقنــا دون ما حوادث سوى تلك التى ذكرتها من قبل . واذ بلغنا (ليون)،

نزلنا فى فنـدق « نوتردام دى بيتييه » . وفيما كنـا ننتظر وصول الصندوق ـ الذى استطعنا بفضل اكذوبة أخرى ، ان نرسله على مركب فى نهر (الرون) بمعونة راعينا الطيب : السيد ريديليه ـ ذهب السيد لوميتر لزيارة معـارفه ، ومنهم الأب كاتون ، (أحد الرهبان السمر ، وسوف يرد ذكره فيما بعد) ، والراهب دورتان ، كونت دى ليون . وقـد تلقاه الاثنـان فى اكرام ، ولكنهما غدرا به فيما بعد ، كمـا سيتبين القارىء فى الحال . فلقد نفد حسن حظه فى دار السيد ريديليه !

بعد يومين من وصولنـا الى (ليون) ، كنا نجتاز شـارعا صغيرا ، بالقرب من فندقنا ، واذا لوميتر يصاب باحدى نوباته ، وكانت من العنف بدرجـة أفزعتنى ، فرحت أصيح وأصرخ مستنجدا ، وذكرت اسم الفندق ، راجيا نقله الى هناك . وبينما التف الناس حوله ، متحمسين لمعونة رجل سـقط فى الطريق فاقد الوعى وقد أخذ الزبد يفور على فمه ، اذا به يمنى بهجر

الصديق الوحيد الذى كان من حقه ان يعتمد عليه . **اذ اننى انتهزت اللحظة التى لم يكن فيها أحد يفكر فى أمرى ، وتسللت حول ركن الشـارع ، ثم اختفيت . وانى لأحمـد السماء اذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث . ولو كان لدى كثير من هذا**

النوع ، لهجرت هذا المؤلف الذى بدأته

لقد بقيت آثار من كل الذى ذكرته حتى الآن ، فى الأماكن التى عشت فيها ، ولكن الذى سأورده فى الكراسة التالية ، يكاد يكون مجهولا تماما .. انها اعظم حماقات حياتى ، وقد كان من حسن الحظ انها لم تفض الى نهايات أسوأ مما انتهت اليه . ولكن راسى كان قد فقد اتزانه ، ثم استرده من تلقاء ذاته ، واذ ذاك كففت عن الحماقات ، او اننى لم اعد ارتكب منها سوى ما هو اكثر ملاءمة لطبيعتى ! وهذه الفترة من شبابى هى احدى الفترات التى تضطرب ذكراها فى راسى ، اذ انه لم يمر بى خلالها من الأحداث شىء مشوق لقلبى بدرجة تكفى لأن احتفظ له بذكرى واضحة . ومن ثم فمن العسير ان لا ارتكب بعض اخطاء اخلط فيها بين الأزمنة او الأماكن ، اثناء مثل هذه الروحات والغدوات ، وفى خلال التطورات العديدة المتتابعة .. **اننى اكتب معتمدا على ذاكرتى تماما ، دون ما مذكرات ، ودون ماموارد تعيننى على التذكر .. وفى حياتى أحداث لا تزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها ، ولكن هناك كذلك ثغرات وفراغات لا أملك أن أملأها الا بروايات مهوشة كتلك الذكريات المتبقية لها . ومن ثم فاننى معرض للخطأ احيانا ،** كما اننى قد أرتكب الخطأ ثانية ــ فى مسائل غير مهمة ــ الى ان يحين الوقت الذى املك فيه عن نفسى معلومات أوثق . أما فى كل ما له اهمية حقيقية من الموضوعات ، فاننى مطمئن الى دقتى وأمانتى ، اللتين سأحرص عليهما دائما فى كل شىء .. وللقارىء ان يثق من ذلك

* * *

• **ما ان** غادرت السيد لوميتر ، حتى استقر عزمى ، فكررت عائدا الى (انيسى) . وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا الى درجة كبيرة ، من اجل سلامة اقامتنا . وقد صرفنى هذا

الانشغال ـ الذى استغرق كل اهتمامى ـ اياما عن التفكير فى العودة . على ان الشعور بالسلامة لم يكد يعفينى من القلق ، حتى عاد وجدى الى سيطرته وسلطـانه ، فلم يهف بقلبى او يغرينى شىء سوى ان اعود الى ((ماما)) . كان صـدق تعلقى بها ورقتـه قد اجتثا من فؤادى كل حمـاقات الطموح ، ولم أعد أرى سعادة الا فى العيش معها ، ولا سرت خطوة دون ان اشعر بأننى كنت ابتعد عن هنائى . ومن ثم عدت اليها بأسرع ما كان ممكنا . وكان سفرى متعجلا ، وذهنى شـاردا ، الى درجة اننى وان كنت اذكر بكثير من السرور رحلاتى الأخرى ، فلست املك اتفه ذكرى لهذه الرحلة ، اللهم الا مغادرتى ليون ووصولى الى (انيسى) .. ومنذا الذى يتصور ان تخبو هذه الأخيرة من ذهنى ! .. فعند وصولى ، لم أجد مدام دى فاران .. كانت قد رحلت الى باريس !

ولم يقدر لى قط ان أعرف سر هذه الرحلة .. ولقد كانت هذه السيدة خليقة بأن تذكره لى ، لو اننى الححت ، فهذا ما اثق منه كل الثقة . ولكن أحدا لم يكن قط أقل منى فضولا ازاء اسرار الأصدقاء ، اذ ان قلبى لا يفعم بغير الحاضر ، وهو يمتلىء به تماما ، فلا يبقى فيه ركن خال لأى شىء من الماضى ، فيما عدا المتع السالفة ، التى تؤلف بعد ذلك لذتى الوحيدة !.. على ان الذى اتخيله ـ من القليل الذى انبأتنى به « ماما » ـ هو ان الثورة التى قامت فى (تورين) بسبب نزول ملك سردينيا عن عرشه ، جعلتها فى خوف من ان تغدو منسية ، فشاءت ـ بفضل حيل السيد دوبون ـ ان تسـعى للحصول على نفس ما كان لها من امتيازات ، من بلاط فرنسـا الذى كانت كثيرا ما تقول لى انها تفضله على بلاط ملك سردينيا ، لأن المرء ـ فى غمرة الشئون الهـامة الكثيرة التى يشغل بهـا ذلك البلاط الفرنسى ـ لا يظل تحت رقابة صارمة .. واذا كان الأمر كذلك ، فمن الغريب حقا انها لم تقابل ـ عند عودتها ـ بوجوه عابسة ،

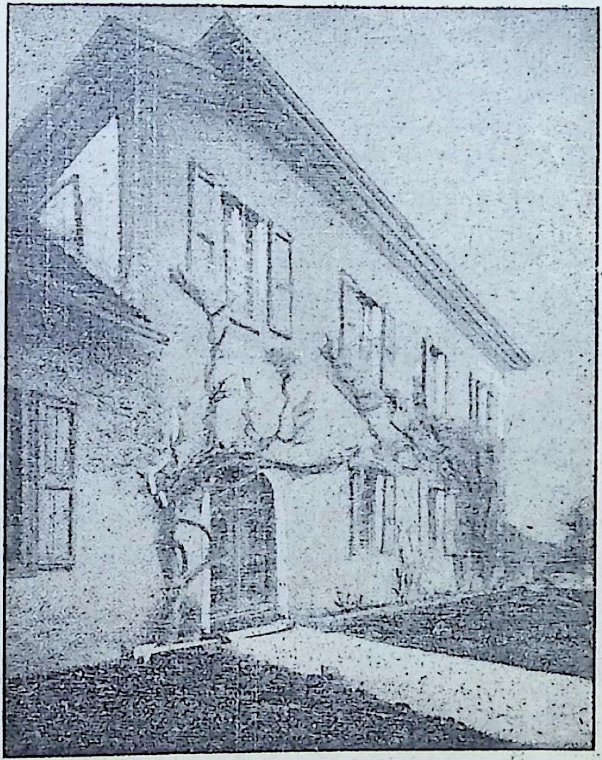

منظر آخر للدار التى شهدت اروع أيام روسو مع ملهمته المشهورة « مدام دى فاران » ، فى ضيعة (ليه شارميت)

وانها ظلت تستمتع بمعاشها باستمرار ، ودون انقطاع . ولقد اعتقد كثير من الناس انهـا كانت مكلفة بمهمة سرية : اما من قبل الاسقف ـ الذى كانت له بعض شئون فى البلاط الفرنسى ـ واما من قبل شخصية أعظم سلطـانا ، كانت تعرف كيف تضمن لها عودة سعيدة ! . **والمؤكد ـ اذا كان الامر كذلك ـ ان اختيار مدام دى فاران كرسول ، لم يكن بعيدا عن الصواب، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لانجاح اية مفاوضـات ، سيما وانها كانت لا تزال شابة .. وجميلة !**

الكراسة الرابعة

٦ - من سنة ١٧٣١ الى سنة ١٧٣٢

• **وصلت** فلم أجدها ، فتصور مدى دهشتي وأساى ! .. اذ ذاك ، بدأ ندمي على التخلص من السيد « لوميتر » يتخذ شكلا محسوسا ، لم يلبث ان ازداد حـدة عند ما سمعت بما أصابه من نحس ، فان الصندوق الموسيقى الذى كان يحتوى على كل ثروته .. هذا الصندوق الثمين الذى أنقذ بكثير من العناء ، انتزع منـه عند وصوله الى (ليون) ، بنـاء على أمر الكونت « دورتان » الذى كتب اليه مجمع القساوسة يطلعه على التهريب .. وعبثا طالب «لوميتر» بثروته ، بوسيلة معاشه ، بنتاج عمله طيلة العمر ! وكانت ملكية الصندوق تستحق ان تكون موضوع نزاع قضائى على الاقل ، بيد ان شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حسم الأمر فى الحال ـ بحكم قانون الأنوى ! ـ وبهذا فقد « لوميتر » المسكين ثمرة مواهبه .. جهد شبابه ومعين شيخوخته !

ولم يكن ينقص الضربة التى تلقيتها شيء كي تصبح مضنية ، ولكنى كنت فى سن ليس للأحزان فيها قبضة تذكر ، فسرعان

ما ابتدعت لنفسى أسباب العزاء .. فرحت أتوقع أن أتلقى عما قريب أنباء من مدام «فاران» ، رغم انني لم أكن أعرف عنوانها ، كما كانت هى تجهل انني رجعت .. اما بصدد التخلى عن السيد « لوميتر » ، فانني بعد التأمل فى هذا الأمر لم اجد فيه ذنبا بالغا ، فلقد كنت نافعا له فى فراره ، وهذه هى الخدمة الوحيدة التى كانت تتوقف على . ولو انني بقيت معه فى فرنسا لما شفيته من علته ، ولما انقذت صندوقه ، ولما فعلت سوى ان اضاعف نفقاته دون ان أملك له نفعا .. هكذا رأيت الامر ، اذ ذاك ، وان كنت أراه اليوم على النقيض . فان التصرف الخسيس لا يكربنا عند ارتكابه ، وانما يصبح مصدر هم لنا عندما نذكره بعد وقت طويل ، لأن ذكراه لا تخمد قط !

وكان الدور الوحيد الذى استطعت ان أقوم به للحصول على أنباء « ماما » ، هو أن أنتظر ، والا فأين كنت ابحث عنها فى باريس ، وبأى نفقات كنت أقوم بالرحلة ؟ لم يكن ثمة مكان اكثر ضمانا من (أنيسى) لمعرفة مقرها ، ان عاجلا أو آجلا . ومن ثم فقد مكثت بها ، ولكنى أسأت التصرف الى حد كبير ، اذ انني لم اذهب اطلاقا لزيارة الأسقف الذى كفلنى من قبل — والذى كان بوسعه ان يكفلنى من جديد — فان راعيتى لم تعد على مقربة منه ، وقد خشيت اللوم منه على ذلك الهرب . وكذلك لم أعد أذهب الى المعهد الدينى ، اذ ان السيد « جرو » لم يعد هناك .. ولم أر أحدا من معارفى ، وان كنت قد تمنيت أن أذهب لزيارة زوجة وكيل الادارة ، لولا انني لم أجرؤ قط ! .. بل اننى ارتكبت ما هو أسوأ من كل هذا ، فقد سعيت الى السيد « فينتور » ، الذى لم أفكر فيه البتة منذ رحيلى ، رغم شغفى به ، فوجدته متألقا مكرما فى (أنيسى) بأسرها ، والنساء يتزاحمن عليه ! وقد افقدنى هذا التوفيق حجاى تماما ، فلم أعد أبصر سوى السيد « فينتور » ، بحيث أوشك ان ينسينى « مدام دى فاران » . ولكى أفيد من دروسه بمزيد من اليسر ،

عرضت عليه ان يشركنى معه فى مسكنه ، فوافق. وكان يسكن لدى اسكافى لطيف مهزار ، لم يكن يطلق على زوجته ـ بلهجته الريفية ـ سوى « العاهرة » ، وهو اسم كانت أهلا له ! وكانت له معها مشاجرات اعتاد « فينتور » أن يسعى لاطالتها وهو يتظاهر بالرغبة فى ان يفعل العكس . اذ كان يوجه اليهما ـ بلهجة هادئة ، وبلكنته الاقليمية ـ كلمات كانت تحدث أعظم أثر .. وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشيا عليه لفرط الضحك ! .. وهكذا كانت فترات الصباح تنقضي دون أن يفطن اليها المرء . فاذا كانت الساعة الثانية أو الثالثة ، تناولنا لقمة ، ثم يذهب « فينتور » الى الأوساط التى كان يغشاها ، حيث يتناول عشاءه .. أما أنا فكنت أتمشى وحيدا ، مفكرا فى براعته البالغة ، وأنا أعجب بمواهبه الفذة واغبطه عليها ، لاعنا طالعى المنحوس الذى لم يكن يفضى بى الى مثل هذه الحياة الهانئة ! .. آه ! ما أقل ما كنت أعرفه عن الحياة الهانئة ! ان حياتى بالذات كانت خليقة بأن تكون اكثر بهجة مما كانت مائة مرة ، لو اننى كنت أقل غباء ، ولو عرفت كيف أستمتع بهذه الحياة على نحو أفضل !

ولم تكن مدام دى «فاران» قد صحبت معها سوى «أنيه» ، بينما تركت «ميرسيريه» وصيفتها التى تحدثت عنها من قبل ، والتى وجدتها تشغل مخدع سيدتها . وكانت الآنسة «ميرسيريه» فتاة تكبرنى قليلا ، ليست بالجميلة ، ولكنها مقبولة الشكل .. فتاة طيبة من بنات (فريبورجوا) ، بريئة من الخبث ، ماعرفت لها من عيب سوى انها كانت ـ فى بعض الاحيان ـ تعصى سيدتها . فأخذت أكثر من زيارتها ، اذ أنها كانت من المعارف القدامى ، وكان مرآها يذكرنى بمن كانت أعز منها لدى ، وبمن أحببتها من أجلها . **وكانت لها صديقات عديدات، بينهن آنسة تدعى ((جيرو)) ، من بنات (جنيف) ، شاءت ان تهوانى ، رغم نقائصى . فكانت تلح دائما على ((ميرسيريه)) ان تصطحبنى الى**

دارها . وقد تركتها تفعل لأنني كنت أحبها – اعنى ميرسيريه – ولأننى كنت أجد هنـاك فتيات أخريات أرتاح الى رؤيتهن .
اما عن الآنسة جيرو – التى كانت تبدى لى كل ألوان المضايقات – فلم يكن لدى انسان مايفوق النفور الذى كنت أحسه نحوها !.. كنت أجد عناء – اذا ما قربت من وجهى أنفها الاعجف الأسود الملوث بالسعوط – فى ان اكبح نفسى عن البصق عليه ! بيد اننى تشبثت بالصبر ، اذ كنت الى جوارها انعم كثيرا بالوجود وسط هؤلاء الفتيـات اللائى كن يتبارين فى الاحتفاء بى ، اما بدافـع التملق للآنسة جيرو ، أو التقرب الى شخصيا . ولم اكن أرى فى كل هذا سوى صداقة . ولقد تراءى لى فيما بعد انه كان فى وسعى ان أرى ما يزيد على الصداقة ، ولكن هذا لم يخطر ببالى ، ولا انا أوليته أى تفكير !

والى جانب ذلك ، فان الحائكات والوصيفات وعاملات المتاجر لم يكن يستهويننى البتـة ، وانما كنت أصبو الى الآنسـات الراقيات ! .. ان لكل امرىء احلامه الخيالية ، وقد كانت تلك احلامى دواما . ولست أرى فى ذلك ما رآه «هوراس» . على انه من المؤكد ان أبهة المكانة والمنصب لم تكن هى التى تجتذبنى ، وانما كانت تفتننى بشرة مصونة بعناية ، ويدان جميلتان ، وزينة بديعة ، وجو من الرقة والطهر يشمل الشخص بأكمله ، وذوق ضاف فى الحركة والقول ، وثوب غال بديع الصنع ، وحذاءان صغيران ، وأشرطة و « دانتيلا » ، وشعر أنيق التصفيف .. **وقد اعتددت دائما أن أفضل من أوتيت كل هـذا ، ولو كانت أقل الفتيات جمالا (.. والواقع اننى انا نفسى أرى فى هـذا التفضيل امرا يدعو الى الضحك ، ولكن قلبى يهفو اليـه على الرغم منى !**

* * *

• حسنا ! .. لقد سنحت لى هـذه الميزات مرة أخرى ،

ولم يكن على سوى أن أستغلها . لكم أحب أن أقع — من آن الى آخر — على اللحظات البهيجة فى شبابى ! .. ما كان أحلاها لى ، وما كان أقصرها واندرها ! .. ولقد استمتعت بها بأبخس الاثمان ! . . آه ! ان مجرد تذكرها يثير من جديد فى قلبى نشوة طاهرة انا فى مسيس الحاجة اليها لتجديد جرأتى ، ولدرء الهجوم عن بقية سنى حياتى !

ففى ذات صباح ، بدا لى الفجر من الجمال بحيث اننى ارتديت ثيابى فى عجلة ، وأسرعت الى الخلاء لأشهد شروق الشمس . واستمرأت هذه المتعة بكل فتنتها ، وكان ذلك فى الأسبوع التالى لعيد القديس يوحنا ، والأرض فى أبهى زينتها ، وقد كساها العشب والزهور .. وكانت البلابل قد أوشكت على نهاية تغريدها ، فبدا انها كانت تستعذب الامعان فى اطلاق اصواتها .. **بل ان الطيور جميعا راحت تشدو مودعة الربيع ، متغنية بمولد يوم بديع من أيام الصيف .. يوم من تلك الأيام الجميلة التى لم يعد المرء يراها فى سنى هذه ، والتى لا يراها المرء اطلاقا فى هذه البلاد الكئيبة التى اقيم فيها اليوم (١)**

وابتعدت عن المدينة دون أن أشعر .. واشتدت حرارة الشمس ، فرحت اسير تحت ظلال اشجار واد صغير على ضفة غدير . ثم سمعت خلفى وقع حوافر جياد ، وصوت فتاتين بدا أنهما كانتا فى محنة ، وان راحتا تقهقهان من أعماقهما . والتفت ، فاذا نداء باسمى ينبعث ، فاقتربت .. ووجدت فتاتين من معارفى ، هما الآنسة دى « جرافينرييه » والآنسة دى « جالى » ، اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير ، لأنهما لم تكونا فارستين ماهرتين . وكانت الآنسة دى « جرافينرييه » شابة من (بيرن) ، ذات ملاحة طاغية ، وقد طردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذى تتسم به

---

(١) كان «روسو» وهو يكتب هذا الجزء من اعترافاته يعيش فى (ووتون) بمقاطعة (سترافورد شاير) بانجلترا

سنها ، فحذت حذو مدام دى « فاران » ـ التى كانت تتردد على دارها لماما ـ على انها لم تكن ذات مورد للعيش ، فلم تملك سوى ان تغتبط بأن تربط نفسها بالآنسة دى « جالى » التي شعرت بمودة نحوها ، فأغرت أمها على السماح لهذه الرفيقة بأن تقيم معها ريثما تجد عملا . وكانت الآنسة دى جالى تصغر زميلتها بعام ، كما كانت تفوقها حسنا . كانت على قدر من الرقة والترفه لا قبل لى بوصفه ، وكانت فى الوقت ذاته دقيقة القسمات ، بديعة القوام ، أوتيت من الفتنة اكبر قسط يمكن أن تحظى به فتاة ! .. **وكانت كل منهما مشغوفة بالأخرى حبا، ولم تكن طيبة نفسيهما الا عاملا على تمكين هذا الود من أن يبقى طويلا ، دون أن يقوى أى عاشق على تعكيره !**

وقالتا لى انهما كانتا تقصدان (تون) ، القصر العتيق الذى كانت تمتلكه السيدة جالى ـ والدة الفتاة ـ ثم طلبتا مساعدتى فى حمل الجوادين على عبور الجدول ، الأمر الذى لم تقويا عليه . وهممت بأن اسوط الجوادين ، ولكن الفتاتين اشفقتا على من الركلات ، وعلى نفسيهما من الوقوع .. لذلك عمدت الى حيلة اخرى ، فأخذت بمقود جواد الآنسة دى جالى ، ثم جررته خلفى ، وخضت الجدول الذى وصل ماؤه الى ركبتى .. واذ ذاك تبعنا الجواد الآخر دون عناء . **واذ تم ذلك ، هممت بأن أحيى الآنستين ثم أمضى فى طريقى كأى أحمق ، ولكنهما تبادلتا بضع كلمات بصوت خفيض ، ثم خاطبتنى الآنسة دى جرافينرييه قائلة : « لا ، لا .. ما هكذا يفلت المرء منا ! لقد أصابك البلل وأنت تؤدى لنا خدمة ، فاصبح من واجبنا ـ نحو ضميرنا ـ ان نعنى بك حتى تجف .. فخليق بك ـ اذا تكرمت ـ ان تأتى معنا ، اذ أنك أسيرنا ! »**

وخفق قلبى ، وتطلعت الى الآنسة جالى ، فأضافت وهى تضحك لما بدا على من ارتباك : « اجل ، اجل .. اسير حرب ! اركب خلفها ، فنحن مسئولتان عنك ! » .. فقلت محتجا :

« ولكن ، يا آنسة .. اننى لم احظ بشرف التعرف الى امك، فماذا ترينها قائلة اذا ما رأتنى ؟ » . . واجابت الآنسة دى جرافينريه : « ان امها ليست فى (تون) ، فقد جئنا وحدنا ، وسنعود فى المساء ، وبوسعك ان تعود معنا ! »

وما كان للكهرباء ان تحدث فى كيانى تأثيرا أسرع مما أحدثته هذه الكلمات .. فقفزت الى صهوة جواد الآنسة دى جرافينريه وانا ارتجف غبطة . وكنت كلما اضطررت الى ان احيط خصرها بذراعى لأحفظ توازنى ، خفق قلبى بعنف لم تلبث ان لاحظته ، فقالت ان قلبها ـ هو الآخر ـ كان يخفق ، لأنها كانت فى خوف من الوقوع !.. **وكان قولها ـ فى مثل هذا الموقف ـ بمثابة دعوة لى كى أتحرى بنفسى صدقه ، ولكنى لم أجرؤ قط !.. ولقد ظلت ذراعاى ـ طيلة الرحلة ـ تحيطان بها احاطة الحزام المشدود، ولكنه حزام لم يتزحزح عن موضعه لحظة ! .. وكم من امرأة ممن يقرأن هذا ، تحس من نفسها رغبة فى ان تعرك أذنى .. ولن تكون مخطئة فى ذلك !**

وأطلق بهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لسانى ، فلم نسكت حتى المساء . بل اننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معا ! ولقد استطاعتا ان تسريا عنى الحرج ، فاذا لسانى لايقل نشاطا عن عينى، وان اتخذ أسلوبا غير أسلوبهما. ولم يكن الحديث يتوتر قليلا الا فى بضع لحظات كنت أجد نفسى فيها على انفراد مع احدى الشابتين ، ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود ، دون ان تسمح لنا بوقت نتحرى فيه سبب ارتباكنا !

وما ان بلغنا (تون) ، وجففت ثيابى ، حتى تناولنا الفطور . وكان لابد بعد ذلك من الانصراف الى المسألة الهامة : مسألة اعداد الغداء . فكانت الشابتان تتوقفان من حين الى آخر ـ وهما عاكفتان على الطهو ـ لتقبلا أبناء حارسة المزرعة . . بينما كان غاسل الأطباق المسكين ـ أنا ! ـ يحملق فيهما ويكبح جماح نفسه ! وأرسلتا الى المدينة فى طلب المؤن وكل ما يكفى

لغداء شهى ، لا سيما الحلوى . **ولكنهما نسيتا النبيذ لسوء الحظ ! ولم يكن هذا النسيان بمستغرب من فتاتين لاتشربان الخمر قط ، بيد اننى استأت اذ كنت أعول على معونته فى استمداد الجرأة . ولقد استاءتا هما الأخريان كذلك ، ولعل استياءهما كان لنفس السبب ، وان كنت لا أظن ذلك** . وكان مرحهما العارم الفاتن هو البراءة ذاتها ! والا فماذا كانتا تملكان ان تفعلاه بى فيما بينهما ؟!.. ولقد ارسلتا فى البحث عن نبيذ فى كافة البقاع المجاورة ، فلم يعثر على شىء منه البتة ، اذ كان اهل تلك المقاطعة فقراء لايقربون الخمر . واذ راحتا تعربان لى عن اسفهما ، قلت لهما ان لا داعى لان تتجشما هذا العناء، وانهما لم تكونا بحاجة الى نبيذ لكى تسكرانى !.. وكانت هذه هى المجاملة الوحيدة التى جرؤت على قولها طيلة النهار . على اننى اعتقد ان الماكرتين قد شهدتا بجلاء كاف ان هذه المجاملة كانت صادقة !

★ ★ ★

• **وتناولنا** غداءنا فى مطبخ المزرعة، وقدجلست الصديقتان على مقعدين طويلين (دكتين) الى جانبى المائدة ، وضيفهما بينهما، على مقعد منخفض ذى ثلاث قوائم. ويا له من غداء!.. أية ذكرى طافحة بالمفاتن ! ولماذا يسعى المرء وراء ملاه أخرى، اذا كان بوسعه ان يحظى بمسرات فى طهر هذه وصدقها ، بأبخس الأثمان !؟.. ابدا ما قدر للوجبات فى منازل باريس الصغيرة ان تدانى هذه الوجبة . ولست أقول هذا عن بهجتها فحسب، ولا عن طربها فحسب، بل أقوله عن نشوتها الحسية كذلك !

وعمدنا بعد الغداء الى شىء من الاقتصاد، فبدلا من ان نحتسى القهوة التى تبقت من الافطار ، احتفظنا بها لنتناولها مع القشدة والفطائر التى احضرتها الفتاتان معهما . ولكى

نرضى شهيتنا ، ذهبنا الى البستان لنتخذ من «الكريز» حلوى نختتم بها وجبتنا . فتسلقت الشجرة ورحت القى للفتاتين بعناقيد من الثمار ، بينما كانتا تردان الى البذور (النويات) خلال الأغصان . **وحدث فى احدى المرات ان بسطت الآنسة جالى مرولتها ، وطوحت برأسها الى الخلف ، وثبتت فى مكانها، فما كان منى الا ان أحكمت الرماية وأنا ألقى بعنقود من الكريز، فهوى فى صدرها !.. وانطلقت الضحكات !.. وقلت لنفسى : « ليت شفتى كانتا من الكريز !.. لكم أنا على استعداد لأن ارمى بهما الى نفس المكان عن طيب خاطر ! »**

وهكذا انقضى النهار فى مرح استرسلنا فيه بأقصى تحرر ، مع التزام اقصى حدود الاحتشام على الدوام !.. فما من كلمة مبهمة تحتمل تأويلا ، ولا ملحة (نكتة) شاردة .. ولم يكن هذا الاحتشام يثقل علينا البتة، بل انه كان ينساب من تلقاء نفسه، وكنا نصدر فى أفعالنا وأقوالنا عن ايحاء قلوبنا ! .. **وقصارى القول انه بلغ من حيائى ـ الذى قد يسميه الغير غباء ! ـ ان اقصى مغازلة أفلتت منى هى ان قبلت يد الآنسة جالى مرة واحدة !** والحق ان الظروف اسبغت على هذه النعمة قيمة خاصة ، اذ كنا وحيدين ، وكانت انفاسى تنبعث فى تهدج، كما كانت عيناها منكستين .. وبدلا من ان يجد فمى قولا، اذا به يلتصق بيدها التى لم تلبث الفتاة ان سحبتها فى رفق ـ بعد أن انطبعت عليها القبلة ـ وهى ترمقنى بنظرة لم تنم عن أى انفعال .. ولست ادرى ما كنت خليقا بأن أقوله للفتاة ، لولا ان اقبلت صديقتها على الغرفة، فلاحت لى ـ فى تلك اللحظة ـ بالغة الدمامة !

وأخيرا ، فطنت الفتاتان الى انه لا ينبغى التريث فى العودة الى المدينة حتى يهبط الليل . ولم يكن قد تبقى من النهار سوى الوقت الذى يمكننا من العودة ، فأسرعنا بالرحيل ، بنفس النظام الذي كنا عليه في المجيء. **ولو انني وجدت جرأة،**

لكنت قد غيرت هذا النظام ، اذ ان نظرة الآنسة جالى كانت قد أثارت فؤادى .. بيد اننى لم أجسر على ان أقول شيئا ، ولم يكن مما يليق بها ان تقترح هى هـذا التغيير ! ورحنا نقول — خلال انطلاقنا — ان اليوم قد انقضى سراعا ، ولكنا بدلا من ان نشكو من قصره ، اجمعنا على اننا اوتينا معجزة اطالته بفضل اسباب اللهو التى عرفنا بها كيف نملأه !

وفارقتهما عند البقعة التى التقطتانى عندها ، تقريبا .. ولكن ، بأية حسرة افترقنا ! وبأى سرور رسمنا الخطة للقاء آخر ! .. ان الاثنتى عشرة ساعة التى قضيناها معا بدت لنا قرونا لفرط الألفة ! وان الذكرى العـذبة التى اقترنت بذلك اليوم لم تكبد الشابتين اللطيفتين شيئا ، ولكن الوحـدة الحنون التى ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل فى قيمتها متعا اكثر بهجة واحتداما .. متعا لم يكن لها بقـاء فى ظلال تلك الرابطة . فلقـد تحاببنا فى غير ما استخفاء ولا استحياء ، وكنا راغبين فى ان نتحاب دائما بهذا الشكل . وان لسذاجة الخلق لنشوتها التى تعادل تماما أية نشوة أخـرى ، لانها لاتعرف راحـة ، ولا تفتـأ تحتدم باستمرار !

اما بالنسبة لى ، فانى ادرك ان ذكرى مثل هذا اليوم اكثر تأثيرا فى نفسى ، وفتنة لى ، وترددا على فؤادى من ذكرى اية متعة تذوقتها فى حياتى ! وما كنت ادرى تمـاما ما الذى كنت ابتغيه من الفتاتين السـاحرتين ، ولكنهما أطربتانى معـا كل الطرب . ولست أقول ان قلبى كان خليقـا بأن ينقسم بينهما قسمة عادلة ، لو قدر لى ان أسيطر على أمورى ، فقد احسست بشىء من الايثار والتفضيل : **كان يسعدنى ان أحظى بالآنسـة جرافينرييه عشيقة ، ولكننى لو خيرت لآثرت — فيما اعتقد — ان اتخذها صديقة حميمة ! وسواء كان هذا أو ذاك ، فقد بدا لى اذ فارقتهما اننى لم اعد أقوى على الحيـاة بدونهما معا . فمن كان منبئى بانه لم يكن مكتوبا لى ان اراهما فى حياتى مرة**

أخرى ، وان هذه كانت نهاية حبنـا الذى لم يعمر سوى يوم واحد !

ان الذين يقرأون هذه السطور لن يتمالكوا أنفسهم من الضحك من مغامراتى الغرامية ، وملاحظة ان اكثرها تطورا كانت تنتهى ــ بعد كثير من التمهيدات ــ بقبلة على اليد ! .. ولكن ، لاتغتروا ياقرائى ! فلعلنى نعمت من تلك الغراميات ــ التى كانت تنتهى بهذه القبلة على اليد ــ بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم فى غرامياتكم التى قد تبدأ بمثل هذه القبلة !

* * *

• **وعاد** « فينتور » الى البيت بعد عودتى بقليل ، اذ كان قد تأخر كثيرا فى الذهاب الى مضجعه فى الليلة السابقة. وفى هذه المرة ، لم اشعر بسرور لرؤيته كمألوف عادتى، كما اننى كتمت عنه النهج الذى قضيت عليه يومى . فان الآنستين كانتا قد تحدثتا الى عنه فى شىء من الازدراء ، وبدا لى انهما استاءتا اذ علمتا اننى كنت فى مثل هذه الرعاية السيئة . فنال هذا من مكانته لدى ، سيما وان كل ما كان يشغلنى عن التفكير فيهما بدا لى غير مستحب .على ان فينتور ما لبث ان ردنى الى نفسى واليه، بأن اخذ يتكلم عن موقفى، اذ غدا أحرج من ان يستمر. فمع اننى لم اكن انفق غير القليل جدا، الا ان كيسى بدأ يفرغ، ولم يكن لدى مورد .. **ولم يكن ثمـة نبأ عن ((ماما)) ، فلم أدر ماذا أفعل ، وشعرت بانقباض شديد اذ رأيت صديق الآنسة جالى يهبط الى مستوى المتسولين !**

وانبأنى فينتور بأنه قد تحدث عنى الى الضابط القضائى (١)، وانه اعتزم ان يصطحبنى لتناول العشاء عنده فى اليوم التالى ، وان هذا الرجل كان فى مركز يمكنه من ان يخدمنى عن طريق أصدقائه .. فضلا عن انه كان من خيرة من يحسن التعـرف

---

(١) (JUGEMAGE) كان موظفا ذا مركز هام ، يطبق العدالة باسم الملك

اليهم ، اذ كان ذكيا وأديبا ، ذا طباع جد ملائمة . وكان موهوبا ، يقدر المواهب لدى الغير . ثم اطلعنى ـ وهو يمزج التوافه بالخطير من الأمور ، جريا على عادته ـ على مقطع بديع من الشعر ، وصل من باريس ، وكان يردد فى لحن باحدى «اوبرات» موريه ، ذاع فى ذلك العهد . ولقد اعجب السيد سيمون ـ وهو اسم الضابط القضائى ـ به ، فأراد ان ينظم مقطعا آخر ، على نفس النغمة ، ردا عليه . . وطلب الى فينتور ان ينظم مقطعا هوالآخر، فتملكته نزوة اوحتاليه بأن يحملنى على ان انظم بدورى واحدا ، حتى تترى هذه المقاطع تباعا ـ حسب قوله ـ فى اليوم التالى ، كما كانت المحفات تتتابع فى « القصة المضحكة » (١)

واذ عز على النوم ـ فى تلك الليلة ـ نظمت المقطع بقدر ما استطعت . وكان لا بأس به، اذا قدرنا انه كاناول مانظمت من الشعر ! **بل انه كان افضل ـ أو على الاقل ، أرق ـ مما كنت خليقا بأن أنظم فى اليوم السابق، اذ ان موضوعهدار حول موقف عاطفى كان قلبى قد تفتح له . واطلعت فينتور ـ فى الصباح ـ على مقطعى الشعرى ، فرآه بديعا ، ودسه فى جيبه دون أن ينبئنى بما اذا كان هو قد نظم مقطعه ؟** . . وذهبنا نتناول العشاء فى دار السيد « سيمون » ، الذى احسن استقبالنا . وكان الحديث طليا ، وما كان من الممكن ان يكون غير ذلك ، وقد دار بين رجلين ذكيين واسعى الاطلاع . . أما انا ، فقد قمت بدورى المعتاد، اذ رحت أصغى وأنا ممسك لسانى . ولم يقل احد منهما شيئا عن اى مقطع شعرى ، وكذلك لم اقل أنا شيئا. . ولم يرد ذكرـ على قدر ما عرفتـ للمقطع الذى نظمته !

وبدا على السيد سيمون انه ارتاح الى مسلكى ، وكان هذا

---

(١) منظر فى الفصل السابع من (ROMAN COMIQUE) ، اروع مؤلفات «سكارون»

قصارى ما عرفه ـ تقريبا ـ عنى فى هـذا اللقاء . وكان قد رآنى من قبل عدة مرات بدار السيدة « دى فاران »، دون ان يولينى اهتماما يذكر . ومن ثم فاننى أحسب معرفتى به منذ ذلك العشاء .. المعرفة التى لم تكن ذات نفع للموضوع الذى كان يشغل بالى، ولكنى أفدت منها ـ فيما بعد ـ منافع اخرى، تجعلنى اذكر السـيد سيمون بسرور . وما ينبغى ان أرجىء الحـديث طويلا عن شكله الذى يستحيل على اى امـرىء ان يكون فكرة عن الرجل ما لم اتحدث عنه ، سيما اذا راعينا ما كان للسيد سيمون من سلطة ادارية وروح طيبة كان يفخر بها..

لم يؤت السيد الضـابط القضائى ـ بالتأكيد ـ من الطول قدمين (١) . **وكانت ساقاه مستقيمتين ، نحيلتين ، وطويلتين فى نفس الوقت ، وكانتا خليقتين بأن تبـدياه طويلا ، لو انهما كانتـا رأسيتين ، ولـكنهما كانتا منفرجتـين كساقى فرجار (برجل) مفتوح على سعته! أما جسمه، فلم يكن قصيرا فحسب، وانما كان نحيلا وضئيلا بدرجة لا سبيل الى وصفها . ولا بد انه كان يبـدو ـ اذا ما تجرد من ثيابه ـ كالجرادة !** أما راسه ـ الذى كان عادى الحجم ، وله وجه مليح التكوين، وقسمات نبيلة ، وعينان بديعتان ـ فقد كان يبدو كراس زائف أقيم على أرومة تبقت من جذع شجرة !.. ولا بد انه كان يقتصد كثيرا من نفقات الكساء ، اذ كانت قلنسوة الشعر المستعار وحدها تكسوه تماما من رأسه الى قدمه !

وكان له صوتان مختلفـان تمام الاختلاف ، يختلطان معـا باستمرار كلما تكلم ، ويتباينان بشكل يبدو ـ فى اول الامر ـ طريفا ، ولكنه لايلبث ان يغدو كريها ! وكان أحدهمـا جهوريا

---

(١) كتب «روسو» فى مخطوطات الطبعة الاولى ان طول سيمون كان قدمين، ثم ضرب عليها بالقلم وكتب «ثلاث اقدام» ؟ .. ولكنه لم يثبت هذا التعـديل فى النسخة الثانية من المخطوطات ، وهى التى استخدمت فى طبعة جنيف

عميقا ، وهو صوت رأسه، ان جاز لى ان اقول هذا . اما الآخر فكان واضحا ، حادا نفاذا ، وكان صوت جسده ! وكان ـ اذا ما التزم الحذر ـ تكلم بتحفظ بالغ ، ونظم تنفسه ، فيستطيع ان يتكلم باستمرار بصوته العميق . . ولكنه لايكاد يتحمس قليلا ، ويتكلم بلهجة أكثر حدة ، حتى يشبه صوته صفيرا منبعثا من نغم عال.. وكان يجد عناء بالغا فى العودة الى الطبقة الخفيضة من الصوت !

ومع هذا المظهر الذى وصفته ، والذى لا مغالاة فيه اطلاقا، كان السيد سيمون مؤدبا ، راوية للطرائف ، شديد العناية بلباسه الى درجة الحذلقة . **ولما كان راغبا فى ان يبدو فى أعظم مظاهره ، فقد كان يحلو له أن يعقد مقابلاته فى الصباح وهو فى السرير ، لأن الذى كان يرى رأسا بديعا على الوسادة ، لم يكن يتصور أن هذا كل ما لديه من حسن ! وكان هذا يؤدى ـ فى بعض الأوقات ـ الى مناظر مضحكة ، اعتقد ان (أنيسى) لاتزال تذكرها !**

• ترى كيف أبعد ((روسو)) عن الفتاتين الفاتنتين : جرافينرييه وجالى ؟ .. وما الحيلة الماكرة التى دبرتها الآنسة جيرو ـ العجوز الشوهاء ـ لاقصائه عنهما ؟ وما المتاعب والمغامرات التى خاضها حتى استطاع ان يلتقى بمدام دى فاران مرة أخرى ؟ وكيف قبلت ((امه !)) هذه أن تصبح عشيقته ؟

ان ((روسو)) يحدثنا عن كل هذا ، فى الكراسات المقبلة من اعترافاته ، التى تقدمها ((مطبوعات كتابى)) فى الجزء الثانى من ((الاعترافات)) ـ الذى يصدر فى منتصف سبتمبر ـ كما يحدثنا عن نزواته واهوائه وتجاربه ، ثم عن ذهابه الى باريس ، حيث بدأ نجمه فى التألق

في العدد القادم من ((مطبوعات كتابي)) ، الذي يصدر في منتصف سبتمبر ، تتابع قراءة هذا الكتاب الكلاسيكي الخالد

اعترافات
چان چاك روسّو

اعترافات

جان جاك روسو

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد
الذي مجدته الإنسانية بأسرها وقرأه العالم أجمع ..
فاقرأ فيما يلي ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ
الكبير سلامة موسى في "أخبار اليوم" (عدد ١٩ نوفمبر ١٩٥٥)

اعترافات جان جاك روسو" من الكتب التي كان يجب
ترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. فلقد تغيرت اوربا
أثير أفكار هذا الأديب، ونستطيع أن نعزو
هم التطورات التي حدثت في هذه القارة الى
ائه!.. والاعترافات هي بدعة ابتدعها "جان
اك روسو" حين وقف عاريا في "اعترافاته"
ول للناس ها أنذا، بكل ما في نفسي
ن نقائص وفضائل!"

سلامة موسى

يصدرها: حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية